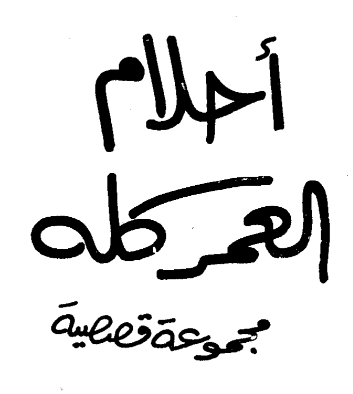
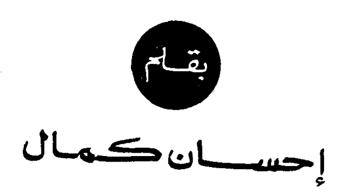




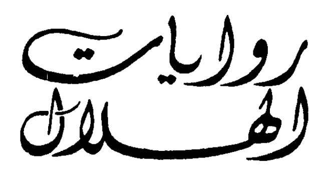
بقلم

إحسان كمال

دار الهلال

الغــــلاف بريشة
الفنــان جمال قطب





مجلة شهرية لنشر القصص العالمى

أحلام العمر كله



أحلام العمر كله

ـ هأنذا يا افندى ..

لكن الافنـدى لم يرد .. ولم يرفع رأسـا .. بل ظل يحملق فى الاسم المكتوب على الكراسة التى فى يده ...

كان ذلك فى مدرسـة نجع حمادى الثـانوية الخاصة للبنين .. عندما وقف مدرس العربى فى احد الفصـول بجسمه النحيل البالغ الطول .. يزيده طولا ذلك الطـربوش الداكن .. رغم أن اللون لم يـكن ينسجم أبدا مع وجهه الاسمر الذى لوحته الشمس حتى حولته الى لون البرونز الخـام ، وعينيه الصفيرتين اللتين لم يكن يبدو لهما لون من خلف نظارته السميكة .. تلك التى ارتكزت على أنف ضخم قد تمدد وتمدد آخذا راحته حتى احتـل مسـاحة ثلاثة أرباع وجهـه .. وتربع عليهـا .. ولم يترك لباقى تقاطيـع وجهـه ـ ومعها ذلك العدد الوافر من النقر الصـفيرة التى تحكى قصـة مرض لعله الجديرى أصيب به حاملها ولم يعالج كما يجب ، والغضون الكبيرة التى تشى بعـدد الأعـوام الكثيرة التى سلخهـا صاحبها من عمر الزمن ـ سوى الربع الباقى .. وقف أمام تلاميذه ممسكا بين يديه اللتين نفرت عروقهما حتى ليمكن لمن يراهما أن يعد عروقهما ويعرف بالضبط خط سيرها واللتين تلوحان ـ وهما على هـذا الحال نموذجا طيبا يستطيع طلبة الطب أن يدرسـوا عليه بوضوح الدورة الدموية للأصـابع .. ممسكا كراسـات الانشاء يوزعها عليهم بعد تصحيحها .. حتى وصـل الى احداها فقرأ الاسم بصوت عال :

ـ محمد السعيد محمود جلال .

وقام صاحب الاسم من مقعـده وتأهب لاسـتلام كراسـته . لـكن الاسـتاذ لم يمد يده .. اضطر التلميـذ أن ينبهه لوجوده لـكنه مع ذلك ظل ينظر الى الـكراسة وعلى وجهـه دلائل التفكير العميق .. أخيرا نظر الى تلميذه وهو يقول :

ـ اسمك هذا يذكرني باسم آخر .. يشبه تماما فقط بالعكس .. محمود جلال محمد السعيد .
ـ لابد أن يكون والدى ..
ـ هل جدك كان اسمه على اسمك .
ـ كلا .. اسمى أنا الذى على اسم جدى .

حك الاستاذ ذقنه متفكرا ..
ـ وما المانع .. من الجائز فعلا أن يكون والدك ، هل كان والدك تلميذا فى مدرسة الانوار الثانوية ؟
ـ لا أعرف طبعا .. أعتقد انني وقتها كنت صغيرا جدا ..
ـ حسنا .. هل تستطيع أن تذكر لى بالتفصيل أوصاف والدك ؟
ـ شاربه صغير و ...
ـ أى شارب يا ابنى .. هل يوجد تلاميذ بالثانوى لهم شوارب ؟.. اسمع .. هل هو أبيض اللون ووجهه أحمر مثل الانجليز .. يميل قوامه الى القصر ؟
ـ تماما .. تماما ..
ـ اذن لابد أن يكون هو محمود جلال.. ياسلام .. اننى أذكره جيدا رغم أننى درست للألوف .. لكن محمود بالذات كان من النوابغ القليلين الذين لا أنساهم .. كنت أحبه كثيرا وأعتبره مثل ابنى .. ليته يكون هو .. بودى أن أرى تلامذتى القدامى بعد أن كبروا وأصبحوا رجالا .. وأين والدك الآن ؟ ..
ـ مقيم معى .. فى البيت ..
ـ اقصد ماذا يعمل ؟
ـ مأمور المركز .
ـ مأمور المركز ؟ البك مأمور المركز ؟ انت ابن البك المأمور ؟ .. محمود جلال أصبح مأمورا ..؟ ياه .. اسمع يا محمد يا ابنى .. قل لأبيك على اسمى اذن بعد عودتك واسأله عما اذا كان .. هو تلميذى حقا .. وهل يذكرنى أم لا .. ؟

***

فى المنزل جلس عباس افندى ساهما ويده على خده .. ودخلت عليه زوجته وهى جد مشغولة .. انه لم يكد يذق الطعام على الغداء .. ان قلقها عليه له أكثر من سبب ليس أهمها حنانها عليه .. تخشى أن يكون مريضا .. ولكنه لم يكن

يمرض .. لم يكن من حقه أن يمرض مثل باقى الناس .. حتى المرض كان محرما عليه .. فالايام التى يتغيبها عن المدرسة كانت تخصم منه مهما تكن الاسباب .. أصحاب المدارس لايرحمون .. لذا كان يتجاهل جميع أعراض الامراض التى كانت تبدو عليه ويتظاهر بأنه لا يراها .. أولاده أحوج لتلك القروش التى قد تقتطع منه .. لقد كان يخفى توعكه حتى عن زوجته.. فمنظرها وهى تفحصه بنظراتها القلقة حين تحس بأى تغيير فى نظام يومه قد يوحى بمرض ما .. يثير من الرثاء أكثر مما يثيره منظر المريض نفسه .. سألته

ـ ماذا بك .. هل أنت متعب .. ؟

ـ أبدا ... اننى أفكر .. تصورى يا بهية ان البك مأمور المركز كان تلميذى فى يوم من الايام ..

ـ كيف ذلك .. ؟ غير معقول .. انك لم تدرس طيلة حياتك فى غير المدارس الاهلية .

ـ وماذا فى ذلك .. هل غريب أن يصبح تلميذ بمدرسة أهلية مأمور مركز ؟

اقتنعت بعد تفكير يسير .. لقد كادت نظرتها للمدرسين بالمدارس الاهلية تنسحب على تلاميذ تلك المدارس أيضا .. والفرق بين المدرس الميرى والمدرس الاهلى كان فى تلك الايام لا يختلف كثيرا عن الفرق بين الريال الحقيقى والريال البرانى .. تنهدت وهى تخرج نفسها من التفكير فى حال المدرسين الاهليين لتعاود السؤال :

ـ هل أنت متأكد أن المأمور كان تلميذك فعلا ؟

قام يذرع الغرفة وهو يقول :

ـ حتى الآن لست متأكدا تماما .. لكن كل الدلائل تشير الى ذلك ـ وغدا صباحا سوف أعرف ..

ـ حسنا .. اذا كان المأمور تلميذك حقا فلماذا لا ت ....

قاطعها وهو يهز رأسه عدة مرات مؤكدا :

ـ هذا هو الأمر الذى افكر فيه من ساعتها .. حقا لو كان المأمور هو نفسه تلميذ زمان .

سرح كل منهما بخياله متصورا أمله البعيد وقد تحقق .. أمل العمر ، بعدها انتقلت عدوى الانفعال الى السيدة بهية .. لم يعد

لها صبر للرد على أى من الأولاد .. لم تعد تطيق الجلوس طويلا فى مكان واحد .. لم تجد لها شهية على العشاء .. لا للأكل ولا للحديث مع زوجها .. لقد بدا لهما أمل كبير هذه المرة بحيث لا يحتمل مجرد الشك فى تحقيق تلك المعجزة .. أجل .. أصبح حصول ابنهما زكى على عمل معجزة ، بعد كل ذلك البحث المضنى طيلة عام ونصف .. لم يترك هو أو والده وسيلة فى وسعهما الا لجآ اليها .. لكن كل وسائلهم تلك كانت دون جدوى .. حيث لم يكن هناك فى ذلك الوقت سوى وسيلتين لا ثالث لهما يمكن أن تصيبا الهدف .. الرشوة أو الوساطة ولم يكن لعباس أفندى استطاعة فى أيهما .. فهو لا يملك أكثر مما يقيم أود أولاده حتى آخر الشهر .. كل شهر .. من أين له اذن ما يدفع منه الرشوة الكبيرة التى لمح اليها أكثر من شخص ؟ .. كذلك لم تكن له معرفة بشخصية كبيرة يمكن أن يفتح اسمها امامه الابواب .. واذن .. فلا مفر أمام ابنه من الانضمام الى جيش العاطلين من حملة الشهادات .. ذلك الجيش الذى كان يتزايد كل يوم مكونا أزمة جديدة الى جانب الازمات الكثيرة الطاحنة التى خلفتها الحرب العالمية الثانية .. والتى لم تجد شيئا فى حلها تلك المقالات الكثيرة التى كانت تنشرها الصحف .. كان عباس أفندى أول الامر يهتم بهذه المقالات اهتماما كبيرا ويقرأ كل سطر فيها حتى يئس من جدواها .

ومشاكل العاطلين جميعا كوم .. ومشكلة ابنه زكى كوم وحدها .. كان قد ظن يوم نجح ذلك الابن فى امتحان الدبلوم بمدرسة التجارة المتوسطة أنه قد حصل لأسرته كلها على التأمين المنشود .. وعلم الله لم يكن حصوله على تلك الشهادة أمرا هينا أبدا .. بل كانت مرحلة تعليمية أكثر صعوبة من مضغ الزلط لم يكن زكى تلميذا متفوقا قط .. حتى ولا عاديا .. ولم تخل سنة واحدة طيلة دراسته من الملحق .. الذى أصبح عادة .. رغم الدروس اليومية التى كان يعطيها له .. عدا الدروس الاخرى التى كان يقوم بها بعض زملائه — كل فى مادته — مجاملة له ، وكأنما لم يكفى عباس أفندى الفكر الذى يلم به عند ظهور النتيجة المعتادة فكانت زوجته تزيده بتأنيبها :

— فرحتى بك يا أستاذ الجيل .. تنجح أولاد الناس، ولا تفلح مع ابنك ..

وكأنه هو الذى رسب .. أو كأنه كان بوسعه أن يسقيه العلوم بالملعقة .. ليت ذلك كان ممكنا اذن لما تأخر .. حقا صدق من قال ان النار تخلف رمادا .. حتى سهل الله أخيرا وحصل على شهادة التجارة المتوسطة .. وقد اختار له والده هذا الاتجاه من التعليم ظنا منه أن الشركات بحاجة الى عدد وفير من خريجيه. وانه ما أن يحصل على تلك الشهادة حتى تتخاطفه الشركات ، لكنه .. مع الايام .. اكتشف أشياء وأشياء كانت خافية عنه .. ليس أهمها ان الشركات فى فترات الحروب تتجه الى توفير عدد من موظفيها لا الى تعيين موظفين جدد .. وان عدد الخريجين الذين يقدرون بالألوف جعل للوظائف الجديدة التى لا تتعدى العشرات سوقا أشبه بالبورصة .. كل يوم فى صعود .. بفضل سماسرتها الجشعين ، وكف عن تقديم الطلبات لكل شركة أو مصلحة بعد أن ظل عاما كاملا يبدو له فيه كل يوم امل جديد سرعان ما ينتهى بانتهاء اليوم .

أصبحت مسألة حصول زكى على عمل أشبه بالحمى بالنسبة للأب والأم معا فالاسرة بجيش الاولاد الذى تضمه لا تعتمد من بعد مرتب عباس أفندى على شىء غير الله .. لا قطعة أرض ولا حصة فى منزل ولا أخوال ولا أعمام أغنياء .. أو حتى فقراء .. والمدرس الاهلى ليس لأسرته معاش من بعده .. صحيح أن الأعمار بيد الله وحده .. لكن عباس أفندى قد قارب السبعين وأصبحت مسألة وفاته أو مرضه وعجزه عن العمل أشبه بالغمامة السوداء التى تظلل سماء الأسرة وتمنعها حتى من الاستمتاع بيومها الى أن يحل ذلك الغد الرهيب .. وانتظار البلاء أشد عناء من وقوعه .. لذلك انحصر امل الأسرة فى حصول زكى على عمل يسندهم وقت الشدة .. لكن الأمل ظل يخبو تدريجيا حتى لم يعد يتبقى منه سوى شعاع ضئيل ـ تماما كبصر عباس أفندى الكليل ـ ابقاه لهم ايمانهم بالله وبقدرته على تحقيق كل شىء ..

ثمة أمر آخر .. أو مشكلة اخرى .. لم تكن شديدة الالحاح كالاولى لكنها أكثر مساسا لقلب عباس أفندى .. كان يحول عينيه فى أى اتجاه بعيدا كلما أحضرت له ابنته دولت شيئا حتى لا تلتقيا بعينيها وفيهما ذلك التساؤل الواضح متى يا أبى .. منى .. متى .. ؟ يوما ثار عليها ورد بنظرة من عينيه كسؤالها ..

نظرة نارية وماذا أفعل ؟ ماذا فى يدى ؟ ماذا تتوقعين منى ؟ أن أسرق ؟ .. اختنقت نظراتها العاتبة خلف ستار من الدموع المنكسرة وكانها تقول له ولماذا انجبتنا ؟ تغيرت نظرته الى الاعتذار .. ذلك أمر الله .. استأنفت عيناها الحديث .. لست متعجلة .. فقط أخشى أن يمل هو .. فينسحب .. والبنات كثيرات ، أما بالنسبة لى فهى فرصة ربما لا تتكرر .. صدفة .. معرفته بنا كانت صدفة فريدة .. لست ابنة سيدة ذات مال ولا رجل صاحب نفوذ يمكن أن يجذبا الخطاب بدون معرفة .. كما أننى لا أخرج ليرانى أو يعجب بى أحد . هل كانت عيناها بكل تلك القوة فى التعبير حتى لتقولا كل ذلك أم انها هواجسه هو ومخاوفه هو .. حيث أنه نفسه .. أحيانا .. عندما تتسع رقعة أحلامه حتى لتصل الى زواج زكى كان يتصور العروس ابنة رجل ليس ثريا ولكنه يملك على الاقل شيئا يتركه لاولاده من بعده ، رفع عينيه بابتهال الى السماء منهيا ذلك الحديث الصامت .. ربنا موجود يابنتى .. ربنا موجود ..

أجل ربنا موجود ومن غيره يمكن أن يؤمل فيه وهو لا يملك أن يضيف الى المائة جنيه التى دفعها العريس مائة قرش .. كى يجهزها انه لم يكن يستطيع أن يشترى الجهاز كله بالمائة جنيه فقط فعرسان تلك الايام لم يكونوا ليتقبلوا ذلك ابدا .. بل لابد من مبلغ يساوى المهر على الاقل ان لم يكن أضعافه ، لم يكن يستطيع أيضا أن يبدأ بشراء بعض لوازم الجهاز من مقدم الصداق حتى يحلها ربنا .. كما اقترحت زوجته .. له هو نظرة أبعد.. ربما لا يتمكن بعد ذلك من اتمامه لو طال المدى .. من أين يأتى وقتها للعريس بنقوده ؟ لابد اذن أن يكون المبلغ الذى سيسهم به هو موجودا قبل أن يتصرف فى مليم واحد من المهر .

الامل الوحيد كان أملا مركبا على أمل .. ربما يكون زكى شهما فيعمل لها ما يسمى بالجمعية بجزء من مرتبه .. وهل يمكن أن يعترض ؟ .. انها شقيقته وكم خدمته وكم لبس وأكل من صنع يديها .. هل يكون أنانيا الى ذلك الحد ؟ .. أراد يوما أن يطمئن فأثار موضوع زواج دولت مع زكى .. فرك زكى كفيه ولم يرد ... غلت الدماء فى رأس عباس افندى وكاد يثور على ابنه .. ألا يعد بشىء .. ؟ لكنه عاد وكبح جماح ثورته .. هل يتنازع على جلد الدب قبل صيده ؟ لتأخذ تلك المشكلة اذن أجازة مؤقتة ،

لـكنها قطعتها وعادت ، حاول أن يسجنها فى أعمـاق النسيـان ولـكنها أكثر من مرة كانت تفافل حراسها وتطفو الى سطح التذكر كيف يمكن أن يتناساها وذلك السـؤال الخالد يتجول ليل نهـار داخل الشقة مع تجوال دولت النشيطة .. آه لو حلت المشـكلة الاولى .. وظيفة زكى .. وظيفة لزكى .. يارب ..

كل تلك الخواطر ملأت ذهن عباس أفندى وقلبه وتفكيره .. بل انها كادت تملأ معدته حتى أن لقيمات قليلة أشبعته ثم عاد الى أفـكاره .. هل يستعصى على مأمور المركز والحاكم العسكرى للبلد كلها بحكم القانون أن يجد عملا لزكى .. ؟ وهل تراه يبخل على مدرسه القديم بخدمة كهذه ؟ .. غير معقول طبعا .. الا ليته يكون هو تلميذه البعيد حقا ..

لم ينم عباس أفندى من الليـل الا أقله .. قام من سريره أكثر من عشر مرات لينظر فى ساعته .. أخيرا عنت له فكرة أفضل .. فتح شيش نافذته ونام قبالتها وعيناه مثبتتان عبرها كأنما يريد أن يجذب بهما أول تباشير الضـوء ليبدد العتمة التى ما زالت باسطة عباءتها على الـكون .. مستعجلا طلوع النهـار .. وكأنه تلميذ ينتظر بلهفة نتيجة أخطر امتحـان له .. لأول مرة ينقلب الوضع ويتعلق أمل مدرس فى كلمة ينطقها تلميـذ .. بل لقد خيل اليه وهو يتلقى تحية الصباح من تلميـذه أنه لا ينتظر الرد على سؤال وانما ينتظر الحكم له أو عليه فى قضية ستقرر مصير حياته ، لـكن التلميـذ لم يـكن يبـدو عليه الاهتمام .. فجأة وجد الـكرة تقترب منه فضربها بقدمه واندمج فى اللعب عدوا خلف الـكرة .. وعباس أفندى يعدو خلفه بطول الفناء وعرضه :

ــ محمد .. محمد .. محمد .. سألت بابا عنى يا محمد ؟.. طلع هو تلميذى القديم يا محمد ؟ ..

***

دق الجرس فأنهى الطلبة اللعب وألقى محمد الصغير نفسه فجأة أمام أستاذ العربى فانطلق مندفعا يقول :

ــ عملت الواجب كله يا أفندى وحفظت المحفوظات صم و..و.
وقاطعه عباس أفندى وهل سألت بابا ؟

وكاد قلب عباس أفندى ينخلع .. ثم هدأ ومحمد يردف :

ــ أقسم بالله العظيم ما سألته فى شىء .. وانما حللت التمارين كلها وحدى ..

وقال عباس أفندى نافد الصبر .. سألته عنى ؟

وتذكر محمد أخيرا : آه .. صحيح .. تصور .. ظهر فعلا أن بابا هو نفس تلميذك الذى تحدثت عنه .. لقد تذكرك فورا حيث ذكر لى أنك كنت المدرس الوحيد الذى يستقبل تلاميذه فى منزله، يبدو أنه كان يحبك كثيرا .. فقد كانت السعادة تبدو واضحة على وجهه وهو يحكى كيف كان هو وعدد من زملائه دائمى التردد عليك وكيف كنت ترحب بهم كثيرا وتحدثهم فى موضوعات شتى خارج الدرس .. لقد ضحك وهو يوصينى أن أسألك هل تذكر الشيخ كباب ؟

الدنيا تدور بعباس أفندى .. وعندما يتمالك نفسه يرد متأثرا :

ــ الشيخ كباب .. وهل أنسى هذه الحكاية طول عمرى .. ؟

ــ وما هى يا افندى حكاية الشيخ كباب هذه ؟

ــ ليس الآن وقتها يابنى .. ليس الآن .. ألم يقل لك شيئا آخر .. ؟

ويرد بعدم مبالاة :

ــ نعم .. قال لى أبلغك أنه يريد أن يرى حضرتك ضرورى .. ويستحسن أن يكون ذلك اليوم ...

وغمغم المدرس : ــ اليوم ؟ اليوم ؟ سأرى ..

لم تكن أجندته حافلة بالمواعيد حتى يرجىء البت فى تحديد الزيارة ولكن كانت هناك أسباب أخرى ، ان بذلته البنية العتيقة لم تكن قد زارت المكوجى منذ أسابيع عديدة .. ليس فقط توفيرا لأجرة « الكواء » .. بل أيضا لأن الدنيا كانت أيامها شديدة الحرارة .. وتوضيح الصلة بين الحر وبين كواء البدلة يحتاج الى تفسير طويل .. « فالمكوجى » اللعين دائما يؤخرها عنده عدة أيام فى كل مرة فيضطر هو أن يرتدى البدلة الثانية الرصاصية اللون .. ولم يكن منظر الاخيرة بأكمامها المرتقة عند الكوع مما يليق بمدرس محترم .. ليست الاكمام فقط .. ياقتها أيضا عملت فيها يد الرفاء .. لذا كان يضطر مرة أخرى .. الى ارتداء البالطو فوقها .. فاذا كان الجو باردا .. أو حتى حارا بدرجة محتملة فقد تبدو حجته فى ادعاء الكحة والزكام وارتداء البالطو حماية وخوفا من المضاعفات معقولة .. أما فى هذا الحر الشديد فستكون مكشوفة ، لذا كانت اجازات

بدلته من الكواء فى هـذه البلدة من الصعيد بجوها الحار أكثر من أجازات موظف مدلل .. وطربوشه .. كان فى حاجة الى الكواء وذقنه لابد أن يحلقها وحذاؤه ؟ و .. و .. لكنه مع ذلك قرر أن يحاول .. أرسل الطربوش مع أحد أبنائه وأوصاه بانتظاره وذهب هو بنفسه بالبدلة .. قال للكواء باعتداد :

ـ وحياتك يا أسطى أريد هـذه البـدلة الآن فان ورائى موعدا .. موعدا مع البك مأمور المركز ..

لم يبد على الكواء أى اهتمام .. فهو شاب مستنير العقل يقرأ الجرائد ويعرف أن جميع الناس متساوون ابتداء من الخفير حتى الوزير .. انه لم يعاصر أيام الاحتلال التى عاشها عباس أفندى حين كان المواطنون ينظرون الى الحكام وكأنهم من طينة أخرى غير طينتهم .. وكان الحكام من جهتهم ـ بمعاملتهم المتغطرسة لهؤلاء المواطنين ـ يؤكدون تلك النظرة .. عباس أفندى لم يستطع أن يتخلص من ذلك الاحساس .. ما زال حتى تلك اللحظة يعيش بعقليته القديمة ، لذلك عندما لم ير من الكواء ما كان يتوقعه من دهشة وانبهار ظن انه لا يصدقه .. عاد يقول وهو يضحك :

ـ أعتقد انك لا تصدقنى .. لا تصدق اننى على موعد لمقابلة البك المأمور ؟ .. معك حق .. اذن ماذا ستقول عندما أخبرك انه كان تلميذى فى يوم من الايام ؟

وكانت دهشة الكواء للظروف الغريبة : مأمور بلدنا كان تلميذك؟ هنا فى نجع حمادى ؟

ـ كلا ... بل فى القاهرة .

اسم القاهرة بما لهـا فى نفس الكواء من رنين وبريق هو الذى اثار انتباهه أكثر من الموضوع كله .. كان قد سمع من بعض من اسعدهم الحظ بزيارتها حكايات وحكايات ..

كف عن العمل ليسأله بدهشة :

ـ كنت تعمل فى القاهرة ؟ .. اذن ماذا رماك هنا ؟

كم مرة تمنى ـ ربما اكثر من عدد شعر رأسه ـ لو كان مدرسا أميريا .. ألا يستطيع ان يحقق ذلك ولو فى الخيال .. الكواء لا يعرف عن أنظمة التعليم شيئا وفى وسعه أن يأخذ حريته أمامه.

ـ نقلت الى هنا ، الوزارة (وبتنحنح) وزارة المعارف تجرى دواما بين مدرسيها حركة تنقلات .

وماذا كان فى وسعه أن يقول ؟ .. أكان لابد أن يذكر له انه اكتشف أن ما ينطبق على العبيد ينسحب ايضا على المدرسين الاهليين .. كلما كبروا فى السن قلت قيمتهم وقل الطلب عليهم ، بعد هذه الخدمة الطويلة أصبح أصحاب المدارس يفضلون المدرسين الشبان .. يستطيعون القيام بأى عدد من الحصص .. عدا أن مرتباتهم أقل ، رغم انه شخصيا لم يكن يدقق كثيرا فى مسألة المرتب حتى قرأ اعلانا نشره صاحب هذه المدرسة فى أعماق الصعيد فشد الرحال اليها ، انتبه على صوت الكواء يسأل بخبث :

ــ لكن ماذا فعلت حتى نقلوك هنا ؟

ويرتبك ..

ــ فعلت ؟ لا شيء طبعا .. دوسيهى ناصع البياض .. انها ليست أكثر من تنقلات دورية .. ثم .. أنا الذى طلبت النقل الى الصعيد بعد أن قال لى الاطباء ان جوه أفضل لصحتى .. و .. وكان من حظى أن وجدت مأمور المركز هنا أحد تلاميذى القدامى..

وأردف قائلا :

ــ أى والله كان تلميذى وكنت انا أدرس له .. أقول له هذا صح وذاك غلط .. تصور ..

كان يتكلم بصوت عال حتى يسمعه كل القريبين من المحل والمارين بجواره ولكم ود ساعتها لو اجتمع أهل البلدة كلهم فى ميدان واحد ووقف هو أمامهم على منصة عالية ليعلن لهم تلك الحقيقة الساحرة .. خاصة لزملائه المدرسين وحضرة الناظر .. ولكن مهلا .. لابد انهم سيعرفون فى يوم من الايام .. وان غدا لناظره قريب ...

كان يمر بفترة نادرة من فترات الرضا عن نفسه .. أجل ان حياته لم تضع هباء .. ومجهوداته فى تعليم التلاميذ أتت ثمارها والبك المأمور لو لم يتلق علومه وتوجيهاته لما نجح فى اللغة العربية وبالتالى حصل على شهادة اتمام الدراسة الثانوية .. ومن لم يحصل على الثانوية فانه بالطبع لا يستطيع الالتحاق بكلية الشرطة .. اذن فهو .. الشخص البسيط الذى لا يكاد يحس به الناس صاحب فضل على البك المأمور ولولاه ما أصبح مأمورا .. وغيره .. وغيره .. كثيرون .. لابد انهم أطباء الآن

وضباط وقضاة ومهندسون .. كانوا يوما تلاميذ جاهلين اتوا اليه لينهلوا من علمه ويتثقفوا على يديه .. وهو هو المدرس الاهلى المتواضع الذى لا يحظى بتقدير أحد .. صاحب الفضل على هؤلاء الذين يحظون بكل الاحترام والتقدير .. حسنا .. يكفيه هذا .. يكفيه جدا .. ويمد يده فى جيبه ليخرج بقية السيجارة ولأول مرة يشعلها مبتسما .. تعود أن يدخن السيجارة على حلقات .. وتعود أن يتحسر ويسخط فى كل مرة يضطر لاطفائها قبل أن يرضى مزاجه تماما .. لكنه ساعتها لم يشعر بالحسرة .. العقب اشبع مزاجه وزيادة .. كما لو كان قد دخن سيجارة كاملة ، لكنه يعود ويتذكر الحاجات المادية لأسرته والوظيفة المرجوة لابنه فيفيق من نشوته ويستحث المكوجى ...

ابتسمت له زوجته ابتسامة لم يرها منذ زمن طويل .. ربما منذ عام ونصف .. ولكن يبدو أن الحكاية كانت أكبر .. قالت له فجأة :

ــ هل تذكر يوم زواجنا يا عباس ؟ .. كنت آخر وجاهة ..

ويتنهد .. اين منى الآن ما كنته فى ذلك اليوم .

وتتحمس الست بهية .. والله انت الخير والبركة على اى حال.

ربتت كتفه برقة وحنان حتى توقع انها ستقبله .. لكنها لم تفعل .. اكتفت بالدعاء له :

ــ بالتوفيق ان شاء الله .

فى مكتب المأمور قالوا له انه مشغول فى لجنة عمد وان امامه الشاويش النوبتجى يستطيع ان يحدثه فيما يريد ، لكنه يعرفهم انه لا يريد شيئا بل المأمور هو الذى يريده وهو الذى استدعاه ويختم حديثه بكبرياء :

ــ فقط قولوا له عباس افندى المتولى .. وهو سيعرف .

بعد انتهاء اللجنة يقوده عسكرى المراسلة الى غرفة المأمور ويمشى وقد ملأته الرهبة يقدم رجلا ويؤخر الثانية .. لكن المأمور يتلقاه بترحاب بالغ يمسح عنه بعض رهبته :

ــ اهلا اهلا عباس افندى .. اهلا وسهلا .. تصور انك لم تتغير كثيرا خلال هذه السنوات الثلاثين التى مضت ؟ .. اننى سعيد جدا ان اراك ثانية يا استاذى .. رؤيتك اعادت لى ذكريات كثيرة جميلة ..

لا يمكن أن يكون المـأمور قد فهم ما رد به عباس افندى .. اذ هو نفسه لم يتبين ماذا قال .. فقط لو جلس .. ربمـا استرد جأشـه .. لـكن المأمور ما زال واقفا يضغط بكلتا يديه على منكبيه الضامرين بود شديد ، ويحـاول أن يلم شتات نفسه والمـأمور يقدمه للموجودين بأنه كان أستاذه فى المدرسـة الثـانوية ، واليوم هو مدرس أبنى .. أى ان أفضـاله على الاسرة كبيرها وصغيرها ، ثم يقدم اليه الحاضرين عنـده وكلهم من الاعيان وكبـار التجـار والموظفين ، ورحب الجميع به وأخذوا يقدمون اليه السجائر .. بل والسيجار .. دخن عددا من السجائر .. الاولى مسرورا والاخيرة متحرجا ثم اضطر للاعتـذار عندما شعر بأنه يكاد يدوخ .. آه لو انه أخذ معه كل السجائر التى قدمت اليه .. لـكفته شهرا .. أسفا على ان الدخان لا يختزن .. كما تفعل الجمال بالطعام .. عموما الفرج اصبح قريبـا عليه فقط أن يطرح التردد ويحدث المـأمور فى مطلبه ..

لـكنه رغم شـدة تلهفه لم يستطع أن يفعل .. كان حتما أن يتحلى بالكياسة وينتظر اللحظـة المناسـبة ، غير أنه ما يكاد يهيىء الفرصة حتى تفلت من بين أصابعه ، رغم طول الوقت الذى قضـاه فى مكتب المـأمور ، ساعتان مرا عليه هناك جاء ذكر طلبـه حتى طرف لسانه خلالها خمسين مرة وأقفل عليه فمه خمسين مرة أيضا .

انقضت أولى الساعتين فى عمل .. وكلما أعد نفسه لذكر مطلبه دخل وافد جديد .. هـذا مرشح أحد الاحزاب فى انتخابات مجلس النواب جاء يشكو من الفاظ ماسة وردت عنه فى منشورات خصـمه ويطلب مصادرتها .. بالاكثر خوفا من تعدى رجاله على رجال ذلك الخصم . وهذا مالك لعدة مئات من الأفدنة يشكو من تعنت مهندس الرى معه وتأخير حصوله على الميـاه رغم حلول الدور عليه .. ثم سكرتير النيابة يقـدم للمأمور طلبـا من البك الوكيل برغبته فى المرور على سجن المركز .. ويبـدو انه كان لذلك الطلب أهميـة كبرى عنـد المـأمور فاقتم كل ما سـبقه فما يـكاد السكرتير ينصرف حتى يصـدر المـأمور عديدا من الاوامر لتنظيف السجن وتحسين ملابس المساجين و .. و .. وهـذا موظف فى دائرة البرنس يوسف كمال يبسط بعض مطالب الدائرة .. دخل بعـده الطبيب البيطرى يستنجد بالمـأمور ، فالوباء متفش بين المواشى

والاهالى يرفضون حقنها خوفا عليها وهو يطلب عددا من الجنود لمصاحبته حتى يحقنها بالقوة بعد ان فشلت كل دعايته فى اقناعهم بكذب الاشاعات التى اطلقت عن حقنه .. وهذا معاون البوليس يقدم للمأمور تقريرا يبدو انه كان بالغ الخطورة والتى انعكست دلائلها على ملامح الرجلين .. وهذا مندوب شركة السكر يحدث المأمور بالفرنسية فلا يفهم عباس افندى مطلبه .. ثم ضابط مباحث شاب بدا لعين عباس افندى شديد الشبه بابنه الثانى سمير .. ذلك الشبه الذى أطلق لآماله العنان فحلق معها .. لم يع من حديث ذلك الضابط سوى بدايته عندما اندفع يبشر المأمور لدى دخوله انهم اخيرا قبضوا على ذلك المجرم العتيد الذى كانت وزارة الداخلية قد طلبت القبض عليه منذ ثلاثةاشهر .. قبل أن يخرج جاء طبيب الصحة يطلب ارسال قوة لاخلاء السكان من المنزل الذى اختاره للمستوصف الجديد .. والذى اجره له صاحبه ومع ذلك يرفض المقيمون فيه الخروج رغم حكم المحكمة الصادر لصالحه .. وغيرهم كثيرون .. عمد وضباط وموظفون واوراق تحمل أوامر تخرج واخرى تدخل لتوقع وان كان ذلك لا يتم الا بعد قراءة دقيقة ، وتليفونات عديدة تدق .. مسكين المأمور .. لم يكن يظن انه مرهق بالعمل الى هذه الدرجة .

بين كل زائر وآخر يتجه المأمور ببصره الى ضيفه ليرحب به :

ـ أهلا وسهلا عباس افندى .. آنستنا يا عباس افندى ..كيف حال الصحة يا عباس أفندى .. هل انت مبسوط ؟ كيف حال أولادك ؟ ..

وقبل أن يرد عباس أفندى يكون المأمور قد غرق حتى أذنيه فى عمل جديد .. الى ان دقت الساعة السابعة مساء .. واعلن المأمور ان وقت العمل قد انتهى وامر بعدم ادخال اى شخص له طلب الا اذا كان الأمر عاجلا جدا .. وجاء بعض كبار الموظفين ليصحبوا المأمور الى النادى كعادتهم كل مساء فاستمهلهم ساعة لأن عنده ضيفا عزيزا ، التفت حينئذ بكليته الى عباس أفندى .. هل تذكر يا عباس أفندى كذا .. هل تذكر يا عباس أفندى ذاك ؟

وانطلق عباس أفندى معه فى الذكريات محدثا الموجودين عن ذكاء المأمور وعبقريته وتفوقه ايام الدراسة .. أقسم لهم انه

كان دائما يتنبأ له بمستقبل عظيم يتفق وهـذا النبوغ المبكر .. وما حصـل عليه حتى اليوم ليس سـوى بداية السلم .. ولـكن قريبا جدا (وسـأذكركم) سوف يعلو كرسى الوزارة .. ولا يلبث أن يقطع المسـافة بين المستقبل والمـاضى فى ثوان ليعود ويقص ويقص مما يذكره عن تلميذه القديم ...

اغلب هـذه الحكايات كانت حقيقة .. فالمـأمور كان فعلا متفوقا فى دراسته ... وان كان عباس أفندى قد بالغ فيها بعض الشىء .. عـندما راى رضـاء المـأمور وغبطتـه بهذه الروايات .. من أين له فى هذه السن بتلك الذاكرة العجيبة حتى أنه لم يكد يغفـل شيئا .. لم يستطع المـأمور أن يكتم تساؤله الموشى بالسرور :

ــ حتى حصولى على الثقافة والتوجيهية فى عام واحد لم تنسه ؟

لم يـكن عبـاس افنـدى يتميز بالذاكرة القوية وحسب ولـكن بقسط كبير من الذكاء ايضا .. أحس من تساؤل المـأمور انه يود لو افاض أكثر فى سرد ذلك الحديث فهو من مفاخره .. من الأشياء التى لا تحدث للـكثيرين كما قال المـأمور بتواضع (بل انها لم تحدث فى التاريخ لسواه) هكذا اكد عباس افندى متحمسا :

ــ ما يكاد الطـالب ــ أى طالب ــ ينجح فى امتحـانه حتى ينصرف للهو والمرح اما انيذاكر طيلة الاجازة ثم يتقـدم للشهادة التالية فى امتحان الملحق من المنزل ويحصل عليها أيضا بنفس التفوق فتلك ــ والا فأى شىء آخر ــ المعجزة . ويستدرك :

ــ كان ذلك دابه فى جميـع الاجازات على مدى الاعـوام التى درست له خلالها ، أكثر من مرة حضر الى خلال العطلة الصيفية ليسألنى فى بعض علوم السنة الدراسيـة التالية بعد أن يـكون قد اشترى جميـع كتبها .. بعدها لم يـكن غريبـا ان تكون الدراسة بالنسبة له كشرب كوب من الماء .. لا يهمه ان يضيع نصف الاسبوع فى التمرن على لعبة الكرة ..

أما عن براعته فى تلك اللعبـة فيتحدث غير محرج .. عن عدد المباريات التى كسبتها المدرسة خلال لعبه لها .. كان « الجول » لفريق المدرسة الذى حاز بطـولة مدارس القطـر ولم يخسر مباراة واحدة طيـلة وجوده فيه ، ثم عرج على حكاية الشـيخ كباب عنـدما احتك فى أمر ما مع ناظر المدرسـة وصـاحبها ففصله بـكل بسـاطة .. خاصـة وصـدر النـاظر كان موغرا ضـد

عباس افندى من قبـل بسبب وشـايات ما فتىء يدس بها احـد زملائه .. لم يفطن عباس أفندى لسبب تلك الوشـايات الا متأخرا .. بعد أن علم ان الأستاذ المعمم الذى حل محله هو شقيق ذلك الزميل الغادر .. لم يحب التلاميذ المدرس الجديد قط :

— وتزعم « البك » وفودهم التى كانت تذهب الى الناظر راجيـة عودة عباس أفندى لكن الناظر لم يعـــر الرجاءات آذانا صاغية ، فما كان منه الا ان دبر للمدرس الجديد فصـــلا لا يختلف عن روايات السينما .. اختبـأ مع عدد من زملائه ليـلا فى مكان مهجور يقع فى طريق عودة ذلك المدرس كل ليـلة من المقهى الى منزله .. بعد أن تلفحوا بملاءات بيضـاء وأمسكوا بأيديهم أسـياخا من تلك التى يشوون عليها اللحم .. وما كادوا يلمحونه حتى احاطوا به وهم يدمدمون بـكلمات غير مفهومة ويقفزون حـوله قفزات شيطانيـة ملوحين بالاسياخ فى أيديهم . ظلوا على ذلك بضع دقائق والشيخ وصـل به الذعر مداه .. سـكتوا أخيرا ليتكلم (البك) فى صوت عميق مدو « انت رجل شرير .. اخذت مكان انسـان مظلوم لذا حكمنا بتقطيع جسمـك اربا اربا .. وشيه على هـذه الاسيـاخ لتقدمك فى وليمة كبرى للجـان .. اذا .. اذا لم تستقل فى ظرف أسبوع » . وخاف الشيخ على لحمه .. أو على حياته فقـــــدم استقالته .. ولم يجد الناظر بدا من اعادتى .. رجعت معززا مكرما .. من يومها سمينا الشيخ المستقيل الشيخ كباب ..

عقارب السـاعة تزحف وعباس افندى ما زال يروى والمـأمور غارق فى السعادة .. الحاضرون مبهورون وهو ينتقل بهم بين فصول الدراسـة وملاعب الـكرة ومنزله وحجرة الناظر حتى وصـل الى مواقف المـأمور الوطنيـة عنـدما كان يتزعم المظاهرات السـاخطة على الانجليز .. المنـادية بالاسـتقلال التام .. حين لاحظ فتور المأمور ما زال يشجع ويؤيد ، بل واحيـانا يعمـل مع كل حركة المسئول غير التلميـذ الصـغير .. حتى عنـدما علم بعد ذلك ان المـأمور ما زال يشجع ويؤيد ، بل واحيـانا يعمل مع كل حركة تحررية تقوم فى البـلد ضـد المستغلين والمستعمرين ولـكن سرا .. لم يغير رأيه .. اذن لم يـكن هو فقط الذى اضطر بعـد حادثة الشيخ كباب الى مهـادنة أصحاب المدارس فى كل شىء والسكوت عما لا يعجبـه منهم حتى انه رفض حضـور الاجتماعات التى كان يعقدها شبـاب المدرسـين للبحث فى مطالبهم ، بل انه لم يتأخر يوما

عن توقيع الاقرارات التى تقدم اليه والتى كانت تؤكد انه يعامل حسب أوامر الوزارة من حيث المرتب وخلافه .. رغم انه لم يكن يقبض فى يده فعلا نصف ما كان يوقع عليه .. أجل لم يكن هو فقط الذى اضطر الى اغماض العين عن القذى .. فها هو ذا المأمور نفسه يضطر لاخفاء أعماله ومشاعره الوطنية بعد أن كان شعلة من الحماس ، ينادى بأعلى صوته بكل ما يؤمن به من مبادىء .. حفاظا على منصبه .. ما كان منه عندئذ الا أن يغير الموضوع سريعا.

ذكرته فكرة الحفاظ على المناصب بالعمل الذى يرجوه لابنه فبدأ يمهد لانهاء ما عنده من الذكريات حتى يحدث المأمور فى ذلك الموضوع .. عندما دق جرس التليفون مبلغا المأمور عن وقوع حادثة قتل فى احدى العزب التابعة للمركز ، فى الحال قام المأمور من مكانه وهو يوجه حديثه لمدرسه القديم :

ــ عن اذنك يا عباس أفندى .. دعنا نراك دائما .. اذا كان هناك شىء يضايقك أو كان لك اى طلب .. فقط قل لى عنه .. انا طبعا مستعد لأى خدمة ..

لكنه لم يستطع ان يتكلم فالبكسفورد قد حضر أمام الباب والحجرة امتلأت بالضباط والمخبرين والمأمور يرتدى طربوشه فى عجلة ...

خرج عباس افندى يسير كالمحموم ، أحقا قابل المأمور ولم يحدثه فى مطلبه ؟ وهل كان يعدم المناسبة ؟ لاحت له أكثر من مناسبة .. بل كان فى استطاعته أن يخلقها لو لم تاح من تلقاء نفسها .. هل يا ترى ستتكرر الفرصة امامه قريبا ؟ .. على أن اخشى ما كان يخشاه .. مقابلته لزوجته .. لدى دخوله الفاها تجلس قرب النافذة فى حالة تحفز .. لم تترك له الفرصة لالقاء السلام ما كادت تلمحه داخلا حتى انهالت عليه بالاسئلة ..

ــ هيه .. هل قابلت المأمور ؟ .. هل حدثته ؟ .. وعدك ؟ .. هل كان يبدو عليه أنه جاد فى وعده وينوى تنفيذه أو انه فقط كان يزحلقك .. ؟

بذل عدة محاولات لمقاطعتها حتى استطاع اخيرا أن يذكر لها انه لم يحدث المأمور قط فى تلك المسألة .. واذ بها تصمت قليلا كالمصعوقة ثم تنطلق هادرة :

ــ كيف ذلك .. هل جننت ؟ .. ما هذا الكلام ــ هل يوجد

انسان فى الدنيا يضيع مثل هذه الفرصة ؟

بالكاد استطاع اسكاتها : كان المأمور مشغولا جدا .. ثم اننى لم اجدها مناسبة ان اطلب منه خدمة فى أول مقابلة .. ماذا يقول الرجل عنى ؟

ــ وماذا كان عساه سيقول ؟ ثم .. فليقل أى شىء .. المهم كان الواجب الا تضيع فى يدك فرصة كبيرة مثل تلك الفرصة .

ــ يا ستى لم تضع ولا أى شىء .. عندما اقابله فى المرة القادمة .

قاطعته وهى تكاد تبكى .. هل انت ضامن انك ستقابله مرة قادمة ؟

ــ طبعا .. انه هو بنفسه الذى اكد على .. قال لى بالحرف .. « دعنا نراك دائما .. »

ــ ربما كانت كلمة مجاملة ليس الا ..

ــ كلا .. كلا .. بل كانت من قلبه ، وسأمر عليه بعد بضعة ايام

ــ ولماذا تنتظر بضعة ايام أخرى .. ؟ لماذا بالله عليك ؟..

تشبه شخصا كان ابنه فوق كتفه فاذا به يضيعه ثم يدور بعدها يبحث عنه .. الا تفترض أنه ربما شغل بعد ذلك فلا يجد لديه وقتا لمقابلتك ؟ الا تفترض انه ربما يسافر فى اجازة ... أو ينقل من هذا المركز نهائيا .. ؟ الا تفترض أنك أنت ...

لكنها لم تكمل .. فذكر الموت غير مستحب .. حتى فى السبعين ، ثم لقد انتهى الامر فلتجعل كل همها من الآن أن تذكره وتؤكد عليه حين تأزف ساعة المقابلة الثانية ، لكن المقابلة الثانية تأخرت .. من سوء الحظ لم يحل ايامها عيد ولم تبد أى مناسبة ولو تافهة لذهاب عباس افندى الى المركز وفى كل يوم يؤكد على تلميذه :

ــ سلم على والدك كثيرا ..

ثم يسأله فى الصباح التالى : هل أبلغت سلامى للبك المأمور ؟..

ــ نعم .. وهو بدوره يسلم عليك ...

وينتظر عباس افندى بقية الحديث ولكن محمد الصغير يسرع وراء الكرة اذا وقعت تلك المحادثة فى الفناء .. أو يفتح درجه ليخرج كتاب المطالعة اذا كان الحديث فى الفصل دون أن يزيد ..

ويمر أسبوع وتحت الحاح زوجته يذهب الى تلميذه القديم الذى يقابله بنفس الحفاوة :

ـ ما هذا .. اين انت يارجل ؟ .. اكانت زيارة واحدة وانتهى الأمر .. ؟

ويرد عباس افندى الذى كان قد صمم أن يحول اى حديث الى مطلبه العتيد :

ـ أنا تحت النظر يا سعادة البك .. فقط كنت مشغولا بعض الشيء فى مشكلة ..

ـ خير ان شاء الله ..

ـ ابنى زكى .. حصل على الشهادة منذ عام ونصف ومن يومها وأنا ابحث له عن عمل ..

ـ أين تريده أن يعمل .. ربما استطعت مساعدتك ..

وبدت الحيرة على وجه الاستاذ : ماذا تعنى بأين ؟ ..

ـ يعنى فى الحكومة أم تفضل له العمل فى الشركات ؟ ..

وكاد عباس افندى يبكى : اى شىء يابك .. اى شىء ..

ـ ما رأيك فى اننى أرجح كفة الشركات .. خاصة شركة السكر .. تدفع مرتبات لا بأس بها .. خذ هذه البطاقة ودعه يذهب بها غدا الى الشركة ..

هكذا بكل بساطة كتب المأمور توصية على بطاقته .. لم يحتج الامر الى تلك المحاضرة الطويلة التى كان عباس افندى قد أعدها فى ذهنه عن احتياجهم الشديد لتلك الوظيفة .. لكنه رغم ذلك قالها .. فطيب المأمور خاطره :

ـ هو فقط يقدم تلك البطاقة للمسئولين فى الشركة غدا وعلى الله التوفيق ...

فى اليوم الثانى ذهب زكى بالبطاقة الى شركة السكر وفى الاسبوع الثانى كان يجلس على احد مكاتبها موظفا محترما .. بمرتب يقل قليلا عن مرتب والده الذى قاربت مدة خدمته فى التعليم نصف قرن .. لقد كاد الذهول يستولى على عباس افندى وزوجته حين جاءهما الخبر السعيد .. أو حين تحققت المعجزة التى كانوا قد يئسوا من تحقيقها أو كادوا .. بعد الذهول كانت الفرحة الكبرى .. واى فرحة .. واى سعادة بعد أن تخلصوا من حمل ثقيل كان يكاد يقصم ظهورهم .. ولم يعد الغد يبدو لهم وكأنه غول مفترس يفتح فمه تأهبا لأن يبتلع أولادهم .. لقد كان عباس افندى يضحك فى وجوه أولاده ، فاذا ما اداروا له ظهورهم ركبه

الهم من اجل مستقبلهم . الآن يستطيع ان يضحك فى وجوههم ومن خلف ظهورهم .. الآن يستطيع ان ينام طيلة الوقت الذى يمضيه ممددا فى فراشه بعد ان كان يقضى ثلاثة أرباعه فى التفكير ..

***

وجاء أول الشهر .. وكان يوما مشهودا .. اختلطت فيه المشاعر وتضاربت .. الفرحة كانت اقوى من القلق .. وطال انتظار الاسرة جميعها لزكى رغم أنه حضر فى نفس موعده اليومى ، على المائدة تنقلت نظرات الأم اكثر من مرة بين وجه زكى وبين ذلك الجانب من صدره .. ناحية الجيب الداخلى .. لم يكن يبدو لها متورما بدرجة كافية تطمئنها . ترى هل انفق زكى الكثير من مرتبه .. ؟

بعد الفداء اجتمع مجلس الاسرة الذى كان مكونا فيما مضى من الأب والأم ثم انضم اليه زكى الذى اصبح منذ ذلك اليوم الخالد زكى افندى .

بدأ عباس أفندى الحديث :

— كيف تقترح انفاق مرتبك يا زكى .. ؟

— أنا لا اقترح .. بل انت تأمر يا أبى ...

— انت صاحب المرتب .. والمال مالك تتصرف فيه كما يحلو لك

— كيف تقول ذلك .. أنا كلى ملكك يا أبى .. فكيف بمرتبى ..؟

وترقرقت دموع التأثر فى عينى عباس افندى .. على عكس جميع امتحاناته فى المدارس نجح زكى فى امتحان الحياة الاول .. بدون ملحق .. أظهر انه ابن حلال اثمرت فيه التربية وما تطلبته من مجهود وسهر .. وعرق .. رغم ذلك ابى واقسم الا يفرض على زكى شيئا .. أخيرا تكلم زكى على استحياء :

— يكفينى ربع المرتب .. لمصروفى الشخصى .. وها هو الباقى يا أمى ...

صاح عباس أفندى باستنكار : كلا يا زكى .. غير معقول ان اقبل .. هذا كثير ..

وتدخلت الأم : بل النصف من حقك يا زكى .. هذا عدل .. الربع الاول لمصروف يدك والثانى تدخره لمستقبلك .. سيأتى يوم تفكر فيه فى الزواج .. وطبعا لابد من مبلغ يضاف الى ميزانية البيت .. للتوسيع على الاسرة ولمواجهة الزيادة فى النفقات أيضا..

الاولاد يكبرون كل يوم ومطالبهم تزداد .. مع ذلك يكفينى ربع مرتب زكى (وقبلت يدها ظهرا لبطن) نعمــة ... اما الربع الاخير فهو لدولت .. للمساعدة فى جهازها .. وكما مد الله فى عمرى حتى رأيت هــذا اليوم السعيد .. يوم أصبح زكى موظفــا قد الدنيـــــا .. ادعو الله أن يمد فيه وفى عمر عباس أفندى أيضا حتى نرى دولت فى ثوب الزفاف .. هيه ما رأيكما فى هذا التوزيع ؟ ..

بدا ارتياح الموافقة على وجه عباس افندى وقبل زكى يد والدته شاكرا ممتنا .. السعادة جعلت عباس أفندى يبدو كمن رجع فى السن عشرة أعوام الى الوراء ..

تحسنت صحته ايضا .. خفت كثيرا نوبات السعال التى كانت تلازمه .. امتلأ وجهه وزال الكثير من تجاعيده .. أصبح أقــوى بنية .. يتجلى هذا فى ضغطه على اليد عند المصافحة .. معنويات عباس أفندى هى الاخرى ارتفعت كثيرا .. أمسى مرحا لطيفا ينطلق لسانه بالنكتة الرائقة .. خاصة فى مجلس المأمور الذى كان يزداد سرورا بزيارته .. يحس كلما رآه واستمع الى ذكرياته عن أيام تلمذته .. أيام صباه وشبابه .. أحلى أيام العمر لدى الجميع .. كأنه لا يزال يعيش تلك الايام ..

اما فى المدرســة فقــد كان مرحه اكثر انطلاقا ورنين ضحكاته أعلى صــوتا .. حيث لم يــكن هناك ذلك الجو الرسمى بما يفرضه من قيود لا سيما فى الفصول مع تلاميذه ، عامة وتلميـــذه المفضــل محمد خاصة ، دائما يذكر له انه قد درس لوالده أولا ثم له .. ثم سيعلم ابنه من بعده ولن يرضى بأقل من ثلاثة أجيال من الاسرة تتلقى العلم على يديه .. فقط هو يطلب منه ان يسمى ابنه محمود جلال على اسم والده حتى يعرفه عندما يلتقى به فى أى مدرسة وأى بلد ولــكن محمد السعيد يرفض :

ــ كيف يــكون ذلك .. هل ستصبح سلسلة .. الا يــكفى ان اسمى أنا على اسم جدى ؟ .. سوف أطلق على ابنى أحد الاسماء الجديدة « المودرن » ..

وتعجب عباس افندى وتلاميذه المزحة فيعيــد طلبــه فى اليوم الثانى .. ثم يــكرر الحكاية بعد الحصة التالية وبعد كل حصة عربى لتصبح حكاية كل يوم :

ــ هيه .. هل ستطلق على ابنك اسم محمود جلال ؟

ــ كلا .. ابدا ..

ــ حسنا انتظر على .. سوف اريك نتيجة عملك ..
ويضحك التلاميذ ...

لم يكن عباس افنــدى فقط هو الذى تغير بعد حصول زكى على وظيفة ... كان لها فى الاسرة كلها كمثل أثر حجر كبير ألقى فى ماء ســاكن .. الاولاد بداوا يطلبون ما تهفو اليه نفوسهم فقد أصبح هناك احتمال لاجابة بعض هذه المطالب .. السيدة بهية زاد وزنها وقل شجارها وعصبيتها على أى شىء .. لم يعــد صراخهــا فى الأولاد يسمع من أول الشارع .. لم يسكت صوتها نهائيا ، أحيانا الآن .. تغنى ! .. أصبحت أكثر تفانيا فى خدمة الاسرة كلهــا عموما وزوجها عباس افندى ــ أستاذ المأمور الذى اكتسب فجأة اهميـــة كبيرة ــ خاصة ، زكى دخل الفترة الثالثة من حياته .. الفترة التى عثر فيها على نفسه وشخصيته واهميتــه .. بعد فترة دراســته وما صاحبها أو ما ملأها من تأنيب وتبكيت ومعايرة .. ثم فترة بطالته التى لم يصاحبها أى شىء .. لا حسن ولا سيىء .. هو لم يترك لاحد الفرصة كى يحس به .. كان يتسلل الى البيت تسللا كما لو انه عمل عملا شــائنا .. الآن أصبحت تصاحب عودته الى المنزل ضجة تبــدأ من المطبخ ولا تنتهى فى غرفة المــائدة ودولت بينهما تهرول .. بينما والدته تساعده فى خلع ملابسه .. تماما كما تفعل مع عباس افندى .. أخيرا دولت الرقيقة التى كانت تبــدو كوردة بدأت تذبل .. استعادت رونقها .. رغم انهم يسقونها .. أو بالاحرى يجهزونها بالقطــارة .. كل شهر تأخذ والدتها نصيــبها المعلوم من مرتب شقيقها دون زيادة أو نقصان وتشترى لها شيئا .. الاولوية للملاءات والمفــارش تطريزها يستغرق وقتا طويلا .. ثم الفساتين التى تأخذ خياطتها وقتــا أقل مؤجلة الاشياء التى تشترى جاهزة حتى آخر الشوط .. مع ذلك لا بأس .. صــعود الجبل لا يبــدو مستحيلا ولا بعيدا طالمـا أن قدميك عليه تخطوان .. وتمر الايام والشهور هادئة .. ويقترب العام من نهايته .. فتقام المبــاراة الأخيرة فى الــكرة بين المناطق التعليمية حتى يتفرغ التـــلاميذ عقب انتهـــاء المباريات للدراسة .. بعــد المباراة يخرج محمــد السعيــد من المدرســة ليجد عباس افندى جالسا فى الفنــاء قرب الباب على حقيبة كتبه بعــد أن قلبهـــا على جانبها .. يسأله بدهشة :

ــ ماذا بك ياعباس افنــدى .. لماذا تجلس هكذا ؟ ..

ـ أثناء انصرافى احسست بعض التعب والدوار .. مع انك انت يا اخى خارج تتقافز .. وكأننى انا الذى كنت املأ الملعب عدوا وانت الجالس فى المدرج متفرجا .. أو ربما فى زمانكم المقلوب هـذا اصبحت المشاهدة اكثر ارهاقا من اللعب .. اياك أن تظن انها مسألة سن .. اننى شباب اكثر منك .. ولو كنت نزلت الملعب بدلك اليوم لكنت لعبت خيرا منك ..

يضحكان .. ثم يستأنف عباس افندى بجدية :

ـ لكن والله كنت رائعـــا اليوم .. ذكرتنى بوالدك مساه الله بالخير .. عندما كان يلعب .

ـ بالمناسبة .. والدى أوصانى صباح اليوم أن اسألك .. لماذا قلت زياراتك له هذه الايام حتى مضت على آخرها فترة طويلة ..؟

ـ وانت نسيت أن تبلغنى السؤال كعادتك دائما .. مع ذلك بدون تبليغك ..
أنا كنت عنده اليوم بعد الظهر ...

ـ عجبا .. هل تقرأ الغيب ؟ ..

ـ الم تكن تعرف ذلك حتى الآن ؟ .. حسبنا اسـألنى عن أى شيء فى الماضى او فى الحاضر وأنا اخبرك عنه بالتفصيل ..

ـ ومن يعرف الماضى مثلك يا عباس افندى .. المهم المستقبل ..

ـ اذن سأحدثك عن المستقبل .. هذا اذا سألتنى عنه ..

ـ نعم بالله عليك .. اخبرنى .. ما الذى سيأتينى به المستقبل؟

ويطرق عباس افندى قليلا ثم يقول وهو يهز رأسه متصنعا الجد :

ـ كل خير ..

ـ وماذا يخبىء لك أنت ؟

ويبدو الغموض على وجه عباس افندى ويعمق صوته :

ـ كل خير .. ايضا ..

وترتفع الضحكات من جديد ..

لـكن فى صباح اليوم التالى يدخل محمد على والده فى المركز وهو يبكى ، ويدهش الوالد ويسأله :

ـ ماذا بك يا محمد .. هل اساء اليك احد ؟ ..

ويرد محمد من بين دموعه .. عباس افندى ...

وتزداد دهشة المأمور :

ـ عباس افندى هو الذى أساء أليك ؟.. لـكنه كان هنـا فى

مكتبى أمس وسألته عنك فقال انك متفوق فى دراستك كثيرا ..

— ليت الأمر كان كذلك يا أبى ولـكنه .. مات ..

ويصرخ المأمور : من .. مات ؟ ..

— عباس افندى ...

— كيف .. ؟ لا تقل ذلك يا محمد .. لا تقل ذلك .. حتى ظهر امس كان بصحة جيدة ..

— بل وحتى منذ ساعة كان فى المدرسة سليما معافى .. دخل عندنا الفصل فى حصة الصباح الاولى وألقى علينا درسه الاخير .. بعده عاودته الوعكة التى كانت قد ألمت به عصر أمس فاستأذن فى الانصراف الى منزله .. بعد اقل من ساعة بلغ المدرسة خبر وفاته ..

تمتم المأمور بذهول : ولـكن كيف .. ؟

— قال ابنه الصغير — الذى جاء بالنبأ — انه فور وصوله الى المنزل تمدد فى فراشه بمعاونة زوجته التى أراحته على الوسائد وغطته جيدا ثم ذهبت الى المطبخ لتعد له كوبا من الشاى .. عندما عادت اليه سرها ان تقلصات الالم جميعها قد زالت عن وجهه .. لـكنها عندما اقتربت منه الفته ساكنا .. كان قد مات .. فى هدوء ..

خبط المأمور كفا بكف :

— لا حول ولا قوة الا بالله .. انا لله وانا اليه راجعون ..

دق الجرس فى مكتب المأمور عدة مرات دخل على أثر كل جرس أحد الاشخاص ليخرج حاملا أمرا .. وكانت كل الاوامر تدور حول جنازة عباس افندى ..

قال المأمور :

— هذا الرجل استاذى .. وله على فضل كبير .. ولو اننى لن أوفيه حقه مهما فعلت الا اننى سأبذل كل ما بوسعى حتى نشيعه الى مقره الاخير بكل مظاهر الاجلال والاحترام التى احملها له فى نفسى ..

رد جميع من فى مكتب المأمور وكانوا عددا كبيرا من العمد والاعيان :

— واجب .. واجب .. سعادتك أبو الواجب ..

— ما رأيكم ؟ ستسير قوات البوليس فى الجنازة .. وكذلك الموسيقى .. كما سأسير أنا بنفسى ايضا .. ترى هل اغفلت شيئا ؟ اذا كان الامر كذلك نبهونى ..

وعبرت الاصوات عن استحسان اصحابها :

ـ ابدا .. ابدا .. هـذا شيء عظيم جـدا .. سيكون مشهدا مهيبا ..
وفـكر المأمور قليلا ثم قال :
ـ اعتقد ان الاسرة لا تملك مصاريف الدفن .. فأنا ادرى بحاله .. لابد أن نتبرع جميعا لهذا الفرض ..
وعاد الكل يرددون :
ـ واجب .. واجب .. سعادتك أبو الواجب ..
وبينما كانت كل يد تعبث فى جيب صاحبها استطرد المـأمور :
ـ تصوروا .. أستاذى وأستاذ أجيال من خيرة رجال البلد يموت قرب السبعين ولا تجد أسرته ثمن كفنه .
غلب التأثر على المـأمور فسالت دموعه .. وكان حتى تلك اللحظة قد استطاع منعها ، رأى الجميع هـذه الدموع .. ودموع المأمور غالية .. من أجلها ضاعف كل متبرع ما كان ينوى التبرع به أول الأمر .. أصبحت شبه منافسة .. من يريد أن يحصل على قدر أكبر من رضاء البك المأمور فيلدفع مبلغا أكبر من زميله .. حتى ان الحكاية بلغت أحد الذين رشحوا أنفسهم فى الانتخابات ـ وكان يمر فى بعض القرى ـ فأسرع بقطع حملته والعودة الى المركز ليتبرع بأكثر مما تبرع به منافسه ، كما علم كبار رجال البلدة والموظفين ان المـأمور سيسير فى الجنازة فقرروا السـير فيها ايضا ليجاملوه ويقدموا له واجب العزاء .. فى أستاذه الغالى ..

قبل أن تتحرك الجنازة موصلة عباس أفندى الى مقره الاخير .. دخل المـأمور ومن معه منزل الفقيد المتواضع ليعزوا أرملته وابنه ، وليقدم اليهما التبرعات التى كانت تقترب من المائة والخمسين جنيها
ـ مساهمة بسيطة فى تكاليف الجنازة ...
لـكن صـاحب المدرسـة ابى ان يـكون أقل كرما من الـكل .. فأعلن أن جميع مصاريف جنازة أحد مدرسى المدرسة ستدفعهــا المدرسـة .. شكره المـأمور على اريحيته ثم التفت الى الارملة المذهولة :
ـ عموما أنا كنت قد سمعت من المرحوم أن لديـكم ابنة مخطوبة .. وانه كان متعسرا بعض الشيء فى جهازها .. قد يساعد هـذا المبلغ فى الجهاز ..
تناولت السيدة بهية النقود بيد ترتعش وهى لا تدرى بماذا ترد وعاود المـأمور يردف :

ــ أنتم طبعا ستظلون هنا لأجل عمــل زكى ، واحب أن تعتبرونى بدل المرحوم تماما ولا تتــأخروا ابدا عن محادثتى فى اى شىء .. صغيرا أم كبيرا .. انا دائما مستعد لأى خدمة .. وأى طلب ..

خرج النعش محمولا على اكتــاف زملائه فعادت الدموع تبلــل وجنتى المــأمور .. اخذ يحدث من حوله :

ــ هذه الدنيــا فى منتهى الغرابة .. منذ ثلاثين سنة كانت صلتى قد انتهت بعباس افندى .. رحمه الله .. ولو كان توفى فى اى وقت من هــذه الاعوام الطويلة لمــا كنت شعرت به قط .. لــكن القــدر يجمعنى به مرة اخرى فى بلدة واحدة .. ويعود الود بيننا .. واسعد بمقابلاته التى كانت تذكرنى بأيام تلمذتى .. حتى لقد كاد يصبــح جزءا من حيــاتى .. فى هذا الوقت بالذات يعود القدر ويفجعنى فيه . لكأنما هو يقصد خصيصا ايلامى .. والا .. فلماذا فى هذه الفترة بالذات يموت عباس افندى ؟ .. لمــاذا لم يكن ذلك قبــل شهور .. او بعد شهور مثلا .. ربما أكون نقلت من هنا ..

ويرد احد زملائه : وكان أعز صديق له بحيث لم يكن احدهمــا يخفى عن الآخر شيئا :

ــ ربنا له فى ذلك حكمة يا سعادة البك .. أعنى ان مقابلته مع سعادتك كانت فضلا من الله لأجل أن تــكرمه فى آخرته ولأجل أن تفعل ما فعلت فى سبيل اسرته وأولاده السبعة .. فى رأيى .. كان وقت وفاته مناسبا .. تماما .. بعد أن حققت له احلام العمر كله فى هذا اللقاء الذى دبرته الصدفة ، ولو انه قــدمات من شهور كما كنت تتمنى ماذا تتصور حال أولاده أن تكون ؟ ..

ويبدو الارتياح لأول مرة على وجه المــأمور ويتمتم :

وفكر الصبى قليلا .. ثم تهللت أسارير وجهه وهو يقول :

بدات الجنازة سيرها فى مشهد ضخم رهيب لم تر البلدة مثيــلا له من قبل وبين طوابير الكشافة والاشبال كان يسير محمد السعيد الصغير وبجواره صديق له اراد مداعبته فقال يسأله :

ــ والدك لأجل أنه كان تلميذه رتب له جنازة أعظم من جنــازة وزير .. وانت .. وكنت بدورك تلميذا له .. ماذا ستفعل من أجله؟

وفــكر الصبى قليلا .. ثم تهللت أسارير وجهه وهو يقول :

ــ سأنفذ الطلب الذى كان يطلبه منى دائما .. سأطلق على ابنى اسم محمود جلال ...

هى الدنيا



هى الدنيا

نظر اليها بسخط شـديد .. بالامس لم يتكلم رغم ان طعم لحم الديك الرومى الكريه فى فمه .. أكد انه لم يكن سـمنا ذلك الذى طهى به ، ماذا استخدمت اذن ؟ حنظل .. زيت ديزل ؟ !

خشى أن تسخر منه .. لـكنه اليوم لم يستطع السكوت .. سألها بغيظ :

ــ هل نسيت وضع السكر ؟

ــ كيف ؟

ــ الشاى مر !

ــ وضعت قطعتين .. كالعادة .. لـكنك انت .. لست ادرى والله ماذا حدث لك !

خبط الـكوب أمامها بسخط وقام ، هو لم يتغير لـكن الدنيـا هى التى تغيرت .. لونها فى عينيه .. طعمها فى فمه .. كل شىء أصبح مرا ، جسـد زوجته الممتلىء فى فستانهـا الضيق أصبح يثير اشمئزازه .. مرح أولاده وصخبهم ينزل على أم رأسـه كالمطارق ، يترك المنزل هاربا الى المقهى .. لـكنه لا يجد أصدقاءه .. احتلت كراسيهم جثث عفنة ، لم يعد يحس بأية متعة أو سعادة .. كره كل شىء .. كره الدنيـا بأسرها ولـكن .. الى اين يهرب .. اين المفر ؟! .. بيوت الله ؟ .. لكنه فى الزاوية الصغيرة لم يتمكن من الصـلاة ، لم يستطع أن يركز ذهنه .. ضحك فجأة من أراجوز لم يره لـكنه أحس به .. يقوم ويقعد .. لماذا لم تقدح عينا الشيخ شررا وهو ينظر اليه ؟ فقط استفسار صامت ، رد عليه بسرعة :

ــ حتى العبـادة مللتها .. لم أعد ارى فيها أكثر من طقوس لا معنى لها .. !

بدت على الشيخ بوادر الفهم .. هز رأسه وهو يغمغم :

ــ تسير ثقيلا .. !

ودهش .. قوامه نحيف .. فطن الشيخ لدهشته فعاد يهز راسه :

ــ ليس ثقل الشحم واللحم أعنى ولـكن ثقل الاوراق .. أوراق كثيرة تحملها على عاتقك وتربطها الى ســاقيك فلا تستطيع الســير الا زحفا .. تخفف منها تحس الانتعاش ..

ضحك فى قرارة نفســـه باستهزاء .. يريدنى أن أترك أموالى لأصبح مثله .. ؟

لـكن سخطه كان فى ازدياد .. أحس بالاثقال تغل قدميه حتى عن الزحف ! بدأ يموت ويتعفن وقلبــه ما زال يدق .. فتح كل دواليبه وأخرج الاوراق .. أوراقا كثيرة .. أوراقا ملونة مرسومة وأخرى مكتوبة بأيدى محامين ومأذونين وموظفى مكاتب الصـــحة والشهر العقارى ، انها لحقيبة عجيبة حقا أن اتسعت لكل هذا . وهو بسبيل الخروج أسرعت زوجتــه وراءه تناديه .. ياالله .. هل علمت ؟ ولـكن كيف ؟ .. على انه لن يرجع عما انتوى مهما حاولت .. عادت تناديه .. فاستدار اليها .. زعقت :

ــ اشتريت سمكا هــذا الصباح .. حاول أن تعود مبكرا اليوم قبل أن يبرد حتى لا يثير تأففك !

لم تنتظر رده .. عادت وهى تردف لنفسها :

ــ كأغلب ما أطهوه هذه الايام .. !

اتجه صوب الزاوية على الشاطىء والحقيبة فى يده .. ســأل الشيخ :

ــ هل ارمى بها فى النهر ؟

لـكن الاخير لم يبــد عليه انه سمع أو فهم واستمر فى مناجاته ، فتح يده ولـكنه .. يا للعجب ، لم تسقط الحقيبة .. جلدها ساح .. وجلد يده أيضا .. والتحم الاثنان .. حاول أن يخلص احداهما من الأخرى ولكن عبثا ، أصبحت يده والحقيبة شيئا واحــدا .. ولم يكن هناك حل غيره .. القى بنفسه فى الماء مع الحقيبة .. !

لم يسمع لارتطامه بالمــاء صوتا شــديدا .. أذابت الميــاه اللحام فتخلصت يده من الحقيبة ، وبدأ يطفو ويطفو .. حتى وصل الى السطح ، خرج من المــاء .. لدهشته .. لم يــكن بملابسه أى أثر للبلل .. ولا قطرة ماء واحدة .. !

ما هذا المكان ؟ جمال ما راى ولا سمع مثيلا له من قبل .. الا الجنة .. هل وصل الى الجنة ؟ كيف وما زال حيا يتنفس ؟ حدائق

وزهور وطيور وجداول بألوان ما أبدعها ، ظل يسير خفيفا سعيدا .. يريد أن يغني .. فجأة .. فقدت الجداول والسماء زرقتهـــــا والحشائش خضرتها والورود جميعا الوانها .. تلون كل شيء بلون رمادي باهت أو لم يعد له لون على الاطلاق .. !

قرصه الجوع قرصة عنيفة .. غريب أن تخلو الجنة من أى شيء يؤكل . على بعد بدا له محل يخطف لألاء الماس فى نوافذه الأبصار .. اقترب منه .. كيف رآه ماسا ..؟ محل فول .. وواجهـاته من زجاج .. تقدم اليه مندفعا ويده فى جيبه .. ثم توقف مرة واحدة .. لعنة الله على غبائه .. ألم يكن فى امكانه أن يأخذ ولو جنيها من الالوف التى كانت فى الحقيبة ؟ .. لـكن البائع خاطبه بلطف :

ــ جوعان ؟ .. فلماذا لا تأكل ؟

ــ ليس معى نقود ..

ــ نقود ؟ .. ما معناها ؟

ــ نقدية .. فلوس .. مصارى .. برادس .. مونى .. !

لكن الرجل ظل على استنكاره ، فسأله نافد الصبر :

ــ أريد طبقا من الفول ورغيفا .. ماذا ادفع لك ؟

ــ تكبر له خمسا .. !

هل يسخر منه الرجل ؟ .. فليجرب .. وكان .. لم يأبه لشعور الامتـلاء وطلب طبقا ثانيا .. ودفع كما دفع أولا .. هـذا الرجل مجنون ولا شك ولـكن .. ما شـأنه هو .. هل من واجبـه رد المجانين الى صوابهم ؟

لم يقل ترحاب الرجل له فى الغداء عنه فى الافطار .. ولا فى العشاء ايضا .. بالعكس .. كان اكثر سرورا .. كأى بائع تروج تجارته .. ناوله الطبق مزهوا :

ــ يبدو انك تحب الفول جدا .. !

يا لسذاجته .. !

ــ أحب كل شيء ولـكنى كما قلت لك .. ليس معى نقود ..

ــ عدت ثانية للهلوسة ؟!

ــ تعنى أنه .. بالله .. هل تريد أن تقول ان الجميع هنا .. يبيعون بنفس عملتك ؟

انتقم من الكباب والفاكهة لمعـدته التى أثقلتها أطباق الفول .. ترك النوم فى الحدائق عندما علم أن أصحاب المنازل أيضا يقبضون ايجارها .. تـكبيرا لله .. !

عندما تمتلىء الحوصلة ويتم تجهيز العش يبدأ التفكير فى الوليف، قال له بائع الفول الذى أصبح أعز أصدقائه :
ـ اذهب الى الميدان الكبير يوم السوق تجد جميع فتيات المدينة ، من تعجبك منهن سلم عليها .. فاذا ردت السلام كان معناه انها موافقة .. بعدها تطلبها من ابيها وتدفع مهرها .. الله أكبر مائة مرة .. !

لم يكذب خبرا واختار أجمل فتيات البلدة .. تزوجها ثم جاءت الذرية صبيين وبنية ، كان يحس انه أسعد مخلوق على وجه الارض .. فقط كانت هناك أشياء تثير دهشته وتساؤله .. لكن احدا لم يرد عليه قط .. على العكس كانت أسئلته تثير فى سامعيها دهشة أضخم من دهشته .. كيف يتصور أن تعاملهم بالالفاظ يجعل الناس لا يقنعون ؟ هل هو يرى أن الورق أغلى من الكلمات ؟ وهل يعقل أن يأخذ الانسان اكثر من حاجته ؟ ثم كيف يسأل هذا السؤال السخيف « لماذا يعمل الناس اذن ؟» وهل هذا سؤال ؟ هل يمكن أن يظل انسان بلا عمل ؟ ..

ظن يوما انه فهم سبب دهشتهم .. مجبرون قطعا ولكن .. ترى ما هو القانون الرهيب أو السلطة القوية التى تضطرهم برغم سهولة الحياة الفاخرة الى العمل بكل هذه الهمة التى لا تعرف الكلل ؟ ! .. لاشك سيجىء دوره ليحاسبوه على بطالته ..

لكنه ظل طويلا بعيدا عن اعين البوليس .. او هكذا ظن .. حتى اكتشف الا ظل هناك للقانون ولا لممثليه على الاطلاق .. !

رغم عدم حصوله على ردود ما .. لم يستطع أن يبتلع تساؤله .. « جميع المهن موجودة عداهم .. اين رجال البوليس والنيابة والقضاء ؟ .. وكيف رغم اختفائهم يسيطر الهدوء على المدينة فلا يرتفع فيها صوت قط ؟ كيف يبدو الامن مستتبا الى هذه الدرجة ؟ هذه المرة جاءه الرد « كل فرد متروك لضميره يحاسبه على أعماله بدون اى تدخل من أحد ! »

فعلا .. رغم كرم الجميع وبذلهم وبشاشتهم لم يكن احد منهم ليرحب بأى تدخل فى شئونه ، وهو بالتالى لا يتدخل فى شئون غيره ، وكان لهذا الطبع حسناته الكبرى .. بالنسبة اليه على الاقل .. لم يجبره أحد على القيام بأى عمل .. بل حتى لم يسأله شخص .. لماذا لا يعمل ، يوما قال لبائع الفول بعد أن التهم طبقين :

— صحتى ضعيفة جدا .. لا تساعدنى على العمل .. !

فردعليه دون ان تبدو فيعينيه اية نظرة من تلك التيكان يتوقعها:
— هذا شأنك وحدك .. !

حاول أن يأخذ عنهم هذه العـادة لكنه لم يفلح تماما .. يوما كان فى نزهة بالريف فرأى ما جعله يحدث نفسه « لك الله يا هـذا البلد العجيب .. كل ما يقع فوق أرضك مدهش غريب .. هـذا الرجل يرى جاريه .. الذى الى اليمين قد فتح قنـاة بين أرضه والترعة لتروى زراعتـه وهو مستريح .. والذى الى الشمال يدير شادوفا .. ويستعمل هو هـذه الطريقة البـدائية ؟ بل العقيمة .. فليت الدلو كان سليما .. المـاء كله يتسرب من الثقب الصـغير بقاعه قبل أن يصل أرضـه ، ومع ذلك يعيد الـكرة مرة ثانية وثالثة وعاشرة فى صبر وجلد عجيبين دون أن تنال زراعتـــــه الا النزر اليسير » تقدم منه صاحبنا ناصحا :

— حتى الصباح ستظل تعمل دون أن تسقى زرعك .. لمـاذا لا تقلد زميلك الاول .. أو حتى الثانى ؟ العرق يتصبب منه لـكن أرضـه تروى على أى حال .

لم يرد عليه الرجل .. فتذكر الطبع الغريب .. مضى وتركه يسير ويسير والدلو فى يده .. يذرف الدموع أسىعلىذلك الجهد الضائع.

فى المنزل وجد زوجته غاضبة :

— لـماذا تحشر نفسك فى شىء لا يخصك .. ولا تفهمه ؟.. هذا الاعتراض نعتبره جريمة .. !

أدهشه علم زوجته بما حدث ، على انه وعدها الا يكرر ذلك ، لـكنه نسى الوعد .. بل نسى نفسه فى نزهة أخرى .. ذاك الفلاح لاشك مجنون .. هل يمكن أن يفعل اى عاقل ذلك ؟.. ما أعظم خسارته .. لو انه حتى حصـد محصوله وهو بعد « فريك » أخضر كالفلاح الثانى لاستطاع بيعه .. ولو أن مكسبه لن يـكون كالفلاح الاول الذى يجنى قمحه بعد تمام نضجه .. أقبل عليه بلا ترو :

— ما الذى تنتظر أن تكسبه من هذا العشب .. ضيعت هبـــاء مجهود الشهور المـاضية كله .. كان فى وسعك أن تنتظر بضـعة أسابيع أخرى .

— هذه المرة أيضا لم يرد عليه الفلاح المسئول وظل يعمل منجله بلا رحمة ولا أسف فى العشب الاخضر .. أسرع الى منزله وهو يدعو

الله الا تكون زوجته قد علمت بما كان .. لكن منظر غضبها وبكائها أكدا له أنها علمت .. أفهمته ان هذه آخر مرة .. وانه اذا كررها مرة ثالثة فهو لا شك مطرود من البلد .. واستطردت :

ـ كل شيء مقدر ومرسوم يسير كالساعة أو كتعاقب الشمس والقمر .. هل تستطيع بنصيحتك أن تؤخر هذه أو ذاك ولو لثوان؟

ظل فى المنزل أياما لا يخرج خوفا من الغلط .. حتى مل .. عاد للخروج وقد قرر أن يكبح جماح فضوله . كان معذورا فى المرة الثالثة .. أى انسان لا يمكن أن يرى هذا ويسكت .. زوجته نفسها لو رأته لتقدمت ناصحة .. لقد استطاع أن يعود نفسه على كثير من التصرفات الشاذة .. لكن شذوذ اليوم فاق المعقول ، كيف يتصور كل هؤلاء الناس ان الصخرة ستتحرك بهذه الطريقة وكل منهم يشد على هواه ؟.. أكثر من عشرين رجلا .. يجذبونها بعشرين حبلا .. كل فى اتجاه .. كل يضيع مجهودات زملائه .. فما تكاد تتحرك مع أحدهم سنتيمترات الى الشرق حتى يجذبها آخر الى الجنوب .. ثم يعيدها ثالث الى مكانها الاول بجذبه اياها الى الغرب ، لم يدهشه أبدا انهم خلال ساعة كاملة لم يستطيعوا تحريكها قيد أنملة .. الذى يدهش أنهم يأملون غير ذلك .. أليس فيهم واحد فقط يدرك عقم المحاولة ؟ أخيرا صاح فيهم :

ـ بهذا الشكل لن تتزحزح الصخرة من مكانها أبدا .. لماذا لا تتحدون جميعا وتجذبونها ناحية واحدة ؟ .. لن تستعصى عليكم حينذاك فتذهبون بها الى أى مكان تريدون ..

لو كانت الصخرة العتيدة سمعت .. كانوا هم سمعوا .. أو ردت .. كانوا هم ردوا .. ظلوا مستمرين شدا وجذبا .. بعد فوات الوقت أدرك الهوة التى تردى فيها .. أسرع الى منزله عدوا لكن زوجته أبت أن تفتح له :

ـ ولم يعد لك منزل ولا زوجة ولا أولاد .. بل لم يعد لك حياة هنا .. !

ماذا ..؟ أهى مؤامرة اشترك فيها ضده جميع البائعين فى المدينة؟ يبيعون لكل الناس فلماذا يرفضون طلبه هو ؟ بل أنهم حتى لا يرفضون .. لا يردون عليه أو يعيرونه أى التفات كما لو كان شبحا لا يرونه أو حشرة لا يحسون بها .. أو ربما أصبح بين دقيقة وأخرى رجلا خفيا ..! هل هذا معقول ؟ يكاد يهلك جوعا والمدينة ملأى

بما لذ وطاب .. بالمجان تقريبا .. وتذكر صديقه الاول بائع الفول ولـكن الخبيث .. يتنكر هو الآخر للصداقة !

حث قدميـه ولـكن حتى البائعين فى أطراف المدينـة وصلتهم أخبار المقاطعة .. لم يأخذ منهم سـوى .. الاعراض التام .. !

عجبا .. هل يحلم ؟ فرك عينيه لـكن المنظر ظل كما هو .. هده الشجرة الباسقة فى الزاوية على حافة الترعة تشبه تماما تلك التى ألقى بنفسه من تحتها يوما ما .. وخطر له خاطر لا يدرى أكان رأسـه مصـدره أم امعاؤه التى تتلوى .. فارغة .. لمـاذا لا يكرر ما حدث له من قبـل .. ربما حل الاشكال على أى وجه .. فعلها .. ترى من الذى انتشله ؟ لا أحـد بجواره فى الزاوية القديمة سوى الشيخ العجوز .. انه يبـدو اضعف من أن يفعل ذلك .. ولـكن هـذه الحقيبة فى يده .. «انها حقيبتى .. حقيبتى التى كانت تحوى أموالى وأوراقى والتى ابتلعها اليم من سنوات طويلة.. هل سيعترف بسهولة انها تخصنى أو يدعى انها ملـكه الشخصى ؟ باستطاعتى رغم الزمن الطويل أن أذكر له بعض ما بها كدليل » .
لـكن الشيخ يقدمها اليه .. من تلقاء نفسه .

ــ حاجاتك .. ما كان أغناك أن تسأل كل تلك الاسـئلة .. ما زلت متطبعا بطبائع الدنيا ، متعودا عاداتها ، وفى نفسك أطماعها وشهواتها .. !
أى شيطان اخبره هو الآخر بما كان ؟ ! غمغم :
ــ سألت برغمى .. تصرفاتهم كانت تدعو للجنون .. ! مع ذلك نصائحى كانت فى صالحهم ..
ــ بل لم تـكن لتغير من الامر شيئا . فالارزاق فى يد الله وحده سبحانه وتعالى .. هو الرزاق الـكريم يرزق من يشاء بغير حساب ويمنع عمن يشاء ، كذلك الاعمار محدودة بمواقيتها ولـكل أجـل كتاب ، ومن جاء أجله مهما كانت سنه لا يتأخر دقيقة ولا يتقدم .

ضرب بيده على جبهته :
ــ يا الهى .. نعم .. نعم .. فهمت .. ولكن .. الصخرة الكبيرة .. ما هى ؟

ــ هى الدنيا .. ! الـكل يطمع فيها لنفسه .. مثلك .. متعلق بها وطباعها تجرى فى دمك .. لم تـكن زاهـدا فيهـا أبدا ، وانما كانت أزمة عابرة .. ونصيحتى كانت أن تتخفف من بعض لا من كل

ما تملك .. والناس أولى من البحر .. !

رغم السنين لم يتغير فى الشوارع شيء .. ومنزله هو هو .. ما كادت زوجتــه تراه حتى شهقت بدهشة .. قطعا كانت قــد فقدت الامل فى عودته .. أردفت :

ــ ألأننى قلت لك لا تتأخر .. تعود بعد ساعة واحدة ؟ كيف تظن بالله عليك اننى فى هــذه الفترة القصيرة استطعت « قلى » السمك ؟ !

عقد إيجار على يد مأذون



عقد ايجار على يد مأذون

بدا لها الامر غاية فى العجب .. كانت فى نظرها زيجة لقطة فاذا بالكل يعارضونها .. اول الامر ظنت الجيران يحسدونها .. لكن ابنها عبده ايضا .. رفضها بشدة حتى خطر لها ان المرض قد اثر على سلامة تفكيره ، واخيرا ها هى الفت هانم تستنكر الموضوع بدورها .. ما كادت تسمع به حتى صاحت بسخط :

– لكنه قطعا لا يقصد زواجها ..

– بل يبغى الزواج على سنة الله ورسوله .. وبعقد رسمى .. على يد مأذون .

– وكم من عقود ابرمت على أيدى مأذونين لكنها كانت الى عقد البيع أقرب منها الى عقد الزواج .. أما هذا العقد فلن يصل حتى لمرتبة البيع .. انه عقد ايجار .. هذا الرجل يريد أن يستأجر امرأة لتقضى له حاجاته الشخصية وحاجات منزله لمدة .. كم بقى لهذا الشاب حتى يتخرج .. ؟

– سنة وبضعة أشهر ..

– اذن فهو سيستأجر ابنتك للأغراض سالفة الذكر لمدة هذه السنة والبضعة أشهر ..

بدت عليها الحيرة :

– لكن أم حليم حين احضرته الينا امس ليرى رجاء .. قالت زواج

– لو كان يبغى الزواج بمعناه الذى أفهمه ويفهمه كل الناس .. والذى شرعه الله وهو بناء أسرة لما فكر فى .. اسمعى .. لا مصلحة لى فى احراجك ولكنى أنصحك لوجه الله وأرجو الا تغضبى .. لماذا يتزوج شغالة .. ؟

– وهل الشغالة ليست ابنة ناس ؟

– ابنة ناس وكل شىء .. لكن الله نفسه قال « ورفعنا بعضكم فوق بعض درجات » وكل شخص يتزوج من طبقته او ما يقاربها الحب احيانا يفعل بعض العجائب لكنه فى قصتك حسب ما

قصصت انت نفسك .. لم يكن له أى دور ، وهـذا الدكتور القادم من القطر الشقيق الذى يملك وهو بعد لم يتخرج سيارة فاخرة ويقطن وحده شقة أنيقة يقوم على خدمتها طاه نوبى .. هل كانت ترفضه أى أسرة كبيرة زوجا لابنتها .. لو انه كان يقصد الزواج فعلا ؟

ــ اذن ماذا يقصد ؟

ــ لقد قلت لك .. جائز جدا أن يكون مرتبطا فى بلده فهو لا يستطيع أن يعود وفى يده زوجة وقبل ذلك لا يستطيع عدم العودة بعد التخرج .. ربما كان متدينا لا يريد السقوط فى الاثم .. أو ربما كان يفعل ثم أشفق على وقته وصحته وماله ، ودليل كلامى انه لجأ لأم حليم ولم يعرفها أحد خاطبة قط وكل أهل الحى يعرفونها مخدمة وهو يقصد هذا تماما .. يريد فتاة غلبانة من أسرة منكسرة لا تعرف شيئا اسمه الحقوق والالتزامات .. وحتى اذا سمعت عنها لن تفتح فمها للمطالبة بها .. سيكون فى امكانه اسكاتها بحفنة من النقود .

ــ حكيت الك كثيرا عن حياتى .. فيها أكثر من مأساة .

ــ اذن لا تضيفى اليها بذلك الزواج حلقة جديدة .

ــ ظننت اننى به أسدل على تلك المآسى الستار .

ــ ربما كان ذلك بالنسبة لك انت ولكن على حساب سعادة ابنتك .. لماذا تحرمينها من زوج مناسب يكون زوج العمر ...

ــ وهل يستطيع أحد أن يضمن ذلك .. تزوجت أنا مرتين .. احدهما أختطفه الموت .. والثانى .. الضرة .

ــ على الاقل كان هناك الامل .. يزفك فى المرتين .. اما اليوم فحتى الامل تدخل ابنتك على عريسها وجهازها خال منه ، لقد كنت أنانية فضحيت بسعادة ولديك وعزتهما .. كل فى منزل أبيه من اجل ارضاء عواطفك فلا تكررى خطأك فهو هذه المرة جسيم .

أنانية .. ؟ هل حقا قالت أنانية .. ؟ هل هذا معقول ؟ كانت تظن عملها التضحية بعينها ، وأى تضحية .. كانت تستطيع أن تعيش سعيدة فى كنف زوج ثالث .. أو على الاقل والدها بعد أن تسلم كل طفل الى أهله لكنها رفضت فهل أفادتهما أو ضرتهما ؟ بدل الفطير المشلتت فى منزل والد رجاء تأكل مع أمها الخبز «الحاف» ولكن قال انه حاف وكل حبها وحنانها .. الا يكفى أداما قال

لها أبوها نشيرا « كيف تخشين عليها فى منزل والدها .. الوحش نفسه .. لا يأكل أولاده » ومن قال انى أخشاه هو .. بل هى .. صاحبة التأثير الذى جعله يتزوجها على زوجته ثم بعد ذلك يطلق الاولى ويشرد طفلتـه لتنفرد هى بالحب كله والخير كله .. لم يعد المنزل منزل الأب وكذلك المنزل الآخر .. بعد موت الاب استولى شقيقه عليه كما استولى على الارض والبهـائم وكل شىء فأى كرامة لعبده فى العيش مع ذلك العم الجاحد .. وماذا عسـاه يجد من الطعام بعد أن يشبع أولاد عمه السبعة سوى الفضلات .. ولـكن حقا .. أين كانت مصلحتهما .. دائما كانت تظن الجواب « معها » لكنها اليوم تحس كما لو كانت الارض تزلزل من تحت قدميهـا .. وهى .. كان الافضل لها طبعا مع أولادها .. ولو فارقتهما لتمزقت نفسها حسرة وقلقا .. الدنيا كلها لا تساوى نومها وسط ولديها.. اذا تمددت على جنبها الايمن سمعت دقات قلب عبده ، واذا انقلبت الى اليسار شمت أنفاس رجاء ، ماذا دفعت فى مقابل هـــذه السعادة .. ؟ كرامتها فى كنف زوج أو اب .. ثم ماذا أيضا ؟ عزة ولديها فى منزل والديهما .. الثمن الاخير لم يـكن من حقهـا أن تتصرف فيه ، وحاولت أن تخفف عن نفسها « عبـده وافقنى على ذلك ... لم يـكن صغيرا » عندما صرح والدها بأن كده الضعيف ضعف صحته .. لا يكفى ثلاثة ليس مسئولا عنهم ، وافقهـا على الحضور الى القاهرة .. كانوا يسمعون أن أرضها مرصـــوفة بالذهب .. سيجد ألف عمل ، ولم يجد سوى عمـــل واحد .. الخدمة فى المنازل .. الحق لم يلمها أو يـكل قط .. الذى كل كان صدره . والحق أن البك الذى عمل عنده كان كريما .. بذل كل ما فى وسعه حتى أوجد له سريرا بالمصحة .. ترى من ابن الحلال الذى نقل لوالد رجاء أنهـا عملت مكان شقيقها ؟ كان يوما أغبر مثل وجهه.. صمم على أخذها فابنته لن تكون خادمة أبدا..بل ستكون اذا أخذتها خادمة لزوجتك وأبنائها والا فلماذا كل هذا التصميم ؟.. بل هنا أفضل يعاملونها أفضـــل معـاملة .. ان لم يـكن لطيب عنصرهم فخوفا من أن تتركهم الى منزل آخر أما زوجتك فأين يـكون منهـا المفر .. ؟ ولو كان قلبك عليهـا حقا لأرسلت اليها ما تعيش به .. ورد ببرود « طلبت منى أمام العمـدة أن أتخلى عن حضـانة ابنتى وانت بدورك لا تطلبين مليما لنفقتها واتفقنا على ذلك » ..

« أجل اتفقنـا ولـكن .. هل تنهى الاتفاقيـــات صلة الرحم

وتحيل الدم الى ماء ؟.. لم يرض بالسفر وحده حتى اقسمت على المصحف » .

اعادت ملاحظة الفت هانم ذكريات السنين الغابرة ، وها هى الوجوه القديمة متناثرة امامها على البلاط .. ها هى ذى تضحك ضحكة طويلة مقيتة .. « زينة » هذه المراة كانت السبب فى كل مصيبة حلت بها .. تكرهها اضعاف ما تكره الموت الذى اغتال الزوج الاول آه لو استطاعت أن تمحو هذا الوجه من الدنيا ، فجأة ظهر أمامها وجه حضرى .. تكلمت صاحبته :

ـ ما كل هذه الهمة يا أم عبده ؟.. تدعكين البلاط بقوة لم أرها منك من قبل .. يكفى ذلك .. لقد أصبح لامعا كالمرايا .

بلاط .. هل كانت تدعك البلاط ؟ عن أى بلاط تتحدث هذه السيدة ؟ أجل .. كانت تمسح البلاط ورجلها المصابة بالروماتيزم غارقة فى الماء .. وبعدها يقال عنها أنانية .. لم يكن أمامها سوى ذلك بعد ان باعت المنزل الذى ورثته عن ابيها وأغلب مصاغها ايضا .. لم يتبق لها سوى كردان رفضت أن تبيعه .. وعندما تموت .. هل يستجدون « خرجتها » قرشا من كل انسان ؟ كان يعينها على التحمل شعاع من الامل وان كان بعيدا .. بعيدا يبعد بمقدار عامين كاملين .. تعدهما باليوم فخلالهما عليها أن تؤجل جميع مطالبها .. عليها أن تؤجل حتى شعورها بآلام الروماتيزم الحادة .. عليها أن تشقى فى بيوت الخدمة كل يوم من أيامهما .. من طلوع الشمس حتى غروبها .. نفس الفترة المنتظر أن يقضيها عبده فى المصحة اذ قالوا لها « سيستغرق علاجه سنوات لو انه اعتمد فقط على اكل ودواء المستشفى .. الحكومة تصرف على مئات الالوف فلا تستطيع الا أن يكون ذلك فى اضيق الحدود والمفروض أن يتغذى المصدور جيدا » عليها هى اذن أن تكمل .. لابد أن تحضر اليه كل يومين كمية من اللحم أو الكبد ولكن .. كيف السبيل ؟.. بعد عامين يستطيع أن يأكل اللحم والكبد والفراخ والارانب .. سيبلغ سن الرشد وعندها تنتهى بدون أى جدال وصاية عمه برعى الخسيس ، ومهما كان فى جعبته من حيل ــ حتى ولو عمل حاويا ــ فانه لن يستطيع .. لا هو ولا أى قوة فوق الارض أن تمنع عبده من العودة الى داره وأرضه والتمرغ فى خيرها الوفير .. نذرت الى الله أن تقبل عتبتها .. ستعود معه معززة مكرمة ، واخته

أيضا .. ستمرح ما وسعها المرح فى الدار الواسعة حتى تغادرها الى منزل العدل .

كانت دائما تدعو الله أن يمد فى عمرها حتى ترى ذلك اليوم فالواحة جد بعيدة والطريق جد طويل .. لكنها ما فتئت تسير حتى كلت .. أو كادت ساقاها فاذا جاءها اليوم من يعرض عليها أن يوصلها هدفها ببساط سحرى يختصر السنوات الى أيام عدا الراحة وتوفير الجهد فهل ترفض ؟ أنها اذن تكون مجنونة .. وأى جهد فى كل يوم يبدو من أوله وكأنه لن ينتهى وأن كان ينتهى آخر الامر بمعجزة من عند الله .. حوض المطبخ كالارض الخصبة كلما جمعت ما به أنبت من جديد .. وبلاط لابد أن يمسح كل يوم ولو امتلأ أمامها فجأة بالوجوه المألوفة وتراجعت يدها بالفرشاة .. لا يمكن أن تمحو هذا الوجه .. وجه عبده الحبيب ليس كما رأته أول أمس جلدا على عظم ولكنه مورد ممتلىء مثلما كان عندما حضر معها من البلد وأمامه طبق من اللحم .. وهى أيضا بجواره وأمامها هى الاخرى طبق من اللحم ثم شخص آخر أمامه أكوام .. ترى من يكون ؟ .. انه العريس اذن فأين العروس .. لا .. من الذى ارتكب هذا الخطأ الشنيع .. رجاء ليس مكانها مقطعة فى الاطباق بل الى جواره .. على كرسى مفروش بالحرير الناعم وحولها الورود ورقبتها ويداها مزينة بالذهب واللآلىء .. مزينة .. مزينة .

ومرت بها الهانم تنقل من المطبخ الى حجرة المائدة ريش الضأن فى صحن كبير مفروش بالخس الناعم وحولها فصوص الطماطم وحبات الباذلاء وورود من البطاطس البوريه وكل عظمة منها مزينة بورقة مشرشرة مفضضة .. وقالت الهانم ساعة كاملة وأنا أزوق هذا الطبق لكنها لم تضع سدى .. الآن سيثير شهية الآكلين حتى لن يتركوا نسيرة واحدة .. لم تسمع ردا فنظرت اليها مستطلعة وهالها منظر عينيها تدوران فى محجريهما واحدى يديها متشبثة بالفرشاة والاخرى بالجردل .

ــ انت اليوم متعبة جدا .. يكفيك الآن ...

متعبة ؟ .. فقط .. بل منهارة ، على كثرة ما مر بها لم تشعر بهذا الشعور الساحق سوى مرة واحدة .. يوم المحاكمة المشهود. قبلها كانت قد فقدت الثقة فى عدل الناس وفى ذلك اليوم فقدت الثقة فى عدل الحكومة أيضا قال لها المحامى «هاتى جنيهين للشهود»

ونظرت الى الجنيهين فى يدها .. واجرة الفرفة ؟.. وقطعـة من الـكستور لرجاء فملابسها خفيفة والبرد قد بدأ يعلن عن قدومه وابن واحد فى المصحة يـكفى وهذا الابن يفرح بكيس من الفاكهة ثم لمـاذا تـكترى الشهود وهى لن تطلب منهم اكثر من الحقيقة ..

وقال الشاهدان فى المحكمة « الارض اغلبها بور والمحصول القليل أكلته الدودة » وكاد يصيبها الخبل .. عن اى ارض يتكلمون ؟.. الارض التى طالما اكلت منها الشهد ؟ ووجدت سـاقيها تحملانها الى حيث الشاهدين وظلت تقترب منهما وتقترب حتى خرق سمعها دقات قلبيهما .. كلا .. هذه ليست قلوبا أبدا .. هـذه أوراق من فئة الجنيه .. أوراق جديدة تقرقع ، وصرخت بأعلى صوتها : « أجل يا سيـادة القاضى .. ليست قلوبا .. ليست قلوبا .. لمـاذا تـكاثروا عليهـا حتى ان حوالى عشرة منهم استطاعوا بالكاد أن يخلصوا تلابيب الشاهدين من يديها ؟ ثم لمـــاذا أخرجوها من القاعة كلية ؟ لم تـكن تنوى بالشاهدين سوءا .. فقط أرادت أن تشق صدريهما لترى القضاة الأشياء التى تدق .. بالتأكيـد ليسا قلبين ولكنهما ورقتان خضراوان دفعهما برعى ولم يبال وهل يدفع من ماله « انه مال ابنى » .

ليس بكثير ما حدث لها فما اقسى أن ينقلب أمامها رأسـا على عقب أمر كانت تؤمن به كل الايمان .. اليوم أيضا انهار بين يديهـا صرح كانت تراه عظيما ، ابدا لم تفرح بتلك الزيجة من أجل نفسها .. أو عبده .. لن يستفيد الا قليلا .. لفافة من اللحم وعدد من الحقن بين الحين والحين ، هى ايضـا ستستريح بعض الراحـة وليس كلها .. بالطبع لن تستمرىء أن تعيش عالة على زوج ابنتها ولـكنها ستعمل فى منزله .. بلقمتها .. أما الخير كله والسـعد كله فلرجاء .. ستصبح هانما .. هانما مثل الفت هانم .. وهى أجمل منهـا ومن كل الهوانم جاراتها وقريباتها عنـدما يستيقظن صباحا .. كيف ستكون رجاء اذن عندما ترتدى الحرير وتضـع الروج .. ولمـاذا لا تفعل ؟ لمـاذا لا تذهب الى الـكوافير ليصنع لها من شعرها الاصفر بدون صبغة — وان شـابته خشونة بسيطة — تاجا ساحرا .. لمـاذا لا ترتدى البلوزات والعقود والـكعب العالى وتركب السيـارة لتقلها من النـادى الى المسرح ومن المسرح الى الـكازينو وليـكن بعد ذلك ما يـكون .. لمـاذا لا تأكل على المائدة وتنام على سرير وتمشى على السجاد .. ليأتى أهـل البلد الذين

لاموها أن حرمتها عز ابيهـا ليروا أي عز تعيش فيه ... عز لم يسمعوا به ولا فى الروايات .. عز يفوق ذلك الذى تتقلب فيه بنت عمدتهم . غاب كل ذلك ولا شك عن ألفت هانم وستذكرها به .. وقد فعلت عندما انتهى اليوم وذهبت تستأذن فى الخروج فطلبت كردانها لترتديه العروس عند حضور العريس فى اليوم التالى :

ــ كأنك مصممة على المضى فى المشروع ؟

ــ كيف تلوح لابنتى فرصة كهذه ولا أمسك بتلابيبها ؟ هل هناك أم ترفض خيرا هبط لضناها ؟

مضت تردد عليها أحلام العز كلها ، وابتسمت ألفت هانم .

ــ بعض الناس يتعاطون الافيون فيخيل اليهم انهم سـلاطين يرفلون فى النعيم حتى يذهب مفعول الافيون فتكون صدمتهم اكبر بالواقع المر .

ــ الغلابة أمثالنا اذا رأوا مثل هـذه السعادة حتى فى الاحـلام فان عليهم أن يقبلوا أيديهم ظهرا لبطن .

ــ حسنا .. الشأن شأنك لـكنك تعرفين أن الاستاذ يتـأخر كل ليلة فى المكتب ومفاتيح الخزانة معه وفى الصباح الباكر أجهـز لك الـكردان .

هل كانت مقتنعة حقا بمشروعها كل الاقتناع ؟.. أبدا والا لما أحست بكاهلها ينوء بثقل ربما وازى ثقل الارض بـكل ما تحمله من جبال ، بعد كلام الجارات وعبـده والهانم أصبح اقتناعها مزعزعا كحائط بنى على الرمال تـكفى دفعة واحـدة كى ينهار .. من أين يمكن أن تأتى الدفعة ؟ من رجاء ، ليتها تفعل لـكنها تعودت منـذ حضورهم الى القـاهرة أن تترك لها مطمئنة جميع أمورها . لم تعارضـها يوما قط .. وهـذا ما ضـاعف مسئوليتها .. الليـل بطوله لم تنم الا لحظـات .. صحت بعدها مذعورة على صيحـة مكتومة . رجاء تحلم ويداها ممدودتان كأنها تغرق حتى عثرت على ذراع أمها فتشبثت به..عاد اليها هدوءها واستسلمت للنوم مبتسمة كالملاك .. نعم .. لم يعـد لك الا ذراعا أمك الضعيفتان ماجأ وملاذا .. أين الأذرع القوية .. رجالك ؟ أحدهما تخلى عنك والآخر هزمه المرض ، هل يصلح ذلك العريس المنشود ليحل محلهما ومحلها ؟ طالما ظنت انها ستخلى يدها من مسئوليتها الكبيرة تلك يوم تزفهـا الى عريسها .. هل يـكون الامر كذلك مع هـذا الوافد الغريب وهل

ستموت اذا انتهى عمرها ــ ورجاء على ذمة ذلك الزوج ــ وهى مطمئنة مستريحة ؟

فى الصباح مدت الفت هانم يدها لأم عبده مبتسمة .

ــ حمدا لله .. على آخر لحظة ناديت الاستاذ من على السلم وها هو كردانك .

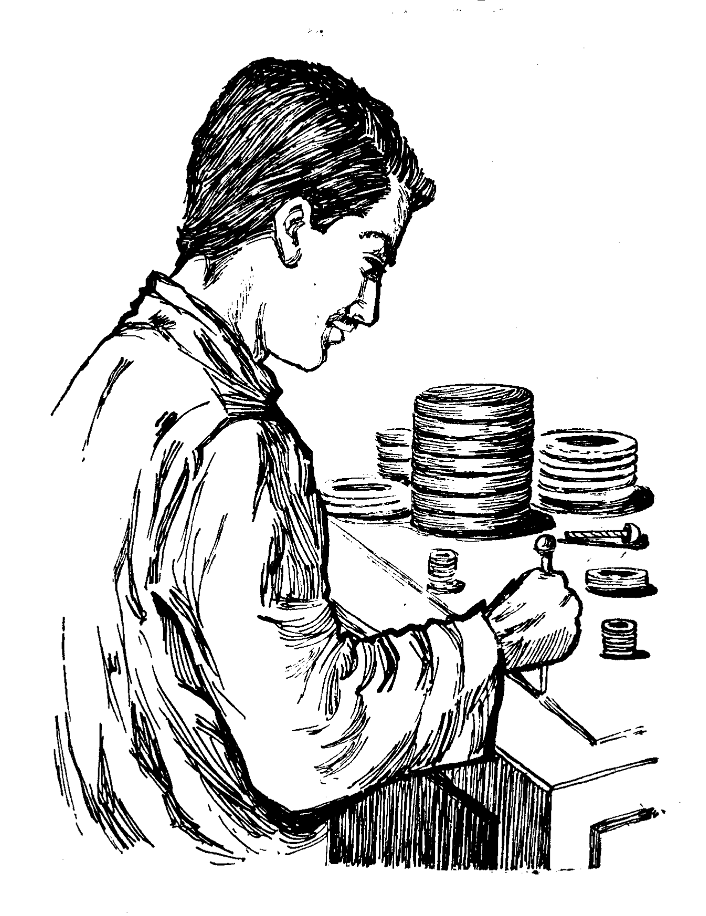
تنهدت . تحس كأنها لفرط خفتها توشك أن ترتفع فى الهواء :

ــ اعيديه ثانية الى خزانتك .. وآسفة جدا لتعبك .

ــ لماذا ؟ .. ألم يعد له لزوم ؟ .. لكن ..

ــ أستطيع أن اتحمل وأكافح عامين آخرين ولكننا أبدا .. لن نتعاطى الأفيون ..

الإنسان والآلة



الانسان والآلة

الانسان والآلة .. هل يمكن أن تقوم بين الاثنين صداقة وثيقة ؟ ممكن .. بل وأحيانا ما هو أبلغ من الصداقة .. حب وعشق متيم .. !

كان قد تخرج فى كلية الهندسة وأرسل الى الصحراء .. ولفتت هذه الماكينة الهائلة « الحفار » انتباهه ، ضخمة .. شامخة .. هامة .. معقدة جدا .. اهتمامه بها يكبر كل يوم .. رغم عدم ترحيب الفنيين الامريكان أقبل عليها يستكشف كنهها.. رأت منه هذا الاقبال فباحت له بالكثير من أسرارها ، ففى الآلات بعض طباع الانسان .. وربما المرأة على وجه الخصوص .. يسعدها أن ترى من يهتم بها ويخصها بكل عنايته .. كان أمام مصطفى العديد من الآلات والماكينات لكن ماكينة أخرى غير الحفار لم تجذب انتباهه .. المرأة تقدس التوحيد فى الحب .. تسلم جميع مفاتيح قلبها لمن لا يشرك بها .. ترى فى الشرك بالحبيب ما يكاد يوازى الشرك بالله .. أو بالوطن .. ويبدو أن الآلة أيضا ترى هذا الرأى !

عندما قطعت مصر علاقاتها مع أمريكا عام ٦٧ وسافر الفنيون الامريكيون جميعا كان مصطفى يقضى اجازته بالقاهرة ، وعندما عاد وجد الحفار متوقفا .. صعق .. فى هذا اضرار كبير بالبلاد وهى ـ خاصة بعد ظروف النكسة ـ محتاجة لكل قطرة بترول يمكن استخراجها . وجاء الرد « لا يوجد مصرى واحد يستطيع تشغيل الحفار بآلاته البالغة التعقيد .. لقد استعنا حتى بأساتذة الميكانيكا فى كليات الهندسة الا انهم عجزوا عن حل طلاسمه » أخبرهم أنه يستطيع تشغيله . سخروا منه .. حذروه من العواقب .. وافقوا أخيرا ، ولم تمض ساعات حتى كان الحفار الضخم يعود للعمل .. كان اليوم أشبه بالعيد لدى جميع العاملين فى الحقل ، حاول أن يدرب مجموعة من المساعدين عليها لكنهم تهيبوا

تعقيـدها .. أو هى بخلت عليهم بأسرارها العميقة.. اضطرمصطفى أن يقوم للآلة بـكل شىء .. حتى التنظيف والتزييت والصيانة ..

احبهـا أكثر عندما تأزمت الامور بينـه وبين خطيبته .. وجـد نفسـه بدون وعى يقارن بينهما .. عندما تقول له المـاكينة — عن طريق عداداتها — ان آلاتها قد وصلت حتى عمق خمسين مترا فانها تـكون كذلك حقا .. لا تزيد سنتيمترا واحدا ولا تنقص .. أما سـعاد فانها تقول له انها كانت عند الـكوافير ثم يكتشف ان اليوم هو الاثنين .. وأحيـانا عنـد الطبيب ثم يعرف أن طبيبهـا فى رحـلة بالخارج .. وغيره وغيره .. عتب عليها كثيرا .. حاول أن يصلح أحوالها لـكنه فشل ويبـدو أن ذلك كان نتيجة طبيعيـة لتدليله اياها .. كان يدللها بعد أن حكت له عن ظروفها القاسية .. عنـدما تزوجت من شخص لتكتشف عجزه عن ممارسة حيـــاة زوجية طبيعية .. ثم لم يكتف بحرمانها وانما عذبهـا بشكوكه .. هل كان ما قالته حقا ؟ . أصبح يشك فى كل كلمة تنطقها حتى ولو كانت عن تاريخ اليوم أو عدد دقات الساعة.. أمسى يعد أيام الاجازة حتى يعود الى عمله والى آلته المفضلة .. ما طلب منها يوما شيئا وخذلته مهما كانت صعوبة ما يطلب .. عارضه رؤساؤه عـندما قرر أن يجعلها تحفر لأعمق مما كان يشغلها أصحابها السابقون.. لكنه فعلها .. وطاوعته . قامت بالعمـل على أكمل وجه .. تنفس الصعـداء .. ولم يملك أن قبلهـا .. لم تحرجه أمام رؤسائه .. لم يطلب من سعاد شيئا فوق طاقتهـا .. طلب منها الا تخرج وحدها بالليل .. الا تلبس القصير العارى لهـذه الدرجـة .. الا تضحك تلك الضحكة ذات الذيل الطويل .. لـكنها ابدا لم تلب له اى مطلب .. على العكس .. كانت تزيد فيما يضـايقه .. وكأنها تتحدى .. يوما شكاها لأحد أشقائها لـكنه بدلا من مؤازرته هدده باطلاق الرصـــاص عليـــه ان هـو لم يكف عن التشنيع على شقيقته ، انه لم يشنع قط .. وانما يعيـد ما سمعه .. وناقـل الكفر ليس بكافر .. وهـذه الاشاعات .. هل يعقـــل أن تكون كلها كاذبة متجنية ؟ هل يمكن أن يوجد دخان حيث لا تشتعل نيران؟ مثل كان يسمعه قديما ويدهش له « يرضى القتيـل وليس يرضى القاتل .. ! » بعد تهديد شقيق خطيبته ادرك أن كلام أجدادنا كان دائما حكيما ..

أخيرا أنهى ما بينه وبينها .. وجد أن حبهـا لا يساوى حرق دمه

كل شهر ، عدا قلقـــه فى مكان عمله .. فى الصحراء . وكان لابد من وجوده هناك ..نصحه صديق شكى له معاناته بطلب النقل لمقر الشركة بالقاهرة .. لـكنه رفض .. لم يدرس التعدين.. ثم يحصل على كل تلك الخبرات ليجلس آخر الامر على مكتب بالقاهرة . بل ان رؤساءه أيضا كانوا سيرفضون كما رفضوا من قبل الموافقة على طلب اعارته لاحدى الدول العربية .. والله وحده يعلم كم كان متضررا وهو يقدم الطلب .. لـكن الحاح خطيبته وحماته المنتظرة ــ وقتها ــ فاق الحد .. ضغطتا عليه ضغطا شديد .. بل استثارتا كبرياءه عندما أخذتا تعددان له الهدايا التى أحضرها زوج احدى قريباتهم من تلك البلاد .. قطعتا عليه كافة السبل « تقول ان بلادك فى حاجة اليك ؟ .. بلادك لديها الألوف من أبنائها .. أما أسرتك فليس لهـا سواك .. ومن ليس له خير فى أسرته ليس له خير فى أحد .. كم تتقاضى من شركتك ..؟ ملاليم .. من قال ان المـال ليس بذىاهمية وقد وصفه الله تعالى بأنه زينة الحياة الدنيا .. و.. وقدم الطلب.. ورفض .. قال الرؤساء انه ليس هناك من يستطيع تشغيل الحفار عداه .. وأن هذه غلطته . فقد كان واجبـــه اعداد مجموعة من المساعدين .. وعلم الله أنه حاول معهم كثيرا لكنهم هم الذين كانوا يستصعبون ادارته .

ارتاح باله بعد فسخ الخطبة فأعطى عمله كل اهتمامه وجهـــده وتفكيره .. وحبـه ، ولـكن .. رغم عنـايته الفائقة بآلاته أصبح يوما ليجد الحفار معطلا .. وظل يبحث حتى وجد السبب .. العطل بالتوربين ، وسأل مدير المخازن .. « هل يوجد توربين آخر ؟ » ، فأفاد بأنه لا يوجـد سـوى توربين واحد .. معطل هو الآخر..وهو التوربين الذى كان مركبا بالحفار عنـد حضـوره .. ثم تعطـل .. فما كان من الخبراء الامريكان الا أن استبدلوه بالتوربين الجديد الذى كان قد أحضر اضافيا ، وأسقط فى يده .. ماذا يفعل ؟ .. وأخيرا خطرت له فـكرة فك التوربين ليعرف سبب عطله .. لـكن رئيسه رفض :

ــ هل جننت ؟.. أم لـكونك لقطت من الامريكان طريقة تشغيل الحفار أصـابك الغرور حتى ظننت أنك قادر على كل شيء .

ــ فلأجرب .. ربما استطعت .

ــ لكن تجربتك هـذه قد تكلفنا غاليا .. هـــذا التوربين قـد يمكن اصلاحه .. عندما تعود العلاقات مع أمريكا فيعود الفنيون ..

أما اذا فككته فقد ضيعته نهائيا .
ــ واذن .. فما العمل ؟
ــ سنبلغ الوزارة حتى تحاول أن تستورد لنا توربينا جديدا .
ــ لكن هذا سيستغرق شهورا عديدة يتعطل فيها العمل وينقص انتاجنا .
ــ لا مفر من ذلك .. اسمع يا مصطفى .. انك تشط كثيرا .. الامريكان أنفسهم عندما تعطل التوربين السابق غيروه .. ولم يحاولوا فكه .
ــ لأن الجديد كان أمامهم .. ثم أنها ليست بلدهم فلا تعنيهم مصلحتها .
ــ وانا أقول لك ان المصلحة فى عدم فك التوربين .. كيف بالله عليك تعيد تركيبه وليس لديك كتالوج يوضح مكان كل قطعة ؟!
ــ أستطيع أن آخذ بالى و ..
قاطعه صارخا : قلت لا يعنى لا .. ولا اريد المزيد .

انصرف المدير وكبار الموظفين فى موعدهم ، ولم يستطع مصطفى الأكل أو النوم .. لم يكن متأكدا من نجاحه فى اصلاح التوربين لكن الاحتمال كان يستحق المحاولة .. كذلك يستحق المجازفة ، أسرع يبحث عن أحد العمال حتى وجد عاملا كان قد قدم له خدمة كبيرة وصحبه الى مكان التوربين ، وبدأ يفكه .. أحضر معه فرشاة صغيرة وعلبة دوكو أبيض وراح يرقم كل قطعة ويكتب فى دفتر معه مكانها والقطع التى كانت مركبة بها ثم يضعها على الارض بالترتيب .. القطع الاولى فى أول صف فالتى تليها فى الثانى .. ثم الثالث .. وهكذا ، أرضية الفرفة كادت تمتلىء .. والدفتر أيضا .. ومنديله الذى كان يمسح به عرقه بين الفينة والفينة .. حين « طب » عليه المدير .. أبلغه أحدهم بدون شك .. فجأة أسمع صوته من خلفه يتساءل :
ــ ماذا تفعل يا مصطفى ؟
رد بهدوء شديد : كما ترى .. افك التوربين .. !
ــ اذن ركبت رأسك وعصيت أوامرى .. استعد اذن للمثول أمام مجلس تحقيق .
ــ اذا لم أستطع اعادة تركيبه قدمنى للتحقيق .
نظر المدير الى العدد الهائل من القطع المرصوصة على الارض وهتف :

ـ وهل تتوقع أن تستطيع تركيب كل هذه ..؟ وبدون كتالوج ؟!
ثم انك لم تكتف بنفسك وانما صحبت عاملا .. من سيدفع له ساعات العمل الاضافية ولم يكلف بها رسميا ؟

ـ لن يطالب بشيء .. سأرضيه أنا .

وتحدث العامل : رقبتى للباشمهندس .

وتهكم المدير : هذه قدرت عليها ولكن .. من سيدفع التعويض لأسرته فيما لو أصابته احدى الالات أو قضت عليه واعتبرت أسرته انها كانت اصابة عمل .

اهتزت يد العامل فى رجفة مفاجئة فى حين أسرع مصطفى مؤكدا محاولا طمأنة العامل .

ـ لن يحدث أى شيء من ذلك أبدا .. باذن الله .

ـ لكن اوامرى كانت صريحة .

ـ لم أستطع الوقوف مكتوفا أمام عطل الحفار .

ـ قل كل ذلك أمام لجنة التحقيق !

بكوب من الشاى وسيجارة ونكتتين لطيفتين استطاع مصطفى اعادة الهدوء الى أعصاب العامل .. وكان محتاجا لذلك .. اذ استغرق منه فك التوربين نصف الليل .. ثم اعادة تركيبه النصف الثانى ، كان التركيب مهمة صعبة .. شاقة .. مضنية حقا .. تحتاج لمهارة وذكاء ودقة ملاحظة بالغة .. كان يملك كل ذلك وفوقه حظى بتوفيق الله ، وركب التوربين .. بعد اصلاح العطب به .. وفى الصباح استطاع تشغيل التوربين .. وعند الظهر ركبه فى الحفار .. وفى المساء كان الحفار يعاود العمل .. بكل طاقته ، وفى الصباح الذى يليه فوجىء الجميع بحضور الوزير .

كان المدير قد أبرق اليه فور ابلاغه بعطل الحفار .. ولما كان الامر خطيرا فقد جاء بنفسه ليدرس الموضوع من كافة جوانبه .. على الطبيعة . وعندما جاء كان الحفار يعمل .. وقيل له انه قد أصلح فصرح بأنها أجمل واسعد مفاجأة صادفها فى حياته .. واقبل زملاء مصطفى يهنئونه ويبشرونه .

بعد الظهر .. أقيمت فى النادى حفلة لتكريم الوزير .. ومدت الموائد محملة بالحلوى ومزينة بالزهور .. وقام المدير خطيبا .. مرحبا بالوزير .. مثنيا عليه كثير الثناء ، لكن أهم ما ركز عليه فى خطبته أنه ـ أى المدير ـ ما كاد يعلم بعطل الحفار حتى جمع كافة المهندسين وظل يتشاور معهم ويحفزهم لكن الجميع تهيبوا وخشوا

مغبة الفشل .. فما كان منه ـ المدير ايضا ـ الا أن تحمل المسئولية وحده .. واختار احد المهندسين ـ دون ذكر اسمه ـ وعمل المستحيل حتى أصلح التوربين .. منفقا فى ذلك الليل بطوله وجزءا كبيرا من النهار .. مضحيا براحته وباذلا كل جهده وقادحا كل فكره فى سبيل صالح البلد .. مستوحيا فى ذلك توجيهات السيد الوزير الذى يحفزهم دائما لتخطى الصعاب بادئا بنفسه ليكون فى ذلك قدوة للعاملين معه .. !

جميع العاملين فى الموقع يصفقون موافقين ومثنين ، الوزير يقف ويعلن أمره بترقية المدير ترقية عظيمة ومكافأته بمرتب شهر وكذلك مكافأة المهندس الذى ساعده بمرتب عشرة أيام . المدير يشكر الوزير الشكر المستطاب والعيون تتجه يمينا ويسارا باحثة عن مصطفى ليقدم شكره بدوره لكنهم لم يجدوه .. لقد تسلل أثناء خطبة المدير العصماء ..

ويضحك صديق له :

ـ لابد ستجدونه هناك .. عند الحفار .. !

كان هناك فعلا .. يتابع ـ وهو يقارن بين الانسان والآلة ـ مؤشرات الحفار التى تدل على أن أجهزته تعمل على عمق ثمانين مترا من سطح الارض .. وكان واثقا من انها لا تنقص عن ذلك سنتيمترا واحدا .. ولا تزيد .

وعـــاد الصفـــاء



وعاد الصفاء

ارتفعت الاصــوات من أكثر من جانب « حاسب .. حاسب .. » وعندئذ فقط تنبه فراش القطـار الى خيط من الزيت ينســاب من الصـــــندوق الـكرتون الذى كان يهم برفعه فوق الشبكة فأعاده سريعا الى الارض بين تعليقات الركاب وسخط صاحب الصندوق :

— ألم أقل لك بالراحة على هذا الصندوق ؟

عموما من حسن الحظ أن الزيت المسكوب كله كان من نصيب الارض فلم يصب المقاعد ولا الجالسين ، كان لابد من انقاذ ما يمكن انقاذه الا انه لم يـكن من المستطاع والصنـــدوق مقفل معرفة الاتجاه الراسى لزجاجة الزيت . من كان يصـدق أن ذلك الصندوق يحوى كل تلك الاشياء ؟.. لقد ملأت محتوياته الارض بين الاريكتين ومع ذلك ما زالت الايدى تروح وتجىء بينه وبين الارض .. دخل اثنان .. رجل وامرأة يمسك كل منهما بنسخة مصفرة منه فى يده .. كان الرجل ينظر فى تذاكره يقارن بينها وبين المقاعد .. اكتشف أن مقاعدهم هى المقــابلة لمقاعد أصحاب صندوق العجائب .. كانت أصــابع الزوج قد وصلت للزجاجة اللعينة فأخـذ يسويها واقفـة ويحكم غطاءها وهو يعتذر للأسرة القادمة وزوجتـه تزيد من سرعة يديها وتشاركه الاعتذار ما وسـعها لـكن أسـارير القادمين لا تلين .. الزوج يعاود الاعتذار فى رجاء :

— دقائق قليلة ونعبىء هذا كله فتستطيعون الجلوس .

وردت القادمة بتجهم أشد :

— وكيف سنستطيع الجلوس بعد أن دلقتم كل ذلك الزيت ؟.. سيعلق فى أحذية الاطفـال وبعـدها نحملهم على حجورنا فتتسخ ملابسنا .. !

صاح الزوجان معا باستنكار :

— دلقناه ؟ .. هل نحن الذين دلقناه ؟ !

وعاد الصفاء



ارتفعت الاصوات من أكثر من جانب « حاسب .. حاسب .. » وعندئذ فقط تنبه فراش القطار الى خيط من الزيت ينساب من الصندوق الكرتون الذى كان يهم برفعه فوق الشبكة فأعاده سريعا الى الارض بين تعليقات الركاب وسخط صاحب الصندوق :

– ألم أقل لك بالراحة على هذا الصندوق ؟

عموما من حسن الحظ أن الزيت المسكوب كله كان من نصيب الارض فلم يصب المقاعد ولا الجالسين ، كان لابد من انقاذ ما يمكن انقاذه الا انه لم يكن من المستطاع والصندوق مقفل معرفة الاتجاه الرأسى لزجاجة الزيت . من كان يصدق أن ذلك الصندوق يحوى كل تلك الاشياء ؟.. لقد ملأت محتوياته الارض بين الاريكتين ومع ذلك ما زالت الايدى تروح وتجىء بينه وبين الارض .. دخل اثنان .. رجل وامرأة يمسك كل منهما بنسخة مصفرة منه فى يده .. كان الرجل ينظر فى تذاكره يقارن بينها وبين المقاعد .. اكتشف أن مقاعدهم هى المقابلة لمقاعد أصحاب صندوق العجائب .. كانت أصابع الزوج قد وصلت للزجاجة اللعينة فأخذ يسويها واقفة ويحكم غطاءها وهو يعتذر للأسرة القادمة وزوجته تزيد من سرعة يديها وتشاركه الاعتذار ما وسعها لكن أسارير القادمين لا تلين .. الزوج يعاود الاعتذار فى رجاء :

– دقائق قليلة ونعبىء هذا كله فتستطيعون الجلوس .

وردت القادمة بتجهم أشد :

– وكيف سنستطيع الجلوس بعد أن دلقتم كل ذلك الزيت ؟.. سيعلق فى أحذية الاطفال وبعدها نحملهم على حجورنا فتتسخ ملابسنا .. !

صاح الزوجان معا باستنكار :

– دلقناه ؟ .. هل نحن الذين دلقناه ؟ !

واستطرد الرجل وصوته يتغير من الاعتذار والرقة الى التحدى :
– قد يصيبكم بعض الضيق من جرائنـا .. لـكن تعبنـا نحن وحرجنا وخسائرنا أضعاف مضاعفة .. ولو كان الامر بيدنا لما أردناه أبدا لـكن ذلك كان خارجا عن ارادتنا تماما ..
كان معه حق .. فحبات العرق التى ملأت وجهه ووجه زوجته كانت تؤكد كم هى شاقة عملية نبش الصنـدوق ثم اعادة محتوياته وهم وقوف وظهورهم تـكاد تنقصم .. !
ثم نظرة سريعة داخل محتويات الصنـدوق كانت تحكى عن تعب أكبر ينتظرهما عند الوصول .. كل شىء طاله الزيت .. مشـابك الغسيل منقوعة فيه نقعا .. وشماعات الملابس والأطباق.. والاحذية وملابس الخادمة كلها .. بما فيها .. المـايوه ! ؟ انهم يعـاملونها بلطف كأنها فرد فى الاسرة حتى انهم حجزوا لها معهم فى الدرجـة الثانية .. كذلك كانت تناديهم بالبك والهانم بدلا من سيدى وسيدتى .. لم يلبسوها « المنديل أبو أوية » العتيد وانما عقصت شـعرها على شكل شينواه أنيق ، ثم انها نظيفة وليس بهـا أى مرض وهم متأكدون من ذلك تماما والا ما تركوها تلاعب أولادهم وتطعمهم بيديها وتحمل صغيرهم أغلب الوقت .. مع ذلك .. فانهم لم يضـعوا ملابسها مع ملابسهم فى الحقائب ووضعوها مع الحلل والاطبـاق ورشاشة الفيليت والبصل والثوم و .. الزيت .. !

انتهت العملية الجراحية داخل جسم الصندوق باستئصال العضو المصاب .. برئاسة ربة الاسرة ومعاونة الاب والدادة بل والاطفـال أيضا .. كل بما يستطيع .. أعادوا أمعاءه بأكملها داخله .. ربطوه بالضمادات ، ظواهر كثيرة خلفتها العملية .. خلفت ارهاقا شـديدا على وجه كبيرة الجراحين ومساعديها .. خلفت الدماء الكثيرة اللزجة التى سـالت ولا تزال تسيل .. الزيت . خلفت ورما كبيرا فى بطن المريض .. اذ لم تستطع الاسرة اعادة ترتيب الصنـدوق باتقان كما رتبوه أول مرة . لكن كان أخطر ما خلفته ذلك التوتر على وجوه الاربعة الـكبار .. الاولون يرون أنهم لم يتعمدوا مضايقة احد لـكنه حادث عرضى يشابه ما يصادف الـكثيرين وكان من حقهم على جيرانهم أن يجدوا منهم العطف والمشاركة بدل الضيق والتهكم حتى ان السيدة لم تحاول أن تخفض من صوتها وهى تقول لزوجها :
« يبدو أنهم كانوا متعجلين جدا على الاستمتاع بالبحر فصنعوا هنا فى أرض الديزل بحرا من الزيت ! » ثم انهم قدموا اعتذارهم وبالغوا

فيه الا أن الآخرين لم يقبلوه .. هل كانوا يريدون منهم تقـــديم الاعتذار على ورطه تمفه ؟ !

الآخرون أيضا كانوا يرون أنهم دفعوا نقودا كى يستمتعوا لا لـكى يتضايقوا فى اول ايام الاجازة .. عشر دقائق مرت وهم وقوف حتى أخلوا لهم المكان أمام كراسيهم .. الصندوق لم يعد ممكنا وضـعه على الشبكة فترك فى الممر يضايقهم فى ذهابهم وعودتهم من والى دورة المياه أو البوفيه .. وأخيرا تلك البركة اللعينـــة أمامهم والتى لابد سيخوضها الاطفـــال فى جريهم وحتما سيتعبون فيحملونهم وذلك الميكروب فى أحذيتهم . هى غلطة أصحاب الصندوق وعدم تحوطهم وقصر نظرهم فلماذا يتحملونها هم ؟ ..

قالت السيدة لشغالتها وهى تقصد الرد على جميع من حولها :

ـ هى كانت مخاطرة من أول الامر أخذ الزيت هكذا .. لكن أحـدا لا يستغنى عنه خاصة فى المصايف حيث السمك سيد المائدة .. وطبعا لا تموين لنا هناك والزيت الحر نادرا ما يوجد .. ثم اننا نأخذه كل عام ولم يسبق حدوث أى ضرر .

محاولة فى تخفيف الأثر ألقى الرجل بجرائد اليوم فوق الزيت عسى أن تشربه ولكن يبدو أن عطشـــها لم يكن كبيرا فلم تشرب الا القليل وظلت بركة الزيت تعلن عن نفسها من فوق صفحات الجرائد .. التى لم يقرأ صاحبها منها حرفا واحدا .. ! كفارة أخرى فرضها على نفسه لكنها لم تلق تقديرا .

جلس الأربعة الكبار مرة واحدة وهم يتأففون ويجففون عرقهم ، الوحيدة الخالية البال كانت الدادة .. من حظها جاء مقعـــدها فى الناحية الاخرى فجلست وعلى ســـاقيها أصغر الأطفال تداعبه فى سعادة وهى تطرقع بلبانتها عاليا .. وكأنها تنفس عن حرمانها مضغ اللبان أمام البك والهانم .

قالت لها أن ذلك عيب .. ماهو العيب فى لبانة صامتة لم تشتم احدا أو تسىء أدبها على أحد ؟ .. زادت ابتسامتها وهى تتخيل نفسها بالمايوه .. توارت ابتسامتها قليلا خلف ستار أحمر شفاف .. أخجلها أن رجالا كثيرين سيرونها هكذا .

لم يمض عليها أكثر من عام منذ غادرت البلد حيث كان أبوها يقيمها خناقة حامية اذا شمرت أكثر من اللازم طرف جلبابهـــا الطويل حتى لا يجمع عفار الارض فظهر ولو جزء صغير من ساقها .. ترى

ماذا سيفعل الرجال حين يرونها بالمايوه .. لا جدال ستعود محطوبة أو على الاقل مقروءة فاتحتها ! ..

وفى وقت واحد خطر لكل من السيدتين أن تتفرس فى ملامح الاخرى فتبادلتا نظرة .. لم تزد على ثوان .. بدأت مستطلعة ثم انتهت موتورة كأنها مبارزة صامتة .. بعدها أشاحتا ببصريهما بعيدا وملامح كل منهما .. خاصة حركة الشفة السفلى التى التوت متدلية تنطق بالتهكم والسخرية والازدراء .. لم تعجب احداهما الاخرى ..

قالت الاولى فى نفسها « عجبا .. أم لثلاثة أولاد وتقص شعرها « الآجرسون » كالبنات الصغيرات ؟ .. أم غرها قوامها القصير فظنت نفسها طفلة ؟ ..

عندما كانت واقفة بدت وكأن الارض قد أكلت نصفها وعندما جلست لمست قدمها الارض بالكاد ! .. ترى ماذا أعجب ذلك الرجل ذا القوام الفارع النموذجى فى هذه « اللعبة » ؟ .. كيف يسيران معا فى أى شارع . كم يكون منظرهما مضحكا وهى متشعلقةفى ذراعه؟..صاحبة الزيت أيضا كان لها منطقها : يا الهى .. هل هذه سيدة أم .. مصارع ؟ .. الأنثى تميزها دقة القد .. قوامها ليس فيه أنوثة بالمرة .. طويلة عريضة كشيخ الخفر .. بل شيخ الخفر ربما كان له خصر .. هذه ليس لها خصر .. تبدو أكثر شبها بلوح العجين .. ! مسكين زوجها .. كيف يحتمل العيش مع هذه الكتلة المكعبة .. مسكين جدا .. علماء النفس أجمعوا أن المراة دائما تتوسم فى زوجها الحماية فاذا كان أضأل منها افتقدت تلك الحماية وافتقدت ركنا هاما من أركان زواجها وتعبر خيبة املها عن نفسها فى صور شتى ربما فى نكد مستمر تختلقه أو فى عدم احترام زوجها..بعدها شمل الازدراء الزوج النحيف أيضا .. كيف تقبل أن يعيش مع زوجة لا يملأ عينها وبالتالى لا تحترمه ولا تقيم له ولا لآرائه وزنا .. لابد أنه ضعيف الشخصية يقبل أن تسيطر زوجته حتى تلغى وجوده .. أصبحت النظريات العلمية حقائق مؤكدة ! .. عموما كان لها عذرها فى هذا الظن فلم يكن وجه الاخرى المتعنت المكفهر يوحى بغير هذا .. أشاحت بوجهها عبر النافذة .. المناظر هى هى .. مكررة مملة لكنها على أى حال أرحم من تلك النظرة القاسية .. المشبعة بالغيظ والاتهام ، لبست وحدها التى شعرت بالملل .. ها هم جماعة يحاولون أن يقتلوا مع مللهم العصافير البريئة .. تنتظرهم بجوار الطريق سيارة فاخرة..

فراغ ونقود .. الغريب انه دائما حيث يوجد الاول توجد الثانية وكلما قل الفراغ قلت النقود ، بعد أن توارى الصيادون عادت مناظر الحقول والترع وقوافل الماشية .. الفلاحون يعملون فى الارض بهوادة وينظرون ناحية الديزل وكأنهم مندهشون .. ما الذى يدعوه الى أن يسرع هكذا ؟! ..

أعمدة التليفون والأشجار تجرى الواحدة خلف الاخرى .. فى السفريات السابقة كانت تتخيل أنه الشوق يدفع الشجرة جريا لتعانق زميلتها .. اليوم تخيلت ان بين الواحدة والاخرى ثأرا تطاردها من اجله لتقتص منها ! ..

الناس يدوسون فى الزيت ويحملونه فى أحذيتهم ليوقعوا بها فى باقى الطرقات .. مع مرور الوقت والمسافرين خف اثر الزيت كثيرا .. أصبح مجرد بقعة داكنة كأنها ذكرى كريهة لحدث سيىء ، لكن التوتر الذى كان يغلف الوجوه الاربعة لم يخف أبدا وظل على ما هو عليه .. بل انه شمل الاطفال أيضا .. للأطفال دائما لغة دولية يتعارفون بها سريعا لكن وجوه الآباء والأمهات لم تشجع أحدا على التعارف .. لم يحاول أى منهم أن يتفرج على لعبة الآخر ..

طارق كان يود أن يحكى للآخرين كيف أنه قد انتقل من السنة الاولى للثانية وأن أباه قد سر منه فأهداه عجلة .. « عمو » أيضا أحضر له سبورة ليتمرن عليها .. لم يقل شيئا .. أقفل فمه على ماعنده . أخيرا خرقت جدار الصمت،طفلة رأت فى يد زميلتها عروسة جميلة فطلبت منها أن تفرجها عليها ، لكن أمها نهرتها مع أنها والشهادة لله ، العروسة ، كانت تحمل فى يدها قطة وليس زجاجة زيت ! ..

فجأة رفت على وجه الرجل الاسمر ابتسامة خفيفة .. كانت أول ابتسامة تداعب ملامحه منذ انبثق من صندوقه أول خيط من الزيت .. الا سحقا لهذا الحادث .. عمله مرهق للغاية .. خاصة فى الشهور الاخيرة .. كان يخرج من منزله يوميا فى السادسة صباحا فلا يعود الا فى الثامنة او التاسعة مساء .. أحيانا يمر عليه يومان لا يرى أولاده ، انه يستحق أن يستمتع بكل دقيقة من هذه الاجازة .. كانت أحسن طريقة لتناسى تلك المشاكل فى الصباح هى تخيل النسمات العليلة والرمل الناعم والبحر الرائع بأمواجه تتتابعخلفبعضهاالبعض كأنها كرانيش من الدانتيل الابيض تحلى صدر قميص نوم من الشيفون الازرق .. الاسكندرية .. تلك المدينة الجميلة الرائعة ، وأسراب

المصيفات الفاتنات من كل سن وقد ولون وشكل وبكل زى ، التفت نحو زوجته ليرى هل احست بخواطره .. انها جميلة وهو يحبهـا جدا ويخلص لهـا كل الاخلاص ولكن من قال ان ذلك الحب والاخلاص يتنافيان مع امتاع عينيه ؟ ..

.. تنهد بارتياح .. لم تحس الزوجة بما يدور فى خلده .. لا تزال ملقية ببصرها الى المناظر التى تتتابع على نافذة الديزل .. تراها ولا تراها .. فجأة اعتدلت فى جلستها واستعاذت بالله .. مرت أمامها مجموعة مترامية من القبور .. خاتمة المطاف ونهاية كل حى .. لم يكن من الذوق ان تجعل تلك البلدة جبانتها أمام شريط السكة الحديد يراها المسافرون . فالمسافر لا يعلم أى قدر ينتظره أو ينتظر من هو مسافر اليهم أو من عندهم ولذلك يودع الناس مسافريهم بأمنية حلوة تشمل الاثنين « نراك بخير » . عموما منظر المقابر له فائدة أيضا ، انه ردع للنفس عن الغل والمقت والغضب مهما كان السبب ، فالحياة قصيرة ومن لم يستمتع بها فى رضا وقناعة وتسامح فسيخرج من الدنيا دون أن يزيد ما حصل عليه منها على متر من الارض .. أرادت أن تقول ذلك لجارتها لكنها لم تجد الامر لائقا .. ثم من يدريها أن الجارة لن ترد عليها فى برود « متر .. متر .. ليكن .. لكنه سيكون نظيفا ليس به قطرة واحدة من الزيت ! » ..

القطـار يمضى فى طريقه المرسوم غير آبه لتلك الأزمة التى قامت بين بعض راكبيه .. بعد دمنهور بدأ يهدىء من سرعته ثم وقف دفعة واحدة .. أحد الأطفـال كان يجرى ووقفة القطار المفاجئة ألقته أرضا .. جاءت جبهته وهو يسقط على حافة شمسية وضعها راكب تحت المقاعد فصرخ متألما .. قبل أن تقـوم اليه أمه بوزنها الثقيل كانت طفلة الأسرة الاخرى قد أسرعت اليه وركعت بجواره وهى تصيح بتلك اللهجة الملائكية :

ـ معلهش .. معلهش .. الشمسية خبطتك ؟ .. اضربها ؟ .. أهو .. أهو ...

أخذت تربت ظهره بيدها وهى ترد :

ـ خلاص ضربتها .. استنى أما أبوس لك الخبطة عشان تخف ..

وهى تميل عليه لتقبله انخلع « سرتاتها » وسقط على الارض .. أسرع الصغير رغم بكائه يلتقطه ويسويه لهـا فوق رأسها .. فى ثانية واحدة زالت نظرات الضيق والغضب من العيون الثمانى .. ذلك المنظر

الذى قطر فيها .. كأنه القطرة الساحرة التى تمحو البقع القاتمة .. حلت محلها ابتسامات الحنان .. فى نفس اللحظات بدأت تنساب نسمات عليلة دغدغت الوجنات وداعبت الشعور وخففت من سخونة الجو والأعصاب .. معلنة قرب الوصول الى الهدف المنشود.. المصيف الساحر ، وانتهاء الرحلة بكافة متاعبها ..

عندما بدأ القطار يدخل مشارف الاسـكندرية كان وجه الرجل الأسمر قد ازداد رضا وطمأنينة بعد أن أكد له جاره ــ الذى اكتشف أنه محام قدير ــ أن موقفه متين ومأمون فى تلك المشكلة القانونية التى كانت تشغل باله .. بينما زادت زوجته من سرعة سير قلمهـا على الورق وهى تكتب لزميلتها فى السفر وصفا سهلا لتورته لذيذة ، بدأ القطار يهدىء من سرعته ووقف كل رجل يعد متاعه استعدادا للنزول .. تصافحت السيدتان وهما تتبادلان ابتسامة من القلب .. قالت زوجة المحامى لصاحبتها الصغيرة القد :

ــ حمدا لله على السلامة ..

الحياة تسير دائما



لم تأكل شيئا .. قالت انها مريضة .. تشعر بألم شديد فى معدتها .. الجميع صدقها .. لم يكن هنـــــاك من سبب لكيلا يفعلوا حتى والدها .. نبه على قبل خروجه لعمله بعد الظهر بضرورة استدعاء الطبيب .. أكدت أننى سأفعل .. لم أستدعه .. ليست مريضة .. مهمومة ليس الا .. مهمومة جدا .. تستطيع أن تموه على الجميع الا أنا .. فقلب الأم لا يخطىء أبدا ، عندما خلوت بهـــا طلبت منها أن تخبرنى عما يكربها .. حاولت التملص أول الأمر وأعادت قصة مرضها .. طوقتها بحنان :

ــ اذا لم تصارحينى فمن تصارحين ؟..أليس من المحتمل أن أجد لمشكلتك حلا ؟ ..

ــ بعض المشكلات لا حل له ..

ــ انك تعذبين نفسك ..

فجأة ألقت برأسها على صدرى وهى تبكى : وأى عذاب يا ماما .. لقد تحطم قلبى .. انتهت حياتى .. ليست حياة تلك التى أحياها وأنا بعيدة عنه ..

ــ ومن يكون ذلك ؟

ــ زميلى بالكلية .. تحاببنا بكل قلبينا .. ليس كذلك الحب الذى يكتب عنه المؤلفون فيفشلون فى ابراز المشاعر بصورة تقنعنا .. لكنه حب حقيقى .. حب من الأعماق .. لم أعد أرى الدنيا الا من خلال عينيه .. عندما أراه أحس أننى أحيا ، وعندما يغيب أظل طيلة اليوم أشعر وكأن شيئا حيويا ينقصنى .. اليوم فقط علمت أنه على غير دينى .. أى أنه لن يكون بيننا ارتباط .. أى أننا سنفترق ، لا يمكن أن تتصورى معنى ذلك بالنسبة لى .. لقد انتهت حياتى كلها . انتهت .. سأعيش بعد اليوم جثة بلا روح .. كتمثال أو آلة ..

فجـــأة وجدت نفسى أضحك واضحك .. فنظـرت الى ابنتى بعتاب :

ـ أهذه مواساتك لى ؟ .. هل تسخرين من مأساتى ؟ .. كنت على حق حين ظننت أن جيلكم لا يمكن أن يفهم مشاعر جيلنا ..

اعتذرت لها :

ـ وتكفيرا عن خطئى سأصحبك معى فى رحلة ..

صاحت مستنكرة : « وهل ترينني فى حالة نفسية تسمح لى بالخروج » ؟ ..

ـ لن نخرج .. ليست رحلة خارجية بل داخلية .. داخل حياتى ..

قبل أن تتغلب على دهشتها وترد طفقت أحكى ..

ـ لم يكن جيلنا مجردا من المشاعر كما تظنين .. عرفت الحب كما عرفته أنت .. وفى نفس عمرك تقريبا ، رغم ما سمعته كثيرا عن شدة والدى الذى كان رأيه أمرا وكلمته قانونا .. كانت أسرتنا محافظة جدا .. مع ذلك أحببته .. كان صديق أخى .. لم نكن نلتقى الا لدقائق عندما افتح له الباب مصادفة .. كانت مصادفة أول الأمر .. ثم عرفت دقته على الباب . لم نكن نتكلم ، لكن نظرات عيوننا وتلامس أيدينا قالت الكثير .. أحببته بكل دفء قلبى وعنفوان شبابى .. لم أعد أشعر أننى أعيش الا لأحبه .. ولم تعد للدنيا من قيمة فى نظرى الا لكونه يعيش فيها ، اذا التقينا ـ وأنا فى طريقى للمدرسة ـ يكاد قلبى يقفز من صدرى ليذهب اليه .. واذا غاب مرة ظللت طيلة اليوم شاردة مكتئبة أتعجل الدقائق حتى ينتهى اليوم الدراسى .. اذ ربما رأيته فى عودتى فأتزود منه بنظرة تكفينى لليوم التالى ، همس لى يوما أنه سيخطبنى وطرت من الفرحة ، طيلة ليالى الاسابيع التى مرت بعدها وانا اتقلب فى فراشى قلقة حتى الفجر .. افكر فيه وفينا معا ، والعش الذى سيجمعنا ، والجهاز الذى سنحضره ، والفساتين التى سأرتديها له .. وقد وفى بوعده وحدث أبى .. رفضه بشدة .. ما زال طالبا .. أسرته بسيطة لن تستطيع مساعدته بل هى التى تنتظر منه تلك المساعدة بعد تخرجه .. أمامه أعوام وأعوام حتى يستطيع أن يقف على قدميه ، وبكيت لأمى « المادة لا تهم .. اننى أحبه »

وشهقت لجرأتى ثم عادت تقول :

ـ هل ستضعين الحب أمامك على المائدة ؟ .. هل هو عملة يقتنع بها صاحب البيت أو البقال ؟ ..

ـ لا أستطيع أن أعيش بدونه ..

ـ اسكتى .. واياك أن تذكرى اسمه بعد اليوم ..

ـ ليتك تعلمين انكم تحطمون قلبى .. بل تحطمون حياتى كلها .. تقتلوننى بدون دماء .. حياتى انتهت تماما .. ومهما عشت بعد اليوم فسأعيش جسدا بلا روح ..

ومرت شـــهور ووضعت كل همى فى المذاكرة حتى حصلت على التوجيهية بمجموع كبير يمكن أن يحقق لى حلمى الأكبر .. كلية الطب .. كنت أنام وأصحو على ذلك الحلم .. الكل كان يعرف أمنيتى وكان يدعونى مقدما بالدكتورة .. صاح والدى باستنكار « الجامعة .. حيث الاختلاط بالشبان ؟ .. هذا لن يكون أبدا .. ولا أريد أى مناقشة فى هذا الامر » ..

وكانت صدمة ساحقة .. كنت أحب العلم والتعليم بجنون .. أرى فيه الفارق الوحيد بين الانسان والحيوان .. أرى فيه زادى الأوحد الذى عليه انمو ومن مورده انهل ، أحسست أننى بحرمانى منه أحرم الزاد والماء والهواء .. بحرمانى منه أذبل وأختنق واموت .. كزهرة حرمت الرى .. احسست وقد بدأ العام الدراسى وذهب الجميع الى كلياتهم ومعاهدهم أن حياتى قد تحطمت .. انتهت .. تماما ..

ثم تزوجت .. بدون حب ، وكنت متوجسة من طباع لا أعرفهـــا وآراء لم أنسجم معها .. لكنه كان رقيقا حنونا ، تفاهمنا حتى أردت أن أصارحه برغبتى فى استكمال دراستى .. لكنكم .. أنت وأخويك جئتم سراعا ، ثم اتفقنا على الاكتفاء .. وأعلنته بفكرتى ووافق .. وانتسبت لكلية الآداب ، ورغم مشاغلى ـ التى لم أفرط فيها يوما ـ سرت فى دراستى وتفوقت وتخرجت .. وعملت ، عارض أول الأمر « نحن فى غنى تمـاما عن أى مرتب تحصلين عليـــه » لكننى استطعت اقناعه .. الى أن كان يوم خرجت الشغالة ومعهـــا أخوك الأصغر ، ووقفت تمزح مع صبى الكواء غير ملقية بالا اليه فبدأيجتازالشارع..

وكان أن صدمته عربة مسرعة ، ولولا عناية الله لضاع أخوك فى لمحة عين ، وثار والدك ، وأقسم أيمانا مغلظة لأتركن العمل ،وحاولتاقناعه بأن ذلك كان يمكن ان يحدث حتى ولو لم أكن أعمل .. ان العمل هو أهم قيمة فى حياة المرأة لكنه صمم « كل قيمك تلك لن تعوضنى لو فقدت واحدا من أولادى » . واضطررت أن أقبع فى البيت لكنهاكانت صدمة قاسية لى .. صدمة حطمت معنوياتى ، أن انتقل من انسانة منتجة الى مستهلكة .. كنت متحمسة جدا لعمـــل المرأة .. أراه الوسيلة الوحيدة لتحقيق ذاتها .. الفرق الوحيد بينالانسانة وقطعة

الوبيليا .. احسست انني بلا عمل تافهة .. لا شيء .. وكأن حياتي قد انتهت .. لا اعيش .. او أعيش على هامش الحياة ..

حتى جاءت أكبر صدمة في حياتي .. صدمة وفاة أخي الوحيد في ريعان شبابه .. لم يكن لي من احد سواه .. كان اخي وأبي وعمي وخالي وكل شيء في الدنيا .. وكان صديقي .. ميولنا واحدة وهواياتنا مشتركة .. احببنا القراءة معا .. بدأنا بأرسين لوبين وانتهينـــا بالمنفلوطي .. كانت أسعد وأمتع اوقاتي أقضيها معه .. نتناقش فيما قرأنا ، باقي اترابنا كل مناقشاتهم كانت عن النجوم أو أحدث الأزياء أو السياسة .. أحاديثهم كانت تضجرني ، هو أيضا لم يكن يرتاح لأحد سواي .. قبل زواجه وزواجي لم يكن يسمح لاحد غيري بترتيب كتبه وأوراقه وبحوثه وأجهزته حتى سماني الجميع في المنزل مازحين « السكرتيرة » ، مرض أياما قليلة دعونا فيها بكل خفقات قلوبنا وبعدد تردد انفاسنا ، قال الأطباء ان الحالة دقيقة ووجفت قلوبنا .. هل يحتمل أن .. لا .. لن تفعلها يارب .. اننا جميعا ـ والدته وزوجته وأولاده وشقيقاته ـ لا نستطيع أن نعيش بدونه .. لا نستطيع .. رب لا تحملنا ما لا طاقة لنا به .. لكن الحكم كان قد صدر .. حكم لا استئناف فيه ولا استشكال .. ولا نقض ولا ابرام .. حكم مشمول بالنفاذ .. وأسلم أخي الروح .. فـدته روحي .. غربت الشمس الساطعة .. أصبحت الحيـــاة بعده باردة مظلمة .. كئيبة خاوية ، وانهرت تماما .. شهور طويلة قضيتها بعد رحيله في ذهول .. أمارس عملية رفض .. لا أستطيع ـ ولا أريد ـ أن أصدق أنه الفراق حتى الأبد .. وأحاول أن أقنع نفسي بامكان حدوث ماحدث فأظل أروي لها ـ طوال اليوم كالاسطوانة المشروخة ـ قصة مرضه من أولهـــا والاطباء حائرون كل منهم يرى تشخيصا يختلف عن الآخر وان اتفقوا جميعا في الاطراق والوجوم .. الحالة تسوء كل يوم أكثر .. أجروا الجراحة يائسين مؤملين في نسبة بالغة الضآلة من النجاح .. لم توفق كل تلك الجهود وقضى أخي .. مات .. أغمض عينيه الى الأبد .. سكنت حركته تماما .. لفوه في الاكفان .. لفا محكما .. وضعوه في القبر .. أغلقوا بينه وبين العـــالم بأسره سدا أبديا .. وضعوه جثة هامدة .. جثة .. جثة وأظل اخبط رأسي بقبضة يدي وكأنني أدخل فيها هذه الحقيقة بالقوة ، لكن عقلي يعيد قذفها ثانية بعيدا .. كالكرة .. يلفظها .. يتغافل عنها تماما .. حتى يعيدني للفاجعة شيء .. أي شيء ـ وما أكثر ما يفعل عشرات المرات كل يوم ـ فأشهق وأروع

كأنني أسمع الخبر لاول مرة .. أضع راحتي على فمي لامنع صرخة ، ويد باردة غليظة تعتصر قلبي ، وسؤال واحد يدوي في رأسي .. أحقا أصبح أخي أسطورة تروى بعد أن كان ملء السمع والبصر .. بل ملء الدنيا ، أحقا لن أرى وجهه الحبيب أبدا ؟ .. أحقا لن نسمع صوته ؟.. ما كان أعذبه وهو يهتف بنا مرحبا من قلبه « أهلا .. أهلا » ألن نسمع هذا الصوت ثانية وحتى آخر العمر .. مهما طال ذلك العمر ؟ .. اذن ماذا يكون شكل الدنيا .. مختلفة تماما .. كل شيء فيها قد تغير .. حتى رنين جرس بابي .. فقد معناه .. لن تسعدني زيارة أي قادم ، وبالتالي لم يعد صوت الجرس يثير في اللهفة والترقب .. لم يكن يزورني كل يوم ، لكن كان هناك دائما الأمل .. حتى الامل فقدته .. أصبح كل الطارقين لبابي سواء ، ابتداء من باقي الاقارب حتى بائعي الخبز واللبن .. أصبح كل الناس سواء بعد ان خلت الدنيا منه .. من أعز الناس ، دوران عقارب الساعة أيضا فقد معناه ... الدنيا كلها في نظري قد توقفت في ذات اللحظة التي توقف فيها قلبه عن الخفقان .. صدمة رحيله سحقتني .. شعرت معها ان حياتي قد انتهت .. انتهت تماما ..

ولكن .. ولكنني مازلت أعيش . أنت مثلا وانت ترينني دواما قوية متماسكة ، هـــل تصورت يوما أنني تعرضت لكل هذا العـــدد من الصدمات ؟ .. الزمن يتكفل بكل شيء .. بمروره لا تصبح الصدمات سوى حوادث عادية .. بعضها أضحك كثيرا عندما أذكره .. كقصة حبي الأول .. كلما تذكرت عذابي من أجله .. هذا الذي لم أعد أذكر من قسماته سوى ابتسامته الساذجة لا يسعني الا أن أضحك وأضحك .. كما حدث اليوم .. أيضا حرماني من التعليم .. استطعت بعد ذلك تعويض ما فاتني .. كذلك ترك العمل .. أعطاني فسحة لمزيد من العناية بكم وبأبيكم حتى نجح كل ذلك النجاح وتفوقتم كل ذلك التفوق ، كما أعطاني الفرصة لمزيد من القراءة والثقافة .. وعندما انضممت للتنظيم النسائي أصبح لي شأن كبير كما ترين ، ولا شك أنني في موقعي هذا أفيد بلدي بأكثر مما كنت سأفعل في وظيفة روتينية عادية ، لقد قرأت يوما حكمة أعجبتني حتى انها ظلت منقوشة على صفحة ذاكرتي طويلا « اذا تحطم قلبك فالله يصلحه لك .. فقط أعطه الحطام » ولذلك فانني حتى بشأن وفاة أخي أكرر لنفسي دائما ما ردده لي الأصدقاء كثيرا « ان العالم الفذ الذي أسمع اسم مصر لدول العالم أجمع ببحوثه التي نشرتها مجلات هذه الدول العلمية ، والتي حصل

بها على اعلى الشهادات والجوائز لا يمكن أن ينتهى .. اخوك لم يمت هو حى بمؤلفاته ومراجعه وبحوثه .. حى بتلاميذه الذين يذكرون دائما افضاله وهم يكملون ما بدأ .. وانظرى ما ظلت تكتبه هذه المجلات وهؤلاء الزملاء فى رثائه يؤكد لك هذه الحقيقة » .. محاولة بهـذا التكرار أن ادخل الى نفسى بعض العزاء .. هذا على الرغم من يقينى أن هذه الصدمة كانت الوحيدة التى لم تفقد اسمها ولا وزنها بمرور السنين والأيام .. ما زلت حتى اليوم كلما رأيت صورته بالصالون همست له .. « كم أوحشتنا .. ان القلب ليتمزق وان العين لتدمع، واننا والله لفراقك لمحزونون » كان يحتل فى حياته جزءا كبيرا من قلبى .. اتقدت فيه بوفاته جمرة نار .. حاولت يد الزمن مداواة آثارها .. لم تشفنى .. لـكنها غطت الجمرة بطبقة من الرماد .. طـويت هذا الجزء على جمرته وعشت .. بما تبقى من قلبى .. أؤدى كل دورى ..

وهذا ما أردت لك أن تخرجى به من رحلتك معى فى احداث حياتى .. الحياة تستمر .. دائما ولا يمكن لأى شىء أو أى انسان مهما كان أن يوقف حركتها أو يحول دون استمرارها .

صرخة في الطابور



صرخة في الطابور

تماما مثل كل مرة وقفت فيها فى طابور الجمعية الاستهلاكية .. بدأت سحب السخط تنتشر لتظلل كل خلية من خلايا تفكيرها ومشاعرها ، نعم .. لماذا لابد لكى تحصل على احتياجات أسرتها الضرورية ان تقف فى هذا الطابور .. الرهيب ؟ .. من من معارفها وصديقاتها تقف هذه الوقفة .. المزرية .. ؟ سعاد خليل .. ؟ غير معقول .. تماضر سعد ؟ .. السؤال فى حد ذاته يعتبر اهانة .. وسونة ومها ومحاسن وغيرهن .. ولا واحدة .. على الاطلاق ،بعضهن لا يتعاملن مع الجمعيات اطلاقا..وربما لايعلمن بوجودها..ان دخلهن يسمح بالتعامل مع السوق الحرة ..أو محلات القطاع الخاص والمتروك لأصحابها أن يبيعوا بالأسعار التى يرونها ، والباقيات يشترين من المجمعات .. لكنهن يرسلن شغالاتهن ليقفن فى الطابور .. وهى .. تعمل كل شىء فى منزلها بيديها .. سريعا .. كى تلحق مكانا متقدما فى طوابير الجمعية .. التى أصبحت قدرها ، لا تستطيع شراء الدجاجة الواحدة أو كيلو اللحم الواحد بجنيه ونصف الجنيه .. لو فعلت لما استطاعت أن تدخلها المنزل أكثر من مرة فى الاسبوع .. أما الشغالات فقد قاطعتهن .. من زمن بعيد .. المنزل والاولاد أحوج للمبلغ الكبير الذى تتقاضاه الواحدة منهن هذه الايام .. غير ما تتكلفه وماتفسده أو تبدده .. الاسعار فى ارتفاع كل يوم والمرتب يزيد بالقطارة ..

لكن لماذا هى .. بالذات .. فقط ؟ .. بعض صديقاتها لا تزيد مرتبات أزواجهن على مرتب زوجها ، لكنهن يعشن فى بحبوبة .. كلما قالت لزوجها ذلك هز رأسه « يمارسون أعمالا أخرى الى جانب عملهم الرسمى .. موضة العصر ! » يتهكم ؟ .. لماذا .. هى سمة العصر حقا .. معذورون .. الحياة صعبة .. أعرف انك لا تستطيع نفس الشىء .. شركتك تعمل صباحا ومساء .. رد بحدة :

– ليس ضيق الوقت بالمانع الوحيد .. بدليل أن بعض من تعنينهم يعمل أيضا على فترتين .. رغم ذلك يدبرون أمورهم

ولـكن .. تعلمين ان أغلب هـذه الاعمال الاضافية غير مشروعة.. أو على الاقل غير مسموح بها .. ؟

فى البـداية كانت تقفل الموضوع فورا عنـدما يصل الى هـذه النقطة الشائـكة .. وشيئا فشيئا .. مع ازدياد الامور تأزما .. مع اطراد ارتفـاع الاسـعار .. مع اتسـاع رقعة السـوق السوداء بأرض تكسبها كل يوم من زميلتها المغلوبة على أمرها «السوق الرسمية» مع كل هـذه المتغيرات ، لم تعـد تلك الكلمات ترعبها . بدأت تهز كتفيها وتغمغم بكلمات غير مفهومة ثم بعد ذلك أصبحت الـكلمات مفهومة .. « يدبرون أمورهم على أى حال.. لا أعرف بالضبط ماذا تستطيع ان تفعل .. انت الرجل وعليـك مسئولية البيت كما شرع الله .. لم يعد مرتبك بقادر على تغطيـة حتى المطالب الضرورية جدا ، ومن واجبك .. وحقك معا .. أن تتصرف .. لا أعرف كيف ، ولـكن تصرف .. ! » هو أيضـا بدأ يتزحزح .. فى أول عهده ببعض كلماتها كان ينظر اليها بحدة واستنكار .. شيئا فشيئا بدأ استنكاره يتقلص .. تلاشى تمـاما بدأ يؤيدها :

ـ فعلا والله .. معك حق . فى بلدنا هذه لا احـد يحس بأحـد .. لا أحد يفرق بين نظيف اليد وواسـع الذمة .. ربما الثانى ينظر اليه بارتياح أكبر .. يستطيع أن يقدم من الهدايا ما يطلق ألسنة رؤسائه بالثناء .. لا أحد يستطيع اصلاح الكون بمفرده .. صدقوا حين قالوا .. اذا كنت فى روما فافعل كما يفعل الرومان.. لا .. للحق لم يصب الوباء الامة كلها .. فقط حفنة من المنحرفين لـكن قصـور يد القـانون عنهم تترك فى نفوس الشرفاء مرارة .. والله لولا بقية من خشية الله ..

ويسكت ولا يكمل .. وتشعر بالقلق .. هل يمد يده لمـا فى عهدته ؟ .. لم تقصـد الى ذلك قطعا .. هناك طرق أخرى أقـل خطرا وابعد عن المساءلة .. لكن عمله لا يمر بتلك الطرق .. لا مجال للتلاعب أو السمسرة أو الاكراميات أو العمولات وكافة أمور الشطارة والتهليب والفهلوة .. لا شـأن له بالتصـدير أوالاستيراد وما فى حكمهما ، فى موقعه اما نزاهة وفقـر كاملان ، واما جريمة سافرة الوجه دون أى قنـاع أو تسـمية مخففة من تلك التى اصبحوا خبراء فى ابتكارها واطلاقها .. دخول طفيلية .. أعمـال وساطة وسمسرة ..

مع ذلك فهناك الكثيرون ــ قاموا بتلك المغامرات السافرة ولم يكتشف أمرهم أحد ، بالتخطيط السليم والتفكير المنظم الشامل .. يمكن تغطية الامر ، مثل غيرهم . ويستطيعون أن يستمتعوا و .. يعيشوا .. وهل هذه التى يعانونها يمكن أن يطلق عليها معيشة ؟.. لكن قلبها عاد يتوجس .. هو أيضا ما زال يدور داخل دوامة الصراع .. كثمرة تهتز فى مهب الريح .. لكنها يوما ستسقط .. هل تتمنى تأخير هذا اليوم أو تبكيره لا تدرى بالضبط !.. غير انها كانت تحدث نفسها .. فى كل لحظة ــ فى محاولة لاسكات صوت صفير داخلها وابعاد الوجيف عن قلبها ــ « لم أطلب أنا منه ذلك أبدا .. ! »

فى ذلك اليوم بلغ العناء والعذاب فى الطابور أشده .. لم يعد الامر مجرد وقت يضيع وتعب فى الوقوف .. بعض النسوة يتشاجرن .. لماذا ؟ ! يحدث ذلك دائما فى كل طابور .. نفس التساؤل .. لو ان كل واحدة احترمت دورها لما شجر اى خلاف وانتهى التوزيع أسرع .. ولكن مشاجرة اليوم كانت أوسع دائرة وأعلى اصواتا .. بدأت الايدى تشارك الافواه الحديث .. وعمال المجمع يسبون الجميع .. ومراحل السخط داخل نفسها تزداد غليانا .. يجب أن تضع حدا لذلك .. يجب .. لم تعد تستطيع التحمل أكثر من ذلك .. هل وصل الامر الى السباب ؟ وممن ؟ من هؤلاء ؟ يجب أن يتصرف .. لا توعز له بالاختلاس بالتحديد .. لكن ليدبر أى طريق .. فى وسعه ، لم تتردد فى طرح فكرة نزولها للعمل رغم مرض طفلها الاوسط .. ذلك المرض الذى ولد به والذى يحتاج لعناية مضاعفة .. لكنه رفض ، خشية منه على الصغير .. واذن فليتصرف بأى شكل . ستقولها له بصراحة : اما أن ينهى تردده ويحزم امره ويتحرك .. واما فليصوموا صيام الدهر .. ليربط هو وأولاده الاحزمة على بطونهم .. أما هى فلن تقف فى هذه الطوابير الملعونة بعد ذلك ، بل انها فكرت فى الانسحاب من الطابور لتوها لكنها عادت واستخسرت الوقت الطويل الذى أضاعته فيه .. سيما وان دورها اقترب .. ستكمله اذن رغم الضغط الهائل على أعصابها ، فليزد التعب والارهاق .. فلتزد المهانة والاذلال .. فلتزد جميع الضغوط حتى تخرج كل ذلك فى حديثها مع زوجها الليلة . واستمر الزحف .. بطيئا مؤلما .. حتى وصلت الشباك .. وما كانت تظن أنها ستصل أبدا . وأخيرا أمسكت الدجاجة

بيدها وهى ممرورة .. هل لابد لكى تطعم زوجهـا وأولادها دجاجا أن تعانى كل ذلك العناء ؟ !

لم تـكد تبتعد خطوتين حتى سمعت صراخا وعويلا .. حاولت أن تحث قدميها لتبتعد عن ذلك الجحيم ، لـكن شيئا فى صـوت الباكية حول خطواتها اليها .. تبكى بحرقة .. وعمـال المجمـع يدفعونها بعيدا وهى متشبثة بموقفها :

ـ غير ممكن .. لابد أن أحصل على دجاجة .. أنتم لا تعلمون .. نعم لا تعلمون شيئا .. أنا أحق من هؤلاء السيدات .. أغلبهن دلالات وأنتم تعرفون ذلك .. تقاسمونهن أرباحهن .

لـكنها بعد هذا الهجوم تعود للتوسل :

ـ اعمل معروفا . لابد أن هنـــاك كمية متبقية .. اريد دجاجة واحدة .. حاجتى اليهــــا شديدة .. لا أوقعك الله فى ضيق أبدا .. انظر بطاقتى .. لم احصل من قبل على دجاج قط لم أكن أهتم .. اليوم الامر مختلف .. أقبل يديك .. !

ويزداد ضيق المدير بها ليصرخ فى عماله :

ـ القوها بعيدا عنى .. هذه المعتوهة ، ولو اضطررتم لحملها .

وقد كان .. لم يفلحوا فى دفعها فحملوها حمـلا حتى خارج المجمع .. ثم القوها بجوار الحائط ، أثار المنظـر استياءها كادت تصرخ فى العمال لـكنها خشيت أن يصيبوها بكلمة .. الغريب أن يشهد الـكثيرون ذلك المنظر ولا يحركون ساكنا .. أو ربما رأوا أنها هى المخطئة .. نعم .. لم يكن لهـا وقد أعلن نفاد الـكمية أن تلح هكذا .. صبر عليها المدير كثيرا .. حدثها أول الامر بهدوء حتى أقسم لها أنه لا توجد لديه ولا دجاجة واحدة .. رغم قسمه ما زالت تلح .. زجرها .. دفعها .. نعم ضايقته جدا .. لذلك لم يحاول أحد الحاضرين الدفاع عنها أو مراجعة المدير وعمـاله فيما يفعلون .. الجميع حكم بخطئها .. هى التى جلبت على نفسها كل ذلك .. تستحقه .. « نوال » أيضا فـكرت فى ذلك .. وهى تهم بالابتعاد ، لـكن شيئا فى صراخ السيدةوبكائها هز قلبها .. لا .. ليس الحاحا ولا مناكفة ولا « تلقيح جتت » .. شىء غير ذلك كله .. اقتربت منها .. ربتت على كتفها :

ـ لا تستحق الدجاجة كل ذلك .. فى المرة القادمة احضرى مبكرة وسوف تحصلين على نصيبك .

لكنها تستمر فى البكاء بوهن :

ـ انت لا تعلمين .. هم ايضا لا يعلمون .. لا احد يعلم على الاطلاق .. كنت أود أن أطعمه اليوم دجاجا .. بعد غيبة أعوام .. هل ذاق الدجاج طوال هذه الاعوام .. لا اظن .. هم هناك لا يقدمون سوى العدس.. أعلم ذلك وكنت أود أن أحتفى به اليوم .. يوم خروجه .

ـ زوجك .. ؟

ـ نعم

ـ كان مسجونا .. ؟

ـ نعم .. أحمل معه جزءا كبيرا من المسئولية .. كنت دائما ضجرة غير راضية بمرتبه الصغير حتى دفعته للاختلاس .. نعم كان لى دور وراء فعلته وهو الذى دفع الثمن وحده .. لا ، بل دفعته معه .. الحياة القاسية ومسئولية البيت والاولاد دون أى سند او معين بدخل أقل من نصف السابق .. دون ـ وهذا هو الاهم ـ دون وجوده الذى كان يظلل علينا ليحمينا من هجير الحياة .. احس دائما الشعور بالذنب .. أردت اليوم أن أظهر له مشاعرى .. معزته عندى .. افتقادى له .. فرحتى بعودته .. ندمى على تصرفاتى السابقة . لا أجيد الكلمات وأراها غير قادرة على التعبير عن كل ما أكنه .. أردت أن أقيم له وليمة .. لا أستطيع الشراء من التجار .. وحتى الخمسون قرشا هذه لا يعلم الا الله كيف دبرتها ..

بدون أى تردد وجدت « نوال » نفسها تفتح حقيبتها وتخرج الدجاجة !

ـ أقيمى الوليمة ..

وتستدير . فتهتف المراة المسكينة : انتظرى .. لم تأخذى الثمن

وتغمغم : بل اخذت اكثر من الثمن

فى المساء كانت ترتدى اجمل أثوابها وتتزين كما لم تتزين من قبل .. اكثرمن كل زينة .. كانت ابتسامة السعادة تتلألأ على وجهها حتى هتف زوجها :

ـ ما كل هذا الجمال ؟

ضحكت : هناك ما هو اجمل

وجذبته للمائدة ..

فول وبيض وجبن .. فقط..ولكنها قدمت كل ذلك مع السلطات بذوق بديع تفننت فى تجميله أيما تفنن

قال بدهشة :

ـ الم تذهبى اليوم الى الجمعية

ـ ذهبت .. لكنى عدت دون دجاج .. !

قال بتبرم : اوه .. هذا شىء لم يعد يطاق .. تتعبين كثيرا .. لماذا تتعبين كل هذا التعب ؟ ..

لدهشته لم تواجهه بتبرمها وثورتها السابقين ، بل انهـا قبلته وهى تهتف :

ـ تعبك راحة .. انت تتعب فى عملك .. ما الضرر أن أتعب واشقى أنا أيضا فى مقابل كل هذه النعم السابقة علينا !

نظر الى طبق الفول وغمغم بدهشة :

ـ واين هى هذه النعم ؟ ..

همست وهى تطوقه :

ـ كثيرة .. كثيرة جدا .. لا تنظر فوق المائدة ولـكن حولها.. ان اجتماعنا ـ أنت والأولاد وأنا ـ حول مائدة العشاء كل ليلة أكبر نعمة .. ادامها الله علينا .

وغيرت الأجراس رنينها



وغيرت الأجراس رنينها

يوم لا ينسى ...

دقات أجراس الدلال .. ركلات وصفعات على الوجه .. دموع غزيرة .. أعقاب سجائر كثيرة ، أصــوات ومناظر متداخلة ظلت زمنــا طويلا تدق فى أذنيه وتتراءى فى خيــــاله .. يوم لا ينسى بالنسبة للجميع . بدأ بدقات الأجراس .. دقات جميلة أطــربت ممدوح .. ابن السادسة .. الذى لم يعرف .. حتى هذا اليوم أن هنـــاك ما يمكن أن يثير اشـــجان أبيه أو أمه أو أى فرد فى السراى الواسعة .

انطلق يصفق ويرقص ويجرى فى كل مكان مهللا مع الدقات .. رأى أخاه الاكبر مختـــار أمامه .. لم تكن هـــذه الرؤية لتغير من تصرفه شيئا .. ظل يجرى ويصفق .. فجأة .. أحس بيــد قوية تمسك بياقته من الخلف .. استدار ليجد اليد الثانية تصفع خده بقسوة .. قبل أن يفيق تــكررت الصــفعات والركلات .. « لمــاذا يا مختار ؟ ماذا فعلت ؟.. لم أكسر شــيئا ولم أقطع الاوراق على السجاجيد .. » بعد لأى استطاع أن يفلت منه ويجرى الى أمه شاكيا .. ازدادت دهشته .. ماذا جرى لأهــل البيت اليوم ؟ انها تجلس على فوتى صغير وتبكى بحرقة .. ! لم يرها من قبل تبكى أبدا .. كانت ضحكاتها تسمع من الحديقة .. لا يــكاد يذكر أنه رآها تلبس فستانا واحدا مرتين .. !

وقف على باب الغرفة مبهورا .. أغلق عليه فلم يستطع أن ينبس .. أخيرا خطر له ان أحدا لن يحل هــذه الطلاسم سوى أبيه .. الرجل القوى المهاب .. لا يجرؤ أحد على رفع صوته طالمــا هو فى المنزل .. أسرع الى غرفته .. كان موجودا وغير موجود .. يمسك فى يده سيجارة يتصــاعد دخانها ليملأ جو الغرفة .. وأمامه فى المنفضة عشرات الاعقاب .. بدأ يشكو له مختــار .. لــكن الأب

لايرد .. بل لا يبـدو انه سمع .. يده على خده وعينـــاه مفتوحتان لـكنهما بغير حياة .. اذن فليلق بالقنبلة :
ــ والدتى تبكى فى حجرتها .. !

القنبلة اقتصر دويها على سمعه هو فقط .. لم يقـذف الأب سيجارته ليجرى كما توقع ممدوح .. بل لم يسأل حتى عن ملابسات ذلك الحدث ، وكأنه لم يسمع شيئا على الاطلاق .. ! هـل هو نائم يا ترى ؟.. لا مفر اذن من ذلك .. بدأ يهزه ويشـده من جاكتته « بابا .. بابا .. بابا .. » ولـكن ما من مجيب .. !

وتزيد دقات الاجراس .. ويقبـل أناس كثيرون .. هل يقيمون حفلة ؟ .. لـكن لا يوجـد بوفيه ولم تمد أى مائدة .. حتى هو نفسه نسيته دادته ونسيه الجميع ، لم يحضر له أحد ساندوتشا ولا كوبا من اللبن .. !

كان الارهاق من الجرى والضرب والجوع والتفكير أقوى من جهد الصبى الصـغير فتكور على نفسه فى احدى الحجرات الخالية ... البعيدة عن الضجة .. ونام

أيام كثيرة مرت على ذلك اليوم .. لـكن أحداثه ظلت محفورة فى ذاكرته وأصواته تدوى فى سمعه .. ألم يكن اليوم الفاصل بين أشياء وأشياء .. ألم يكن بداية لركلات وصفعات تكررت بعـده كثيرا من شقيقه مختار ؟ ألم يكن اليوم الذى أنعم عليه فيه بذلك اللقب العظيم حتى أنه لم يعد بعدها يناديه الا به : « وش الفقر ! »

ظل منـــذ ذلك اليوم وســـؤال واحد يلف ويدور ويطن داخل رأسه .. « لمـاذا يكرهنى مختار ؟ »

والدته كانت دائما تنفى أنها الكراهية وانما هى عدم التفاهم .. وكان أحيـانا يميل الى تصـــديقها .. فما أبعد أن يتفاهم ابن رجل بالغ الثراء يقطن قصرا فاخرا مملوءا بالرياش والتحف والخدم والحشم .. عدا المربية الاجنبيـــــة التى تصحبهم فى السفر الى سويسرا للتصييف كل عام .. ويأكل أطايب الطعام فى صحاف وبأدوات طليت بماء الذهب مع ابن رجل بسيط لا يملك من متـاع الدنيـــــا شيئا ، مع أن والدهما شخص واحد .. لـكنه فى بدايات حيــــاته كان الاول .. ثم انتهى بالاخير .. ! بيـــد أنه فى أحيان أخرى كان يحس بما هو أضخم من صعوبة التفاهم .. المقت بعينه .. لمـاذا .. لمـاذا .. ؟

وابدا لم يستطع أن يجد الجواب .. رغم ان اسئلة كثيرة تولت الايام والشهور الاجابة عنها .. « تركوا السراى الكبرى بعد ان بيعت فى المزاد العلنى وفاء لديون عديدة » .. « تراكمت هذه الديون وتعسر سدادها بعد خسارتهم الجسيمة فى البورصة » .. لم تكن المضاربة فى البورصة من أعمال الأب الاصلية .. قضى أغلب عمره فى تجارة الاخشاب وادوات المعمار حتى بدأ ابنه الاكبر يشاركه العمل وتوالت مشوراته الغبراء .. التى كانت آخرها المضاربة .. لم يكن الأب موافقا فى البداية :

ـ شىء لا نفهمه .. المضاربات غير مأمونة .. خاصة للبعيدين عنها ..

عارض كثيرا .. لكنه وافق اخيرا تحت الحاح مختار .. وحين انجلت المضاربة الاولى عن خسارة كبيرة .. ازداد تصميمه .. من أجل أن يعوضها .. وهكذا .. حتى كانت المضاربة .. أو الضربة الاخيرة .. التى ذهبت بكل شىء ولم تترك للأب سوى .. مجموعة من الديون .. لم يكف القصر الفاخر برياشه وأثاثه لتغطيتها .

زادت هذه الاجابات الاخيرة من طنين السؤال الاول فى نفس ممدوح .. اخذ يحدث نفسه :

ـ كان المفروض أن اكون أنا الذى يكرهه ويحقد عليه .

فعلا .. كان السبب فى حرمانه من أشياء كثيرة .. من سيارة فارهة تقله الى مدرسته بدلا من مشوار طويل يقطعه على قدميه كل يوم .. من اللعب الثمينة والهوايات المكلفة التى يحكى عنها أصحابه .. من الملابس الفاخرة .. حقا كانت ثيابه من قماش ثمين لكنها لم تصنع خصيصا له .. كانت فى أصلها ذات مقاس كبير .. ثم اختصرها مقص الترزى ..! وغيره وغيره .. لكن الذى حدث انه استغل الى حد كبير النصيحة التى توجهت بها زبيدة هانم الى زوجها بعد الكارثة بأيام قليلة :

ـ اسمع يا عبد المقصود .. مختار تعبان جدا واعصابه متوترة بماؤه الشعور بالذنب .. فبالله عليك لا تزده .. أرجوك ألا تطرق أمامه موضوع المضاربات .. وأنه كان سبب المصيبة .. ذلك يعذبه اكثر .. أخاف عليه ان انت فعلت أن .. ان .. يفكر فى الانتحار لا قدر الله ولا كان .

وافقها زوجها على عدم الخوض مع مختار فى هذا الحديث ..

لبس فقط لخشيته على ابنه ولكن لاقتناعه بعدم جدوى الحديث فى شىء وقع وكان .. أهم من ذلك .. كان يشـعر فى أعماقه أن على عاتقه يقع جزء كبير من المسئولية .. ربما اكثر من مختـار نفسه .. ربما كان عذر مختار طيش الشباب .. واندفاعه فمـا عذره هو ؟ صحيح الح مختار كثيرا .. كثيرا جدا .. لـكنه أبدا لم يكن يستطيع أن يفعلها لو ظل هو يرفض .. ليته فعل ولـكن. كما يقولون .. العائد فى الفائت نقص فى العقل .. وما حـدث كان أولا واخيرا .. ارادة الله التى لا راد لها .. لـكل هذه الاسباب لم يؤلم عبد المقصـود الصـوفانى ابنـه مختار أبدا بالحديث عما جرى وعن المسئول وراءه .. استغل مختار هـذا الصمت من الجميع وراح يمسحها فى اخيه الطفل :

ـ هو وش الفقر الذى جلب على الاسرة كل هذا .. ومن سواه؟ طول عمرنا نتقلب فى العز حتى جاء هو وشب قليلا وبدأ يجرى فى انحاء السراى ففارت من وجهه !

فى كل مناسبة كان يردد هـذه الـكلمة ولم يحاول أحـد أن يزجره أو يمنعه .. تجاهلا أم اهمالا ؟ ربما .. هدهدة لأعصـابه المرهقة ، وتركه ينفس عما بداخله ؟ .. ربما أيضا .. لكنه ساق فيها وزاد ايذاءه لممدوح .. أغلب المرات كان يتعلل فى ضربه بأنه لا يذاكر كما ينبغى .. كما ينبغى لوش فقر لا ينتظر تركة يتعيش منها وانما عليه أن يعتمد على نفسه .. !

وكان يمكن أن يقر فى نفس ممدوح ان هـذا صحيح ، وان مختار ـ بالتالى ـ يهتم به وقلبـه عليه ، وكما يقولون .. لـكل شيخ طريقة .. فلكل انسان أن يعبر عن اهتمامه وعنايته بالطريقـة التى تروقه .. أو يقتنع بها .. أو يحسنها ، لولا أنه فى أحيـان اخرى كان يضربه اذا عاد من الخارج متأخرا فوجده ساهرا يذاكر:

ـ الا تعرف ان سهرك هـذا يـكلفنا كثيرا ؟ تلعب طول النهـار ثم تسهر بالليل لندفع نحن مبلغا كبيرا للنور آخر الشهر ..!

وكأنه يدفع من جيبه .. أو كأنه يقضى الشهر بأكمله مرهقا فى العمل ليبدد ممدوح من كد عافيته .. !

ولـكن .. من كان باستطاعته أن يقول له ذلك ؟.. والاب غائب عن المنزل أغلب النهار ، والأم ترى فى مثل ذلك القول زيادة فى عقد مختار وآلامه التى تحاول على العكس تضميدها .. وممدوح ؟ ..

كان الكلام يصل حتى طرف لسانه .. لكنه يعود ويقفل فمه عليه خوفا من زيادة الايذاء ..!

عموما لم يكن وحده يفعل ذلك .. الكثيرون فى مصر أيامها كانوا مضطرين للسكوت على مضض وان كانوا من الداخل يغلون .. فقد بلغ الضغط والارهاب وكبت الحريات الى اقصى مدى.. ووصل الفساد والعفن فى جميع المصالح درجة التشبع .. وبلغ التفاوت بين الدخول حدا رهيبا .. فقر مدقع فى ناحية .. وغنى فاحش فى الاخرى .. العدالة الاجتماعية والحرية السياسية ونزاهة الحكم أصبحت كلها أساطير خرافية .. يد الملك وحاشيته تبطش بمن يجرؤ على كلمة حق .. والبوليس السياسى يتعقب الوطنيين .

ثم انبلج نور الفجر بقيام ثورة ٢٣ يوليو الجريئة .. التى جاءت فى وقتها تماما .. ولذلك استقبلها الشعب بفرحة عارمة .. أخذ الشباب يموج طربا ويعلن عن تأييده للحدث السعيد بالمظاهرات الفرحة الصاخبة .. التى عمت جميع أرجاء القطر .

كانت مصر تعيش فى تلك الفترة أياما من أحلى أيامها .. الشعب كله .. عدا قلة ضئيلة من المستغلين أغلقت عليها أبوابها .. حزنا ونفورا ..

المدهش .. الغريب .. العجيب .. ان مختار كان مع الشعب الفرح السعيد .. بل كان من أوائل السعداء .. وكذلك ممدوح وان كان كل يغنى على ليلاه .. لم يكن يهم مختار كثيرا أن تعود للشعب حقوقه أو يتحرر من الخوف والاستغلال .. وكان هو الى وقت قريب من أساطين المحتكرين المستغلين .. لكن كان لسعادته وحبوره سبب آخر أقرب الى طبيعته .

ان أحدا من قبل لم يستطع أن يجبر مختار على احناء رأسه .. حتى بعد النكبة .. لكن حماه لم يكتف بجعله يحنى رأسه .. بل مرغه بالرغام .. ! لم يعد بعد فقد ثروته مناسبا لمقامه العالى ولمصاهرته المشرفة .. واذن الا يبتهج لان الثورة ستأخذ أرضه لتوزعها على المعدمين ؟.. يبتهج تعبير غير كاف .. اجتاحته فرحة جنونية .. عنيف فى غضبه هادر فى فرحته .. « غدا تقترب رأسك من رأسى .. فى الارض يا عوض .. يا باشا .. سابقا ! » فى كل مكان يذهب اليه يتغنى بمبادىء الثورة « المباركة » معددا مزاياها ..

مطربا افضالها .. ممجدا خطـــاها .. شغلته فرحته واحاديثه واجتماعاته عن .. ممدوح ، لم يعد يبحث عن هفوة له حتى يضربه .. أو عن مناسبة كى يسخر منه ويحرجه لذلك كانت سـعادة ممدوح مع المحتفين بالثورة .. النشوانين بقراراتها وان لم يكن فى سن تسمح له بفهم كل ذلك ولـكن .. يكفيه أنها جعلت مختـار يتلهى عنه بفرائس أخرى .. !

أوراق الخريف

عندما حدثت تلك الـكارثة للأسرة حمدوا الله أن كانت احدى شقق المنزل — الذى بناه عبد المقصود بك لزوجته فى أرضها — خالية .. والا لباتوا فى الشارع ..! ذلك المنزل الذى أصبح ايجاره هو كل موردهم الذى يعيشون عليه ، وفى الشـقة المقـابلة كانت تسكن الست شفيقة .. وسرعان ما تآلفت الجارتان ونشأت بينهما صداقة عميقة .. طويلة عريضة .. لم تعودا تغلقان بابيهما وكأن الشقتين شقة واحدة والاسرتين أسرة كبيرة .. حتى أدوات المطابخ لم تعد تعرف الى أى الشقتين تنتسب .. !

الوحيد البعيـد عن هـذا « المولد » كان مختار .. بينه وبين نفسه كان يخطط لاجلاء الست شفيقة عن المنزل .. حتى يأخذ هو شـقتها .. فلم تكن شـقتهم تكفى للجميع .. الوالدين وممدوح وشقيقتهم علية وأولادها وهو وزوجته وابنته .. وكانت عليـة تقيم معهم حيث أن زوجهـا المهندس الزراعى يضطره عمله للطواف أغلب أيامه فى العزب والـكفور المحيطة بالسويس فلا يعود اليها الا كل خميس وجمعة ..

وحتى اذا استدرك زوجها أن هنـاك فارقا بين السراى الكبرى والشقة المحدودة .. وبين امكانيات الوالد سابقا ولاحقـا فأخـذ زوجته وأولاده واستقل بسكن خاص فـكل الذى سيتوفر غرفة واحدة .. هل يمكن أن تقبل زوجته الاقامة فى غرفة واحدة وهى بنت الاكابر وسليلة العز ؟ فيللتهم لم تـكن تقل كثيرا عن سراى عبد المقصـود بك .. ومن ليلة المزاد أخذت أثاثها وذهبت الى بيت أبيها ..

لذلك انحصر كل أمل مختار فى شـقة يخليها بالمنزل.. والافضل أن تكون شـقة الست شـفيقة حتى تكون قريبة من أسرته ..

كل الذى حيره هو .. هل يطلب منها ذلك وديا أو يلجأ للمحاكم ؟

ودخل المحاكم .. ليس ضـد الست شفيقة ولكن ضـد زوجته نفسها ..! فوجىء باعلان منهـا تطلب فيه الطلاق منه .. لمباذله .. كل ما ذكرته أو ذكره محاموها عنه من مباذل حدثت ايام اقامتها معهم فى السراى الـكبرى .. حيث لم يـكن يعود اليها كل لـيـلة الا قرب الفجر .. وكان المتوقع أن تقل هـذه المباذل كثيرا .. أو تنقطع كلية لضيق ذات يده .. لـكنها تجىء فى هـذا الوقت بالذات .. وقت استقامته الاضطرارية .. لتذكر تلك المبـــاذل وتطلب الطلاق بسببها .. وهى التى لم تضق بها أبدا وقت حدوثها .. ألم ترها وقتها ؟ غير معقول .. ربما كانت هناك عصـــابة أيامها غطت عينيها . عصابة من ذهب .. فلما ذهب الذهب ظهر العوار .. !

بدأت وفود الصلح تعلن توبة مختار واقلاعه عن كل ما يغضب بهيرة .. لكن بهيرة ، أو أهلها بمعنى أصح — فلم تقابل بهيرة احدا على الاطلاق — هم الين رسبوا فى ذلك .. تكلم الاب والأشقاء نيابة عنها فرفضوا كل الوساطات وكل الحلول .. ومنها أن يقيم مختار معهم فى فيللتهم ..

كان مختار يرفض هـذه الفكرة التى اقترحها أحد أصـدقائه بل يرفض حتى مجرد مناقشتها .. بعد القضية عرضها وعرض غيرها لـكنهم هم الذين رفضوا كل الحلول وأغلقوا كل الابواب !

وتركت القضيـــة تأخذ مجراها .. واستطاع محامو بهيرة أن يثبتوا مباذل مختار ومجونه .. ولم يكن ذلك بالعسير .. فمن أفخر كباريه الى أحقر حانة بالسويس عربد بها مختار وكانت له فيها قصص وروايات ، فصدر الحكم أخيرا بالطلاق وبضم الطفلة الى أمها مع نفقة كبيرة قررتها المحكمة للأم والطفلة ..

بعد أيام من الطلاق .. حضر اليهم شوقي .. تكاد الفرحة تقفز من عينيه .. الثورة أعطت والده خمســة أفدنة ضـمن قوانين الاصلاح الزراعى . فرح له عبد المقصود بك .. من قلبه .. فطيلة فترة اشتغاله عنده كاتبا بالشادر وهو مثال الامانة والتفانى .. رغم ذلك تردد كثيرا عندما دعاه ليحضر معـــه حفـل تسلم أوراق ملكية الأفـدنة الخمسة .. خشى أن يظن عوض باشـا والد بهيرة انه حضر خصيصا كى يشمت به .. حيث الارض الموزعة فى ذلك

اليوم كانت ضمن المئات التى انتزعت منه لتعود الى اصحابها الفلاحين الذين رووها بعرقهم ..

مع الحاج شوقى ذهب معه .. وكان يوما لا ينسى .. راى فيه المشاعر الصادقة تتفجر بالفرحة .. والأيدى المعروقة .. التى اخرجت الشهد من الارض السوداء تمسك بأوراق الملكية برعشة خفيفة وكأنها تمسك صكوك الحياة .. بينما تتعالى زغاريد النساء « يستحقون والله » .. قالها عبد المقصود بك فى نفسه .. أعطوا الارض عمرهم .. وهم بها أولى .

لكن يبدو أن مشوار عبد المقصود بك مع المحاكم الشرعية لم يكن قد انتهى .. عاد اليها مصاحبا ابنته فردوس .. مسكينة فردوس .. ربما كان مختار يستحق ما فعلته به أسرة زوجته.. فقد كان هو السبب فى كل ما حدث .. اما شقيقته فما ذنبها ؟ لم تكن هى التى ضاربت ولا حتى فكرت فى شىء من ذلك ، بل انها لم تكن موجودة ــ مجرد وجود ــ بالسويس وقت أن وقعت الواقعة ..

الناس معادن .. وقد كشف افلاس والدها عن معدن زوجها.. أرسلها لزيارة أسرتها وأرسل وراءها .. ورقة الطلاق .. ! لم تصدق الاسرة .. ففردوس لم تقل أبدا انها جاءت غاضبة .. كان الجميع يتكلمون وهى ذاهلة .. لا .. أبدا .. لم تأت غاضبة .. ولم تغضب منه قبل ذلك قط .. طيلة حياتها معه كانت مثال الزوجة المطيعة المخلصة .. وكان مثال الزوج المحب .

اكل ذلك كان لأجل هدايا والدها الثمينة ــ التى لم تكن تنقطع ــ وليس من أجلها هى ؟ .. لم يكن يبدو عليه ابدا انه من ذلك النوع الجحود .. والا لتحوط والدها حتى وهو يرسل اليها هديته الاخيرة .. السيارة .. ولكتبها باسمها هى .. وليس باسم الزوج ..

رفض عبد المقصود بك أن يرسل وسطاء ليعرفوا سبب غضب الزوج ولماذا ؟ والسبب واضح .. تماما ، لكن مهلا.. سنرى.

اندفع الى المحاكم وكل رغبته أن ينتقم .. لابنته التى لم ترتكب فى حق زوجها ــ أو فى حق أى انسان ــ خطأ يبرر هذا التصرف .

قال لها يوما وابنها على ركبتيه :

ــ لن تحملى الهم أبدا وأنا على وجه الدنيا .. انت ــ وابنك

من قبلك – فى عينى .. وتأكدى ان معزته عندى مثل معزة ممدوح .. وانت تعرفين مدى معزة ممدوح .

حمد عبد المقصود بك ربه عندما نقل المهندس شاكر زوج ابنته علية الى أسيوط .. ليس لكى تخلى مكانا لفردوس ولكن حتى لا تحس الاخيرة بحرج من تكدس الشقة الصغيرة بهم جميعا وبها وبابنها معهم .

« المصائب دائمـــا لا تأتى فرادى » كان عبد المقصود بك يواسى نفسه ولكن .. هل اكتفت الاقدار ؟.. هموم ثلاثة أصبح ينوء تحتها .. وهموم ثلاثة أخرى بات يخشى وقوعها .. بناته الثلاث الاخريات .. علية ومنيرة وزوبة .. ماذا تخبىء لهن الاقدار ؟.. ما هى معادن أزواجهن ؟

حمد الله عنـــدما وقعت الكارثة ، انها لم تحدث الا بعـد ان زوج بناته الاربع .. فى عزه .. وجهزهن بأغلى الرياش والاثاث..

قال فى نفسه وقتها « لم يبق سوى ممدوح .. اعاننى الله على تربيته » لكن ها هى ورقة ثانية تسقط فهل تتبعها أوراق أخرى؟ هل جاء الخريف ؟ .. وتزداد حلكة السماء حتى بات يعتقد أن البحر لن يعود له هدوءه وأن السفينة لن تعود تتهادى كما كانت فى الايام الخوالى .. أبدا .

بين الحين والحين تهب رياح طيبة .. كتلك التى أتت بشوقى يوما وهو يحمل للأسرة ما لذ وطاب .. أول بشائر الارض الجديدة .. أقسم ان تكون لسيده السابق .. أيامه لا تنسى .. لكن ما أدهش عبد المقصود بك هو قول شوقى وملء صوته الفخر :

– كل هـذا انتـاج يدى .

سأله ضاحكا غير مصدق :

– هل تشتغل بالفلاحة الآن يا شوقى ؟

– بدون شك .. ألا يبدو ذلك على وجهى الذى لوحته الشمس؟

– ولكن كيف تركت المدينة ؟.. لقد سمعت انك ظللت تشغل عملك عند الحاج رمضان الذى اشترى شادرى .. ألا تضايقك حياة الريف .. بعد أن تعودت على العز ؟..

رد بسرعة :

– بل العز هناك .. الفلاحة مهنة أجدادى .. كرهتها عنـدما كانوا يعملون أجراء .. الآن أعمل فى أرضى وخيرها كله لى .. وكلما أعطيتها .. أعطتنى .

فرحت الاسرة كثيرا بالهدية وفرح عبد المقصود بك بمهديها .. من القلب للقلب رسول .. كما أحبه الفتى أحبه هو .. على رقة حاله كان يعجب بأخلاقه وكم تمنى لو أن مختار كان على حيائه وادبه ، قال لشوقى وهو يودعه :

ـ لا تتصور كم تسرنى زيارتك .. وكم تسعدنى آيات السعادة المرسومة على وجهك كما لو كنت ابنى .

ـ وأنت ، ويعلم الله ، فى منزلة ابى ولك فى نفسى معزته .

ـ اننى لا أعجب أبدا ان تنجح زراعتكم وتعطى كل هذا المحصول .. فأنت بتفانيك فى اى عمل تقوم به لابد وأن توفق .. وانت والله تستحق كل خير .

قسوة وحنـــان

الـكل يعانى .. من اكبر كبير فى المنزل حتى أصغر صغير فيه.. بل وبالذات أصغر صـغير .. ممدوح .. ظن الجميع أن تحرش مختار به سيقتصر على الايام أو الشهور الاولى للنكبة .. ثم يمل .. ينصرف لشئونه .. يمتص تعود الحياة الجديدة سخطه .

لكن سنوات تمر وهو لا يزال ينـــاديه بذلك اللقب .. وش الفقر .. وممدوح ؟ بدأ سؤاله الملح يتوارى فى ركن من تفكيره .. بدأ ينسى همومه فى المذاكرة .. صبر على الايذاء وانصرف بكليته الى دروسه حتى جاء اليوم المشهود .. أول يوم يفرح فيه منـذ « يوم الاجراس » المشئوم .

عاد الى المنزل ويده فى جيبه .. مطبقة على كنزه .. لا لم تكن ماسة كتلك التى سمع أن والده أهداها الى والدته يوم انجبته له بعد شوق طويل .. فرح من قبل بذرية كثيرة .. لكن فرحتـــه بممدوح كان لها طعم آخر .. أنجب مختار بعـد زواجه بشهور ودلله هو وأمه تدليلا فاق كل حدود .. كل طلبـاته مجابة .. مهما كانت .. بمجرد طلبها .. وأحيانا قبل أن يفعل .. ثم جاءت بعده البنات .. أربع وكلما رزق بابنة ازداد دلال مختار وطغيانه واستهتاره بـكل شىء.. وكل شخص .. أليس الاول.. والاخير؟ وبدأ يسهر ويشرب ويلعب .. وأمه تدارى عليه .. لكن الاخبـار تتناثر .. حتى تصل الاب .. حاول اصلاح فساده .. جاءت محاولاته متأخرة .. ينكر بتبجح كل ما يواجهه به أبوه رغم فوح رائحته ..

بعد سنوات من العبث .. ضاعت هباء .. ترك مختار الدراسة وبدأ يساعد والده فى الشادر .. عمد للاتصال بالعملاء وعقد بعض الصفقات والاب يتغاضى .. فكل شيء سيكون له فى يوم من الايام والافضل أن يمارس العمل مبكرا حتى يألفه .. كل شيء اذا زاد على حده انقلب الى ضـــده .. طيبة الوالد وتسامحه زادا بعض الشيء .. فسرهما مختار بأنهما ضعف وازدادت بالتالى قوته هو ..

العضلية والعملية .. وكل يوم يحاول زحزحة والده درجة .. لم يعد مضطرا أن يدارى انحرافه .. أيضا لم يعد فى وسع الاب سوى أسـداء النصح .. حتى نصائحه الغاليات كان يقابلها بالضحكات الساخرة .. كف عنها .. بدأ الندم يأكل صدره .. انا الذىأفسدته بتدليلى وأجابة كل رغباته والتغاضى عن بعض هفواته .. آه لو عادت عقارب الساعة الى الوراء .. آه لو كان لى ابن آخر .. لأنشأته احسن تنشئة ، لجعلته شيئا آخر غير مختار ، شيئا آخر بالمرة ..

وجاء ممدوح .. لذلك كانت الفرحة العظيمة .. منحته الاقدار فرصة قلما تتيحها لاحد .. اعادة القيام بتجربة فشل عندما قام بها أول مرة .. نجح فى الملحق .. حقا لم يصبح ممدوح رجــلا بعد ولكن المقدمات تشى بالنتائج ..

هل السبب سياسة الاب الحكيمة هذه المرة ؟.. هل هى طبيعة ممدوح الخاصة .. ولد بها ؟ .. هل كان ضيق ذات اليد هو الذى منع أخوان السوء من الالتفاف حوله ؟ .. اذن فحتى الفقر يكون له مزايا .. أحيانا ..

المهم ان ممدوح شيء آخر غير مختار .. وها هو كنزه داخـل جيبه ويده مطبقة عليه .. شهادة اتمام الدراســة الابتدائية .. بتفوق .. الاول على منطقة القناة كلها .. !

وفضــل أن يذهب بها أولا الى مختار .. ليس الامر نوعا من التحدى .. موضوع مختلف .. أبوه وامه يحبانه ويقــدرانه ..

اما مختار .. ترى هل يبدى له اعجابه ؟ .. هل يهنئه ويقرظه ؟ هل سيكف بعدها عن مناداته بوش الفقر ؟ ..

كان فى منتهى السعادة ليس فقط لنجاحه ولـكن لان ذلك قطعا سيحمل مختار على البشاشة فى وجهه وربما .. تقبيله .. كان يريد ان يحدث ذلك ولو مرة واحدة وهو فى تمام يقظته ووعيه ..

المرات القليلة التى تبدى فيها شعوره الاخوى تجاهه لايعيها تماما .. مثل اليوم الذى فتح فيه عينيه ليجد نفسه على كتف .. مختار .. ! وادرك ان النوم لابد غلبه وهو يذاكر .. سيضربه.. قطعا .. ولكن .. ترى لماذا لم يفعل ذلك مكان ضبط الواقعة .. فى الصالة ؟ وعاد يغمض عينيه فاذا بمختار يخلع عنه سترته .. ثم يعود فيلبسه منامته .. وبعد أن غطاه جيدا بالبطاطين وقف بجواره لحظة طويلة .. لم يره فيها لكنه كان يحس بأصابعه تتخلل شعره .. ثم .. قبله قبل أن يطفىء النور !

فى الصباح خيل اليه أن الامر كله لا يعدو أن يكون حلما سعيدا .. لكنه وجد كتبه وأدواته لا تزال فوق مكتبه بالصالة .. وذهب الى مختار يحاول أن يجرى معه أى حديث ليشكره لكنه نهره قبل أن يبدأ .. !

وايضا حين أصيب بالتيفوئيد .. مرات كثيرة سمعه يؤنب شقيقته فردوس ووالدته نفسها لعدم دقتهما فى مواعيد أدويته .. اخيرا طلب من فردوس ان تذهب للنوم فى غرفته واحتل هو سريرها مع ممدوح .. لم يعد يسهر بالخارج .. سهراته كلها أصبحت بجوار سرير المريض .. تولى هو جميع أدويته وطعامه .. كان الالم والاسى يبدوان عليه اذا اشتد على شقيقه المرض .. ولا ينسى فرحته يوم زال عنه هذيان الحمى .. أهداه دراجة صغيرة كان يعتز بها جدا لانها الشىء الوحيد الذى بقى له من لعب ابنته أو أى شىء يخصها ..

كان هذا أحد الامور الغريبة أو المتناقضات فى حياة مختار.. اقسم الا يرى ابنته طالما هى مع أمها .. حتى تبلغ السن التى يحق له فيها ان يضمها اليه .. لكن لم يقدر له قط أن يفعل .. فقد ماتت وهى لا تزال طفلة صغيرة .. فى عمر الزهور .. طيلة السنين التى مرت عليها وهى فى حضانة والدتها لم يطلب رؤيتها مرة واحدة .. أو حتى حاولها ! مع ذلك رآه ممدوح يوما — وكانت سناء لا تزال على قيد الحياة — يحتضن دراجتها ودمعة على خده

.. دهش يومها .. أين كانت تلك الدراجة ؟ .. وطلب من مختار أن يعطيها له لدقائق لكنه نهره بشدة .. بل لم يسمح له حتى أن يلمسها .. بعد ذلك أودعها مكانا ظل خافيا على ممدوح رغم كل محاولاته للبحث عنها .

بعد شفائه من الحمى أعطاها له .. هدية خالصة .. كان يحمله من سريره ليضعه عليها دقائق .. ثم يعود فيحمله اليه بحرص شديد .. خوفا من النكسة .. !

كم كان ممدوح سعيدا أيامها ولكن .. هل حدث كل ذلك حقا أو هى تخيلات الحمى ألبستها والدته ثوب الحقيقة القشيب كحلقة فى سلسلة محاولاتها لاقناعه بحب مختار له ؟ ..

عقدت الدهشة لسان ممدوح عندما علم يوما — بعد شفائه — أن وفاة سناء كانت اثر اصابتها بالتيفوئيد وهو يتساءل عما يعنيه ذلك .. وعاد يتذكر بذهول صور حنانه عليه خلال اصابته بذلك المرض وان كانت صور الحنان تلك باهتة فى مخيلته بعكس صور قسوته — واحداها فى ذلك اليوم الذى سلمه فيه شهادته — كانت شديدة الوضوح .

ما كاد يطلع على الشهادة حتى ثار وكومها فى يده كأنه يسحقها .. ثم طوحها بطول ذراعه قاصدا قذفها من الشرفة وان وقعت على عتبتها .. أسرع ممدوح يلقى بنفسه عليها محاولا حمايتها بجسمه مما قد يفعله بها مختار .. ذهب الى أمه شاكيا :

— هل تسعون فى المائة .. تقدير سيىء ؟ ..

وحملت سؤاله وذهبت به الى مختار .. رددته له كرجع الصدى .. زعق :

— بل هو تفوق .. وكنت أحثه على المذاكرة طول العام كى ينجح فقط .. هل تعلمين ما يعنيه تفوقه ؟ .. يعنى أنه سيدرس بالمجان فى اعدادى وثانوى ويأخذ منحة شهرية حسب الوصية التى تركها عمران باشا صاحب المدارس .

شهقت الأم وقد أضاعت السعادة تقاطيعها الا أن مختار استطرد بهياج حاول به أن يمحو مشاعر الفرحة التى سطعت فى وجهها :

— ممدوح الصوفانى .. ابن عبد المقصود بك الصوفانى يأخذ منحة من أحد .. ؟ لم أخطىء أبدا حين نعته بوش الفقر .. طيلة دراستى لم أر تلميذا يتفوق سوى أولاد الصعاليك والاوباش .. سيجلب علينا هذا الولد العار يوما بعد يوم .. كان يصبح أكرم لنا وأشرف أن ينقطع عن الدراسة — اذا لم نكن قادرين على الصرف عليه — من أن يدرس بالمجان ويمد يده لهبات المحسنين !

هل كانت النعرة الكاذبة حقا سبب ثورته ؟ .. أو تلك الكراهية

التى حار ممدوح فى تعليلها ؟.. يوما كان داخلا غرفة والدته فسمع مختار يكمل حديثا لم يسمع بدايته :

ــ من هــذا ترين أن لا احد يشعر بى .. اننى اختنق فى هذا البيت الحقير .. كمثل حوت ضخم فى ترعة صغيرة .. !

طلب ممدوح من أمه أربعة قروش لشراء كشكول فأعطته خمسة .. ابتسم وشكرها ، وهو خارج أكمل مختار حديثه بصــوت لم يحاول قط أن يخفت منه :

ــ وش الفقر هذا .. الذى يفرح جدا بالشلن .. لا يزيد على سردينة ضئيلة ترى فى ذات الترعة الصغيرة بحرا عظيما ..!

وتمتم ممدوح فى سره :

ــ أرجو أن تــكون استعارتك التشبيه بالاسماك مقصورة على الاحجام دون الطباع .. حتى لا تفــكر فى التهامى .. !

هل لهذا كان يكرهه .. لانه يستطيع التلاؤم مع حياتهم الجديدة فيحس بالرضا بينما يعيش هو ممرورا بالحاضر .. محسورا على المــاضى ؟ أم انه كان مقتنعا حقا فى دخيلته انه منحوس دخل عليهم الدنيا والشؤم تحت ابطه ؟.. أم هى عملية اسقاط يريد بها أن يبعد عن نفسه مسئولية دفع الاسرة الى مهاوى الفقر والتعاسة.. أم هى طاقة من السخط تضغط عليه فلا يجد فيمن حــوله من بمقدوره أن يفرغها فيه غير ممدوح ؟.. ومن سواه ؟ الاب والام ؟ غير معقول .. فردوس كان يرعى خاطرها دائما ولا يجرؤ على تــكديرها حتى تتحفه بمبلغ من نفقتها بين حين وحين .. بل حتى الخادمة .. لم يكن يستطيع ايلامها والا لما ظلت فى منزلتهم ويكفيها انها تعمل بذلك الاجر الضئيل ..

بدأ ممدوح ينسى همومه الشخصية وسط هموم بلده .. أواخر عام ٥٦ .. كبر وأصبح يحس بما حوله .. ثلاث دول .. أو حتى لنقل دولتان ودويلة .. يعبئون كل قوتهم ضدنا ؟ يظنون مقدرات الشعوب فى أيديهم فيمنحون ويمنعون ؟ .. تبا لهم ولجيوشهم ..

بورســـعيد ــ جارتهم الحبيبـــــة ــ تستبسل فى الدفاع .. وجموع من شــــــباب السويس تنزح الى هناك للاشتراك فى المقـــاومة .. يهتف ممدوح من قلبه « الله معك يا بور سعيد » ، كم تمنى لو ذهب ليقوم بدور .. لــكنه موقن من رفض والده .. وحتى المقاومة الشعبية .. لن تقبل ابن الحادية عشرة .. هو معهم بقلبه .

رغم الدعوات والبطولات تسقط المدينة الباسلة .. الكثرة تغلب الشجاعة .. ثلاث دول .. ولاول مرة يرى دمعة تفلت من عين ابيه .. هـذه الدموع التى استعصت عليه « يوم الاجراس » الهائل .. عندما حدثت ضربة افلاسه .. تجرى اليوم .. الضربة موجهة للبلد كله .

حتى مختار .. كف عن الضحك والزعيق .. اصبح يدخـل ويخرج فى هدوء .. يفتح الراديو ســاعة نشرة الاخبـار .. ثم يقفله .. بدون تعليق .

لكن لا .. كما يلفظ الجسم أى عضو غريب ستلفظ بورسعيد الدخلاء وتظل شامخة .. هى التى نالت منكم ولم تنالوا منهـا شيئا .

وخرجوا مدحورين .. وانكبت بور سعيد تضمد جراحها الابية خلال الشهور التالية .. أما الحياة فى السويس فتعاود ســيرتها الاولى .. قليل من أهلها من أخذ من دروس ٥٦ العبر .. لم يكن منهم مختار .. عاود تسليته الوحيدة فى مناوشة ممدوح .. !

ظالم ومظلوم ...

ممدوح كان يقدر ظروف مختار وعقـده ونفسيته التى تغلى كالبركان .. لذا لم يكن يرد اساءاته بمثلها .. وهل كان يستطيع؟ المرة الوحيـدة التى آلمه فيهـا لم يـكن يقصد .. لم يظن أبدا أن فى ذلك الاقتراح كل هـذا القدر من الاهانة والتحقير اللذين تصورهما مختار .. أن يعمل .. منـذ فقـد الاب الشــــادر والسراى وممدوح يسائل نفسه « لمـاذا لا يعمل مختار ؟ » ولولا هـذه الرعشة الخفيفة فى يد الاب .. تلك التى لازمته منــــذ افلاســه لتوقع أن يعمـل الوالد أيضا .. اذن لنترك الوالد المريض جانبــا .. لـكن مختار .. قوته لا تقل عن ثور الوسية .. لـكنه لا يفعل شيئا .. ســـوى الاكل والشرب والنوم .. والشخط والنطر .. ثم الجلوس على المقهى للعب الطاولة .. حقا لم يحصل على شـــــــــــهادات .. لـكنه يستطيع أن يعمل أى شىء .. أى عمل .. ليس عيبا .. والعيب الاكبر هو تعطله .

طبعا هـذه كانت وجهـة نظر ممدوح .. أما مختار فلا أحـد يدرى ما بداخل هذه التركيبة العجيبة ، واذا كان احد من الكبار

لم يجرؤ على توجيه هذا السؤال له فهل يفعل ممدوح ؟ .. كان في غنى عن مزيد من الايذاء من مختار .. لكنه فعلها في ذلك اليوم . ولم يقترح هذا الاقتراح الا عندما وجد مستقبله مهددا بالضياع .. رغم دراسته بالمجان فقد كانت للمدرسة طلبات كثيرة .. بدأ الوالد يكل منها حتى صرح له ذات يوم بعجزه عن شراء الادوات التى طلبها حيث أن طلبات مختار المتعددة تستقطع جزءا كبيرا من ايراد الاسرة المحدود ، ولم يستطع كتمان احتجاجه .. مسألة مستقبل :

ـ هل طلبات مختار على المقهى مفضلة على مطالب دراستى ؟ لماذا لا يعمل هو حتى يتكفل بنفقاته ؟ ..

وكأنه صفعه على وجهه .. بل كأنه كفر ..! ثارت ثائرته بصورة جنونية :

ـ أعرف انك وش فقر لكنى لم اتصور ابدا أن تفكر في هذا. انا .. أنا مختار الصوفانى اعمل ..؟ هل تدرك ما تقول .. ؟ ماذا يقول عنى أصدقائى .. والبلد كلها تعرفنا تماما وتحترمنا رغم كل ما حدث ..؟ قسما بالله العظيم .. بعد تهجم هذا الولد .. وش الفقر على واهانته لى .. لن أعيش معه في منزل واحد .. أنا .. أو هو ..

وقال والده :

ـ بل هو .. ما زال في حاجة للرعاية .. انت كبير وتستطيع فعلا أن تعول نفسك ..

لم يكن الوالد يتصور أن مختار سوف يعول نفسه بهذه الطريقة.. بيع شبابه واسمه لامرأة سيئة السمعة .. هو يقول « كانت » ولا احد يستطيع أن يجزم اذا كانت حقا قد استقامت أم انه هو يمنحها هذا اللقب من عندياته .. من باب التفخيم .. !

كانت صدمة هذه الزيجة على والده شديدة جدا .. بدا واجما لا يجد لديه شهية للأكل ولا للكلام ، من جهة أخرى انزوى ممدوح بعيدا عن والده ووالدته .. وحتى عن فردوس .. هل كتب عليه أن يكون سبب كل مصيبة تحدث في هذا المنزل ؟ ..

في المرة الاولى لم يكن له أى دخل .. مع ذلك ظلمه مختار.. اما هذه المرة فهو السبب .. حقا كان السبب غير المباشر .. لكنه السبب والسلام .. يشبه حزن أمه وبكاؤها على ما أتاه

مختار حزنها « يوم أجراس المزاد » .. أما الاب فصدمته اكبر .. على ما يبدو .. !

ليته ما نطق هـذه الـكلمة .. أكانت كلمة أم قنبلة .. نسفت كل شيء .. لم يعد يقبل على كتبه ودراسته بنفس حماسه السابق .. دراسـته كانت السبب .. حتما كان الوالد سيتصرف .. بأى طريقة .. ليشترى الادوات والـكتب .. لم يكن ليخرجه من المدرسـة . والشيء الوحيـد الذى كان يدخل السرور الى قلبـه فى حيـاته الجديدة .. تفوق ابنه فى دراسته ، كان فى وسـعه أن يصبر حتى أول الشهر .. أو يستعير الكتب من المـكتبة والادوات من أحد أصدقائه .. كان وكان ... ليته ما كان .. ليته ما جاء الى هذه الدنيا ..

يبدو أن مختار كان محقا حين نعته بوش الفقر .. وش فقر حقا .. كلمة منه تهدم الاسرة .. ولـكن لا .. ظلمه مختار .. فهل يظلم نفسه أيضا ؟ ماذا كانت تعنى كلمتـه ؟.. وما العيب فيهـا .. مختار هو الذى أخطـأ وهو الذى تهور وتبجح .. ولم يبال ان كل ذلك كان امام والده .

لابد ان يقول لوالده ذلك .. ليس هو المسئول .. أبدا .. يريد أن يصرخ فيهم جميعـــا .. أبيه وأمه وشقيقته .. وباقى الشقيقات أيضا ..عندما يحضرن للزيارة .. « لست السبب .. لست السبب » لكن أحـــدا منهم لم يتهمه أبدا بتلك التهمة حتى يرد عليهم .. ليتهم يواجهوه بما فى انفسهم .. ليت أحدا منهم يوجه اليه الاتهام صراحة .. ولـكن .. متى وكيف ؟ يتحاشاهم دائما .. حتى على مائدة الفداء .. يعتذر باستمرار .. وفى كل مرة يختلق عذرا مختلفا .. عنده صداع .. ليس جائعا بعد .. عنده مذاكرة مهمة .. وغير ذلك من حجج وتعللات ، وبعـد أن يتغدوا جميعا .. يذهب هو .. أو ربما كان الاصح يتسلل .. ليأكل وحده .. !

حتى جاء يوم .. اعتذر كالعادة .. فوجىء بوالده يترك المائدة ويحضر اليه بنفسه .. على وجهه علامات الاستنكار .. حادث نفسـه :

ــ لماذا هذه النظرات ؟.. انت مصمم على اننى السبب ؟ ..

ظل الوالد صامتا يحدجه لدقائق ثم صاح أخيرا :

ــ وبعد .. يا ممدوح .. ؟
هتف ممدوح بتوسل :
ــ لم أرد ذلك أبدا يا أبى .. وحتى لم اتوقعه ..
ــ عم تتحدث ؟
كانت فرصة انتظرها طويلا .. أن يفتح الموضوع احد .. اى احد .. ايدافع عن نفسه .. فانطلق يتحدث بسرعة .. وحرارة :
ــ عن مختار ومغادرته المنزل يوم ...

وقاطعه الاب نافد الصبر :
ــ وما شأنك أنت بمختار ؟ ..
ــ الم اكن السبب فى خروجه من المنزل ..؟ لـكننى ..

ومرة ثانية يقاطعه الاب صارخا باستنكار أكبر :
ــ انت ؟ .. لم تكن السبب ابدا فى شيء .. انك تحمل نفسك فوق ما تحتمل ..
ــ فـكرت فى الذهاب اليه لاسترضيه وأعتذر اليه وأعود به .. ولمـا كنت لا أعرف أين يقيم فقد سألت الاستاذ صادق زوج أختى زوبة .. لـكنه أكد لى بدوره انه لا يعرف مكان اقامته .
ــ ولـكن كيف تفعل ذلك ..؟ أنا لا أحب لك أن تذهب أبدا الى هناك .
ــ أردت أن أرضيك ووالدتى بعد اذ تصورت انـكما ساخطين على فى قرارة نفسيكما لاننى باستفزازى اياه تسببت فى ضياعه .

ــ انت لم تضيع مختار .. هو الذى ضيع نفسه .. وانا لم أفقده الآن فقط .. لقد فقدته من زمان .. وخروجه من المنزل الى تلك المراة .. وضع للنقط فوق الحروف .. وهو أفضـل الجميع .. مع ذلك .. وحتى اهدىء خاطرك .. أخبرك اننىأرسلت اليه باستعدادى لقبوله فى المنزل اذا ترك تلك المراة والا فلن يدخل منزلى اطلاقا . حتى فى غيابى .. وانا وأمه .. بل والاسرة كلهـا بريئون منه .. فلم يرد على رسـلى سوى بضحكته الصاخبة .. تعال يا ممدوح .. أنت فقط الذى لا أريد أن أفقده ..

ولم يستطع ممدوح أن يحبس دموعه فتركها تسيل على صـدر والده الحنون ، عندما غادر غرفته عرف السبب فى قدوم والده وفى أمارات الاستنكار التى كانت تزحم تقاطيعه .. على المائدة وجـد شقيقته زوبة .. وزوجها الاستاذ صادق المحامى .. قطعـا أخبر

والده بسؤاله عن مكان مختار .. وحمد الله ان اخبره هو .. من تلقاء نفسه بكل شيء .

بعد نقل المهندس شاكر الى أسيوط لم يعد يقيم معهم فى السويس سوى زوبة .. حيث عزت بك ــ زوج منيرة كبرى الشقيقات ــ يقيم فى القاهرة بصورة دائمة بعد ان أصبح عضو مجلس ادارة الشركة .. وهو رجل ممتاز .. الجميع يتنبأون له بأنه سيضبح فى القريب رئيس مجلس الادارة .. ممتاز فى اخلاقه أيضا .. لم تتغير معاملته لزوجته ولا مشاعره تجاه أسرتها بعد أن فقد رب الاسرة كل شيء .

لا والحق ان الاستاذ صادق والمهندس شاكر لم يتغيرا أيضا الا ان عزت بك كان أفضلهم .. كأن معزة حماه وحماته زادت أضعافا .. أصبح دائم السؤال عنهم .. وكأن المسافة بين القاهرة والسويس فركة كعب .. أما ممدوح فكان حبه له حديث الكل .. يهتم بأخباره وامتحاناته ويشجعه ويستحثه .. كأنه ابنه البكرى .. هو الوحيد الذى كثيرا ما أوقف مختار عند حده اذا ما تهكم عليه .. لذلك كان ممدوح يفرح بقدومه اليهم كفرحته بليالى العيد .. قال ممدوح لزوبة على مائدة الغذاء :

ــ لم نعد نراكم كثيرا .. يخيل الى اننا نرى أبله منيرة وأونكل عزت أكثر منكم .. !

رد عنها الاستاذ صادق :

ــ كنت مشغولا فى انتخابات النقابة .

ــ واذن .. هل نقول مبروك ؟

ــ بالتأكيد .. وقد جئت اليك خصيصا كى تقولها لى .. عقبالك يا ممدوح .. هل تريد أن تكون محاميا ؟

ــ لولا تعلقى بالهندسة لفكرت أن أصبح محاميا .. مهنة رائعة الدفاع عن المظلومين .. انها تشعرك بالسعادة والرضا عن نفسك . المظلومون كثيرون .. فى هذا العالم أغلب الناس اما ظالم واما مظلوم .. ونادرا ما ترى شخصا لا هو من أولئك ولا هؤلاء .

وصاح الاستاذ صادق مدهوشا :

ــ الا ترى ان هذه الفلسفة كبيرة عليك يا ممدوح ؟ ..

ــ أولا يا أستاذ صادق هذه حقائق وليست فلسفة .. أما عن كونها كبيرة على فأعتقد اننى لم أعد صغيرا بعد .

امسك الوالد بأوراق ممدوح التى تعلنه فيها كلية الهندســة بقبوله طالبا بها وتنهد :

ـ الحمد لله الذى مد فى عمرى حتى رايت هذا اليوم .. بهذه الاوراق قدمت لى الاقدار اكبر ترضية عن كل اساءة أو غدر أو تنكر وجهته لى طول حياتى .. وهذه أعظم هدية قدمها الى انسان يا ممدوح .

ـ رويدك يا أبى .. كيف تـكون هـذه اكبر هـدية ؟.. انتظر لتقول ذلك على بكالوريوس الهندسة .

ابتسم الاب ابتسامة غامضة :

ـ كأن هذه تلك يا ممدوح .. ما دمت وضعت قدمك فستسير باذن الله .

وقبل ممدوح يد والده ووجنته :

ـ بفضل رضاك يا أبى .. سأصل الى ما اريد ..

فى اليوم التالى ذهب عبـد المقصود بك لزيارة ابنته زوبة .. وعاد فى المساء .. صعد حتى باب شقتهم بالدور الثالث ثم أخرج المفتاح .. وقبل أن يضعه فى الثقب أحس بهبوط مفاجىء .. ولم تعد ساقاه قادرتين على حمله .. جلس على السلم ونقر على الباب بالمفتاح .. فتحت فردوس مندهشة :

ـ اليس معك المفتاح يا أبى ؟.. ولـكن .. لماذا تجلس على الارض ؟ .. يا الهى .. ما بالك يا أبى ؟ الحقنى يا ممدوح .

تعاون ممدوح مع فردوس فى حمل الوالد الى سريره .. أسرعت فردوس الى المطبخ تعد كوبا من الشاى بالنعناع .. وأسرع ممدوح الى التليفون يستدعى طبيب الاسرة .. ثم عاد الى والده حيث كانت الام ترطب جبينه بالـكولونيا .. فأسرع يفك له الـكرافتة والحذاء والحزام وكافة الاربطة .. ارتاح الوالد قليلا .. امسك بيد ممدوح وقال له فى كلمات متقطعة :

ـ اشعر اننى أحسن كثيرا الآن .. الحمد لله .

التفت الى زوجته وابتسم ابتسامة واهنة :

ـ ما بالك يا زبيدة .. ليس هكذا .. شدى حيلك .

ثم عاد يكمل حديثه الى ابنه :
— كل الذى اريده منك يا ممدوح .. أن تكمل دراستك .. وتأتى لتزورنى .. هناك .. وتقدم لى .. هديتك .. التى وعدتنى بها .. بكالوريوس الهندسة .. لا اريد فطيرا .. ولا زهورا .. شهادتك فقط .. يا ممدوح .

كان هذا الاسم آخر ما نطق به .. وعندما جاءت فردوس تحمل كوب الشاى .. سمعت صرخة والدتها .. فوقع كوب الشاى على الارض .

الخيط الذى انقطع ...

لم تكد دموع فردوس على والدها تجف حتى عادت ، فقد كان فراق ابنها قاسيا على نفسها .. تركت الزوج والمنزل وكل شىء .. أصبح ابنها حياتها كلها لماذا يريده زوجها السابق ؟ وقد تزوج من أخرى وأنجب منها .. هى لم تتزوج ولعاطف وحده كل حبها وعنايتها .. وشغلها الشاغل .. « عندك ما يشغلك فاتركه لى .. وقد تضيق به زوجتك .. أما هنا فالجميع متعلقون به ». لكن الزوج السابق يرفض كل وساطة ورجاء وتوسل ودموع .. وكأنه لم يكفه ما سببه لها من جراح .. اندملت بفعل الزمن فعاد ينكؤها من جديد .. !

ورغم محاولات فردوس ومحاميها .. حكمت المحكمة للأب بضم ابنه .. بلغ سن الضم للأب .. ونصوص القانون صريحة .. حاول ممدوح كما حاولت أمه التخفيف عن فردوس التى أصبحت تحس وكأن الدنيا بأكملها باتت تناصبها العداء .. الا يكفى ما تركه أبوها فى المنزل ونفسها من فراغ رهيب حتى ينتزع منها فلذة كبدها ؟.. أية عدالة هذه ؟ وغدا يسافر ممدوح ليلتحق بكليته ويخلو المنزل على المرأتين تحتضن كل منهما أحزان الأخرى .

وجاء يوم السفر .. اليوم الذى تمنته وخشيته كل من الام والشقيقة .. عشية بدء الدراسة .. وكان وداعهما لممدوح حافلا بالمشاعر التى تفجرت من نفوس الجميع .. وهكذا خلا المنزل مرة واحدة من الرجال .. وكان هذا ايذانا بعودة مختار .. للتردد على المنزل .. قلب الام دائما يغفر .. كل شىء .

اقام ممدوح فى منزل شقيقته منيرة ملاقيا كل الترحيب منها ومن عزت بك .. واعتاد أن يسافر الى السويس كل خميس وجمعة .. احيانا وحده واحيانا اخرى مع منيرة وزوجها .. كذلك حرصت زوبة والاستاذ صادق على الذهاب دائما الى منزل الام كل ليلة جمعة .. وكان الجميع يستقبلون ممدوح كأنه ضيف عزيز غال .. الا مختار .. !

وجد سببا جديدا للاحتكاك به .. وتهمة جديدة يتهمه بها .. هو الذى تسبب فى خروجه من منزل أبيه .. ثم فى غضب ذلك الأب عليه وقسمه الا يدخل المنزل طيلة حياته وتبرؤ الاسرة منه .

ويوشك الرد أن يخرج من فم ممدوح ليصفع وجهه :

ـ أنا .. ؟ ! أم فعلتك الذميمة ؟ .. يبدو انك قد استمرات جعلى شماعة .. تعلق عليها اخطاءك .

يؤثر عدم اثارة المشاكل له ولوالدته فى ليلة اجازته .. يترك له الحجرة دون أن يرد عليه .. !

فى اجازة العيد حمل ممدوح معه كتبه حيث حددت الكلية لامتحانات الدور الاول الاسبوع الذى يلى الاجازة مباشرة .. جلس مع الاسرة قليلا ثم دخل حجرته ليذاكر .. وجاء مختار .. جلس قليلا هو الآخر .. ثم سأل عن ممدوح .. هل أوحشه شقيقه أم أوحشته المشاكسات ؟.. دخل اليه فى حجرته .. سلم عليه باشتياق ثم أبدى دهشته :

ـ تذاكر فى العيد ؟.. يا اخى متع نفسك ورفه عنها .. الى متى ستظل تذاكر ؟.. الا تحاول أبدا التخلى عن لقبك القديم..؟ الم تفكر مرة فى النظر الى فوق ؟ . .

ويجيبه باقتضاب :

ـ اننى دائما انظر الى فوق .. ولذلك اذاكر لاصل الى حيث أنظر ..

ويقهقه عاليا :

ـ الذى هو فوق فى نظرك وظيفة حكومية ببضعة جنيهات كنت ادفعها لماسح حذائى .. !

ويخرج من الغرفة وضحكاته تسبقه .. وممدوح ينظر فى أثره بدهشة .. ونفسه تضطرم :

ـ لم يعد يضربنى .. اصبحت رجلا تناهز أكتافى أكتافه ..

لكن لذعات تهكمه لاتقل ايلاما عن لذعات خيزرانته .. !

يهز كتفيه ويعو الى مكتبه .. نصب عينيه هدف اكد عزمه عليه ووعد والده به فى لحظاته الاخيرة .

وتمر الايام والسنون.. ومع مرورها تقرب ممدوح كل يوم خطوة من هدفه المنشود ، لم يكن ممدوح وحده الذى رسم لحياته هدفا آلى على نفسه أن يحققه .. زبيـدة هانم أيضا كان يراودها أمل عزيز .. الحج الى بيت الله الحرام .. سنين طوال وهى تنتظر تحقيقه .. وان لم يكن أملها فى ذلك كبيرا .. يحتـاج الحج الى نفقات كبيرة .. ليست متوافرة .. لكن الله اذن وتحقق هدفها .. قبل هدف ممدوح ..

نزعت الحكومة ملـكية قطعة من حديقة منزلها لتوسع الميدان المجاور ودفعت لها تعويضا مناسبا .. ارضت خاطر كل من مختار وفردوس بمبلغ كما اشترت لممدوح كل الادوات والاوراق التى يتطلبها مشروعه .. ثم سافرت الى الاراضى الحجازية المقدسة .

وعادت يغمر النور وجهها وان بدا عليها الهزال قليلا .. احضرت لاولادها وبناتها الـكثير من الهدايا .. أهم من الهدايا دعت لهم جميعا هناك وهى تلمس الحجر الاسعد.. لمختار بالهداية ولفردوس بالعدل .. ولممدوح بالنجاح .. ولمنيرة وزوبة وعلية بهدوء السر، وبهذا احست انها حققت كل أهدافها وادت رسالتها بالـكامل .

فى السنة الاخيرة لممدوح بالـكلية ازداد المرض على والدته .. فى كل أسبوع كان يراها قد ذبلت أكثر .. وان حاولت أن تتظاهر امامه بالحيوية .. وبدأ الخوف عليها ينهش قلبه .. وايد الاطباء مخاوفه .. أيامها معدودة ..

أرسلوا الى أولادها وبناتها حيث هم .. فحضروا .. وبينهم كلهم أولئك الذين وزعت عليهم قلبهـا وحبها وحنانها بالتساوى .. لا فرق بين كبير وصـــغير .. ولد وبنت .. مطيع وعاق .. أولادها وبناتها جميعا .. لفظت الحاجة الطيبة آخر أنفاسها ..

كأن حياة الام كانت الخيط الذى جمعهم طويلا .. فلما انقطع تفرقوا .. فى حيـاتها كانت معتـادة دائما فى المواسم والاعيــاد أن تجمعهم حولها .. لابد ان يحتفل الجميع بالعيد معا .. وأن يأكلوا على مائدة واحدة .. مهما بعدت الشقة .. الجميع .. حتى المتزوجات فى القاهرة وأسيوط .. بعدها أصبح كل منهم منصرفا

الى حال سبيله .. ربمـا تمر الشهور دون أن ترى الواحدة منهن شقيقها أو شقيقتها .. !

دعت كل من الشقيقات الثلاث فردوس للاقامة معهـا .. والحت فى ذلك واصرت عليه .. وفضلت الاخيرة الاقامة مع زوبة والاستاذ صادق حتى لا تترك بلدها .. وان أصرت هى الاخرى على المشاركة بنصيب — ولو ضئيل — فى نفقات المنزل حتى ترتاح نفسيتها .

بعد شهور اجتمعت كلمة الجميع على بيـع المنزل .. الحقيقة الجميع عدا ممدوح .. لم يكن راغبا فى البيع .. بالاكثر من أجل مختار .. مقدرا أنه من الافضل أن يكون له ايراد يستند اليه.. لـكن مختار عندما سمع بذلك وجدها فرصة ليواصل اساءاته اليه :

— هو وش الفقر قلبه على ؟ ليقل ان قلبه على نفســه .. فالقروش التى يستحقها منه قد تـكفيه أما أنا .. فمن أين له ان يعلم كيف كنت أعيش .

ورد ممدوح على ابن الحلال الذى نقل اليه هذا الـكلام :

— بل اعلم .. تماما .. سمعت كثيرا عن ذلك .. سمعت أيضا أن الاربعين جنيهـا .. ايراد ذلك المنزل الذى ظللنـا منـذ « يوم الاجراس » البعيـد نعيش منه جميعا طوال الشهر لم تـكن تكفيه ليحرقها على مائدة القمار .. كل ليلة ! لـكن مالنا والمـاضى ؟.. خاصة بعد الاشاعات التى سمعتها من انه كاد يأتى على الثروة التى كانت قد جمعتها زوجته الثـانية ، أما عن نفسى فاننى لا أخشى شيئا .. فحتى لو استهوتنى النقود فى يدى وأسرفت فان نصيبى من الثمن لا يمكن أن ينفد فى عام واحد .. هو كل المتبقى لى فى الـكلية ..

عموما رفضه لأى سبب لم يكن له قيمة .. فحفنة الشقيقات اللاتى كن يفصلن بينه وبين مختار انضممن اليه فى فكرة البيع ، لم تـكن احداهن بحاجة الى نصيبها من ايراد المنزل.. وأزواجهن جميعا ذوو مراكز محترمة ومرتبات كبيرة .

منيرة كانت تجهز ابنتها .. وعلية تريد أن تحج .. وزوبة ترغب فى أن تشترك مع زوجها فى بناء منزل يخصهما ولم يكن المبلغ الذى بعده للبناء بكاف وحده .. حتى فردوس العزباء .. كال يخايل خاطرها الزواج من جديد .. وبالفعل تقدم لها أكثر من شخص

مناسب الا ان الجهاز كان محتاجا لمبلغ كبير لم يكن موجودا وقتها. وكان مطلقها قد استولى بحيلة دنيته على اثاثها الاول الذىجهزها به والدها .

واذن فكل واحدة منهن كان لديها الدافع للحصول على مبلغ كبير لن يتيسر بغير بيع المنزل .. فباعوه .. وهكذا صفوا آخر ما كان متبقيا لهم فى بلدهم .. السويس ..

بين اليأس والأمل ..

عندما أفلس عبد المقصود بك اعتبرت الاسرة ان هذه هى نكبة النكبات ومصيبة المصـــائب ، وسموه يوم الـــكارثة ، واصبحوا يؤرخون به لما قبله وما بعده ، فلما تزوج مختار المراة اباها قالوا هذه مصيبة أكبر .. ثم عندما احتلت بور ســعيد عد ذلك أكبر وأكبر حتى لم يظن ممدوح أن قائمة الـكوارث يمكن ان تحوى المزيد

حتى جاءت نكسة ٦٧ لتصفع كل مصرى صفعة ظل يدور معها أياما وشهورا وهو غير متمالك لتوازنه .. كانت ضربة اصـــابت الرأس والقلب والـكرامة .. وكافة المشاعر .. ضربة لم تقتل المواطنين .. فقط سلبت منهم الروح .. جعلتهم يتحركون كآلات

ممدوح كان مع الفريق المؤمن ببلده وشعبه .. يستطيــع أن يتخطى الصعاب .. كلهـــا .. اذا كان الاخلاص رائده ، اكثر ما كان يدهشه فريق من الشباب أصابته النكسة بنوع غريب من اللامبالاة واللا انتماء .. لا هم مؤمنون ولا ساخطون .. يضــحكون ضحكات جوفاء لا طعم لها ولا روح ، فى أول الامر عمد الى محاورتهم أملا فى اقناعهم :

ـ لسنا أول من هزم .. حتى الهزيمة لها مزايا .. احيانا .. تشعل فى النفوس روح التحدى لاستعادة ما ضاع وما أحســبنا الا فاعلين .

ضاق بهم وبعبثهم الذى جعلوه دينا ومذهبا وقرر الا يجادلهم .. لتتول الايام والاحــداث ذلك ، عموما كان مضطرا للعودة الى القاهرة ليؤدى امتحان البكالوريوس .. نجح .. وتفوق .. امتياز مع مرتبة الشرف الاولى .. وضمن التعيين معيدا فى الكلية .

اصبح التفوق بالنسبة له عادة .. حتى لم يثر كثير فرحة.. خاصة والبلد فيها ما فيها .. والاب والام غائبان .. لو أن أباه كان موجودا ما كانت أعظم فرحته .. يكاد يراها تضىء وجهه الحبيب الذى لا يغيب أبدا عن خياله .. لو أن أمه كانت موجودة لاقامتها وليمة كبرى تدعو لها الشقيقات من كل جهة .

اقتصر شبه الحفلة الصغيرة التى أقامتها منيرة عليه هووزوجها وأولادها .. وفى اليوم التالى كان فى السويس يزور قبر والديه.. ليقدم اليهما هديته .. كمــا وعدهما .. عرج قبل عودته على زوبة وفردوس .. سأل عن مختار فردت زوبة :

ــ منذ كنا فى الشهر العقارى نسجل للمشترى .. بعد أربعين أمى لم أره .

ــ ربما ظن ان الاستاذ صادق لا يريده .

ــ كان ذلك فى حيــاة والدى .. تضامنا معه ، لــكننا فى أثناء تردده على أمى كنــــا نلتقى به هنـــاك ونسهر معــا .. صادق فى الحقيقة لا يحبه ولا يرحب به كثيرا الا انه طبعا لم يقل له ذلك.. مع هــذا فهو الذى لا يحضر الينا .. !

ــ كان بودى أن أراه .. فلا أعلم متى أحضر مرة أخرى .. عموما اذا رأيته .. بلغيه سلامى .

بعد عودة ممدوح الى القاهرة بأيام تلقى من مختار برقية تفيض برقيق التهانى والامانى وتعتذر بعدم امكانية الحضور ليقدم تهانيه بنفسه .. ! أسرع ممدوح بالبرقية يريها لمنيرة وزوجهــا وابتسم عزت بك هازئا ..

وتمتم ممدوح :

ــ يخيل الى ان بذرة الخير فى نفسه موجودة .. لــكنه لامر لا يعلمه أحد يحاول أن يئدها .. آه لو استطاعت التسرب من محاصرته ونمت وتفرعت .

تنهدت منيرة وهى تقول :

ــ ياريت ..

تجديف ضــد التيار ..

لم يمض عام ونصف عام على تعيين ممدوح معيدا حتى أوفد الى الخارج فى بعثة للحصول على الدكتوراه .. هل كان من حسن

حظه أن قضى هناك اسوأ أعوام مرت على مصر فى تاريخها الحديث .. كى يبعد عن منابع الالم والمعاناة ؟ .. أم من سوء حظه .. حيث سمع ما يكره .. وطال الامد .. لكنه لم يفقد الامل .. ابدا .. حقا ضاق وتألم وشعر بمرارة لكن أمله سرعان ما كان يسعفه فيبتلع مرارته ويلعق جراحه .. موقنا أن شعب مصر لن يموت أبدا .. قد يكبو مرة .. قد يستهين فترة .. قد يغفو حينا .. لكنه سرعان ما يقوم من كبوته ويهب من غفوته .. كمثل دودة القز .. تنام داخل الشرنقة زمنا لتخرج متطورة فى خلق جديد .. تحلق ، صاح ذات يوم فى جماعة استفزته :

— الامر ليس بتلك السهولة .. ما نريده .. وننتويه يستحق ويتطلب الجهد والتدريب الشاق .. مسألة حياة أو موت وليست لهوا ولعبا .. ولا نزهة خلوية أو مبـــاراة كرة .. بل حتى اللعب نفسه يتطلب من الفريق الذى يريد الفوز أن يتـــدرب ويكافح ويستعد ويبذل الجهود .. ما بالـكم بحرب شرســة ؟ وبدل أن تقولوا هــذا .. دعوا العدو لنا .. وحده .. وسترون ماذا يكون من أمره معنا أو من أمرنا معه ..

ناقش كثيرا وخطب كثيرا وحاور كثيرا .. بتصميم وصبر .. فقد كان كمن يحفر فى الصخر .. أو يجدف ضد التيار ، جاء مصر مرة واحدة فى اجازة بعد عامين .. فأحزنه حال البلد .. حتى كاد يفقد ايمانه ويضمه اليأس الى معسكر الساخطين .

لولا أن كان عائدا من زيارة مقبرة أبيه فى أطراف السويس وضل الطريق فى الصحراء .. حتى وجــد نفسه أمام احدى وحــدات الجيش تتدرب تدريبــا شــاقا بصبر وجلد .. لم يضــايقه ان احتجزوه فترة ليتحققوا من اقواله .. الامارات التى رآها على وجوه الجنود ناطقة بالعزم والتصميم .. أعادت له الامل .. أو جزءا كبيرا منه .. وعاد الى أمريكا ليكمل رسالته أو رسالتيه معا .. الدكتوراه وتوضيح حق بلاده الذى لا ينازع .

انتهت بحوثه ومنحته الجامعة درجة الدكتـوراه فى الهندسة .. بامتياز .. وكانت قد بقيت أمامه أربعة شهور حتى انتهاء الموعد الذى حددته له كليته بجامعة القاهرة .. وطبعا لم يحدث قط أن عاد مبعوث قبل انتهاء مدته .. جرت العادة .. فى الغالب ان يرسل المبعوث طالبا مد فترة البعثة بحجة أن الوقت لم يكن كافيـــــا لاستكمال جميع البحوث ..

لم يكن فى نيته طبعـــا ان يطلب مد بعثته .. لكنه ايضا لم يكن يزمع العودة فورا .. انكبابه على البحث لم يترك له سويعات يمرح فيها ويستجم ويتجول فى انحاء البلاد .. واذن فليستدرك ما فاته وامامه اربعة أشهر يروح فيها عن نفسه ويشاهد أمريكا على حقيقتها .

فى هـــذا الوقت .. فى اكتوبر عام ٧٣ .. تحركت الجيوش المصرية فى ايقاع منغم .. تجانست فيه حركات جميع الوحدات والاسلحة كأنها سيمفونية رائعة .. عبرت القناة وحطمت ـ مع خط بارليف الخطير ـ أسطورة الجيش الذى لا يهزم . !

وقرر أن يعود الى الوطن .. حالا .. حقا أصبحت الاقامة بالخارج اقل مرارة بعد ان تغيرت الى حد كبير لهجة السخرية والشماتة الى لهجة التقدير المزوج بالدهشة .. حتى ان الجرائد جميعـا ظلت تـكتب اياما عن المفاجأة المذهلة والاستبسال المعجز والعمليات البطولية الخارقة .. ولـكن كان من الجنون البعد عن مصر فى فترة الصحوة .. فترة الانطلاقة الهادرة .. هذه الفترة الموحية الخلاقة المعطاء ..

حى على التعمير ...

ما كاد يخرج من صالة الجمرك حتى تلقفته أذرع وشفاه الاقارب والاصدقاء .. شقيقاته وازواجهن وأولاد اخواله وعماته .. أولاد وبنات شقيقاته ـ الذين كبروا واصبحوا شيئا آخر ـ وغيرهم . الأسرة كلها كانت فى انتظاره . عداه .. عداه هو .. أقرب الناس اليه وان كان فى نفس الوقت أبعدهم عنه .. شـقيقه الوحيـد مختار .. ! فتش جيدا بعينيه فلم يجده .. ناجى نفسـه :

ـ عجبا .. كل هـذه السنوات الطوال بعيدا عن أرض الوطن لم تـكن بكافية لان تنسيه ما كان بيننا ؟ !

عندما جاء المساء لم يعد يطيق صبرا .. وسأل ـ وان حاول أن يبـدى قلة الاهتمام .. عن أحوال مختار .. تنحنح الاستاذ صادق ـ وكان المفروض أن يـكون أكثر الجميع معرفة به لاقامته فى السويس ـ تنحنح قبل أن يقول باقتضاب :

ـ لا أحد يعرف عنه شيئا .. لقد اختفى عنا هو واخباره .. منذ فترة طويلة .

– ولكن كيف يعيش ؟.. واين ؟.. وما أحواله ؟
– كان آخر ما بلغنا عنه انه طلق زوجته بعد أن ضيعت ثمن حصته فى منزل الحاجة وبذلك أصبحا خالصين .. تعلم طبعا انه كان قد جعلها تبيع عمارتها واغلب مصاغها لتوفى مطالبه .. كل شيء يضع يده فيه يخربه هل نسيت انه هو الذى ضيع ثروتكم ؟

أثارت هذه الاخبار الانزعاج على وجه ممدوح وعاد يسأل :
– ألم يحاول أحد منكم البحث عنه ؟

ولم يرد أحد وان تولت نظرات الدهشة والاستنكار عنهم ذلك قال بهدوء :
– اذن سأسافر أنا غدا الى السويس .. وسأبحث عنه .

وازدادت كميات الدهشة والاستنكار فى العيون .. وبتؤدة قال عزت بك :
– أنصحك يا ممدوح الا تفعل .. أحد الناس ظل يحفر الارض وفى ظنه انه سيجد كنزا .. لكنه بعد طول جهد وجد يديه تخرجان .. بحفنة من القاذورات .. انت تعرف مختار ونزواته .. انه لا يستطيع العيش بدون مال .. كثير ، ومن المحتمل أن يكون قد جانب الطريق السوى .. وانت الآن أصبحت ذا مركز عال قد تؤثر فيه سمعة أخ فاسد .. فلا تكن كمن أخرج المارد من القمقم .. ليقضى عليه .. لن ينفعك الندم ولن تستطيع اعادة المارد الى قمقمه .

لم يرد ممدوح بيد أن تصميمه طفا من أعماقه الى صفحة وجهه ..ولم تفت عزت بك ملاحظة تعبيرات وجهه الناطقة اذ انه عاد يردف مستسلما :
– عموما هذا رأيى .. وافعل انت ما يروقك .

حاول ممدوح أن يغير الحديث فالتفت الى فردوس مازحا :
– من كثرة ما كتبتى لى عن لطف ورقة وشجاعة زوجك العزيز الاستاذ مراد فانى كنت متلهفا على لقائه والتعرف عليه .. وأرى انك لم تبالغى .

احمر وجه فردوس خجلا وهى تحتج :
– هل كتبت اليك كثيرا عنه ؟

وابتسم الاستاذ مراد بسعادة :
– أشكرك يا دكتور ممدوح واشكر زوجتى العزيزة .. التى

اذا كانت حدثتك عنى قيراطا واحدا فقد حدثتنى عنك اربعة وعشرين .. وطبعا ما كتبته الجرائد عن غزوك لبلاد العم سام. وتقديرات ممتحنيك يدل على انها لم تذكر كل الحقيقة .

وبين ضحكات الحاضرين وترحيبهم بعودة ممدوح .. الغالى لدى الجميع .. تنتهى السهرة السعيدة .. التى كانت ترفرف عليها طول الوقت روحا الحاجة زبيدة هانم وعبد المقصود بك .

لكنه لم يستطع السفر قبل أيام .. حتى تمكن من الحصول على تصريح من الكلية بالعمل فترة الأشهر التى كانت متبقية له على انتهاء البعثة .. فى السويس .. مع أفواج المشتركين فى التعمير .

فى الاوتوبيس المسافر به كان يفكر فى مختار .. ترى هل يعثر عليه بسهولة أم يكون كمن يبحث عن ابرة فى كوم من التبن .. ؟ هل اختفى فعلا حتى ان الاستاذ صادق .. المقيم معه فىالسويس .. لا يعرف عنه شيئا ؟ لم يحاول أن يوجه اللوم الى أحد .. .. حتى بينه وبين نفسه .. التمس العذر لشقيقاته .. لم يكن بوسعهن سوى السكوت خوفا من غضب الازواج أو لومهم .

وصل قبل الظهر .. كانت صدمته برؤية آثار الاعتداء شديدة .. تمتم من بين أسنانه :

ـ لشد ما أكرههم .. اكرههم بقدر ما احب بلدى .. ليسوا اعداء وطنى فحسب .. انهم أعداء الحياة .. أعداء الانسانية .

اتجه الى منزلهم .. أو الذى كان منزلهم قبل أن تشتريه جارتهم الست شفيقة .. كانت هى بنفسها التى فتحت له .. شهقت من الفرحة .. استمهلته حتى توقظ ابنها مصطفى لكنه رفض أن تقلقه طالما هو فى اجازة ، فألحت أن يستريح ساعة أو ساعتين من عناء السفر الطويل :

ـ فؤاد مسافر وحجرته خالية .. تصور انها نفس حجرتك القديمة ؟ ..

دخل حجرته متمهلا .. اغلب أثاثها كما هو .. اشترت الست شفيقة أثاث الشقة مع المنزل .. ثم انتقلت اليها تاركة شقتها الاولى .. وكانت اصغر بعض الشىء ـ لابنتها العروس .. كأنه ما تركها الا أمس .. دفعة واحدة عادت اليه ذكريات خمسة عشر عاما فى تلك الغرفة .

لم يشعر بالحنين لطفولته كما اعتاد أن يسمع من أغلب الناس. طفولته لم تكن سعيدة .. كما انهـــا ـ أيضا ـ لم تكن شـقية .. كانت لا بأس بها .. لولا قسوة مختار وتحرشه الدائم به ، فترت همته وحماسته فى العثور عليه كثيرا .. عنـدما خرج ـ بعد سـاعتين فقط من منزل الاسرة السابق ـ للبحث عن أخيه.. كان يقدم قدما ويؤخر أخرى .. فأغلب ذكرياته التى أهاجتهـا لديه حجرته كانت عن مشاحنات مختار معه .

وسط هـــذه الذكريات دق الباب .. فتحه .. كانت الست شفيقة تحمل كوبا من الشاى وبعض الفطائر ودهشت.. سألته:

ـ السرير مرتب كما هو .. لماذا لم تنم ؟

وكذب عليها :

ـ لقد نمت كثيرا فى الاوتوبيس .

كم هى طيبة هـذه السيدة .. وكم يحبها ممدوح .. منزلتها فى نفسه تقترب من منزلة أمه .. كيف ينام !.. يريد أن يشبع من التملى فى غرفته .. ربما تـكون آخر مرة يراها فيها .. خرج الى الشرفة ليلقى نظرة على البلد كلها من عل .. كم أوحشـته بلدته .. السويس .. هذه المدينة الساحرة .. الصـــامدة .. دوخ أهلها البسطاء عمالقة القرصنة .. وكم سمع فى الطريق من قصص بطولة وفداء وصمود

عاد الى الغرفة .. تمدد على السرير .. عاد يفكر فى مختـــار ومناوشاته .. هز رأسه :

ـ مهما كان فيجب أن أصل اليه .. انه اخى الوحيد .. وربما كان فى حاجة الى .

استيقظ مصطفى وقابل ممدوح بالاحضان .. حدثه عن احوال البلد ومعنوياتها العالية أيام الحصار ، سأله عن مختار :

ـ هل يا ترى تعرف عنه شيئا ؟

رد بعد تفكير يسير :

ـ الحقيقة اننى لا أعلم يقينـــا ان كان لا يزال فى السويس أو هاجر مع من هاجروا .. اذ مرت شهور لم اره فيها قط .

استأذن فى الخروج ليبدأ البحث .. ودعوه بنفس الحفاوة التى استقبلوه بها .. بدأ يخطط .. من أين يبـدأ ؟ من الضـــاحية الغربية حيث كان يعيش مع زوجتـه وحيث بعض المقاهى والاماكن التى اعتاد التردد عليهـا .

لأسفه انهار أمله مع أول محـاولة .. اكد له الجميع أنه هاجر قطعا لـكن أحدا لا يعلم الى أين ، وخطر له انه ربما سافر الى الاسكندرية .. عند ابن عمه المقيم منذ سنوات هناك .. حيث هو الوحيـد فى الاسرة الذى يميل اليه مختار .

لـكنه لم يـكن يستطيع السفر الى هناك .. كان على موعد فى اليوم التالى مع المسئولين فى وزارة التعمير .. وفى اليوم الثالث كان يتسلم عملا .. فى صميم تخصصه .

ليت الروتين ينتهى فى مصر كلها كما أنهته ارادة التعمـــير الصادقة ، وأخذه العمل .. لـكنه لم ينس مختار .. دائما على باله ودائما يحس بالضيق لعدم استطاعته الوصول اليه .. فقط كان مضطرا لاعطاء موضوعه اجازة طويلة .. له سنوات لم يره .. لا ضرر من ان يزيدوا شهورا .. الاهم فالمهم .

ذات يوم .. بعد حوالى اسبوعين من بدء العمل حدثت لممدوح مفاجاة مثيرة .. طلب ان يقابل مقـاول الانفار لـكى يبحث معه امكانية زيادة عددهم .. فأشـاروا له عليه .. فوق السقالات.. ما كاد ينظر حيث يشيرون حتى تراجع مذهولا وهو يغمغم :

ــ انه البرديسى .. نعم هو .. هو بـكل تأكيد .. صـديق مختار .. بل نسخة منه فى آرائه وتصرفاته ومجونه ونزواته .. كيف يمكن أن يوجد هنا ؟

ورجع الى مكتبه .. قرر أن يرسل اليه أحد مسـاعديه حتى لا يحرجه .. قطعا سيخجله جدا أن يراه فى عمل كهذا وزى كهذا شخص يعرفه ويعرف أسرته ، لـكنه عاد وفكر أن يلقـاه وليكن ما يـكون .. أليس محتملا أن يعرف الى أين ذهب مختـار .. واين اراضيه الآن ؟ .. قبل أن يتحرك لينفذ فكرته اكتملت المفاجأة .. بل تضاعفت .. بدخـول البرديسى بنفسه .. بلحمه وشحمه .. غرفة مكتب ممدوح .. مهرولا .. نظر اليه ثوان بتمعن .. ثم صاح :

ــ هو .. هو .. بالاحضان يا ممدوح ..

اندفع اليه يعانقه ثم تراجع قليلا بخجل :

ــ لا تؤاخذنى يا باشمهندس .. يا دكتور .. اندفعت .. من فرحتى .. لم أسمع باسمك الا اليوم .. وتمنيت أن تكون انت فعلا .. ما أشد سعادتى بك .

ورحب به ممدوح .. من قلبه :

– اجلس يا محمود بك .. أهلا اهلا .. اى أوامر ؟

قال ببساطة شديدة :

– انا الذى أسألك هذا السؤال .. انت رئيس العمل هنا ..

– كلنا نعمل معا .. خاصة انت .. انك فى مكانة أخى الاكبر .

وعندما تذكر أخاه خرج سؤاله من فمه رغما عنه :

– يدهشنى انك .. تعمل .

رد بنفس البساطة :

– لابد أن أعمل ..

تمتم ممدوح وكأنه يناجى نفسه :

– قاطعنى مختار سنوات لاننى يوما طلبت منه ان يعمل .

هز رأسه :

– لاتلمه يا ممدوح .. يا دكتور ممدوح .. كان هذا تفكير قطاع كبير أيامها .. أخبرنى مختار بالموضوع فى حينه .. ولا تؤاخذنى .. وسخطت عليك بدورى .. اخذت جانب مختار فى انك وجهت اليه اهانة لا تغتفر .. اليوم انا أعمل .. رغم انى حاليا فى غنى عن العمل .. حرب اكتوبر غيرتنا جميعا .

– من تعنى بـ نا هذه ؟

– كل من كتب فى خانة الجنسية بشهادة ميلاده كلمة « مصرى » .. بل وأستطيع أن اضيف .. وكل عربى .. الم تتوحد كلمتهم لاول مرة ..؟ جيشنا .. هل حارب هذا العام كما حارب عام ٦٧ ؟.. القادة .. الاهالى .. تغير كل شىء فيهم .. نظرتهم لانفسهم وعدوهم وقادتهم وبلدهم .. لم تكن السويس تعنى فى نظرى أكثر مما تعنى أى مدينة اخرى فى مصر .. وربما فى العالم .. تماما كما لا تحس بساعدك – رغم أهميته – الا عندما يؤلمك .. بدأ الخطر يحيط بالسويس .. وظهرت نية العدو فى تدنيس المدينة بأقدامهم وكانت صرخة واحدة أطلقها أهل المدينة .. « لا »

– قرأت وسمعت عما قام به الكل .. الجيش والبوليس والاهالى .. الجميع .. بلا استثناء

– نعم .. لكن سماعك لن يكون كمن رأى بعينيه .. حكايات

وبطولات فردية وجماعية كثيرة سمعت وستسمع بها طيلة وجودك .. لكن انبهارك لايوازى مشاعر من عايش كل ذلك .. آه يا ممدوح لو كنت هنا ورأيت بعينيك العمال البسطاء .. وطلبة المدارس .. الصنايعية الاميين والاطباء والممرضات الصغيرات.. قاموا بأعمال مذهلة .. الم تقابل أحمد صادق ابن شقيقتك السيدة زوبة منذ عدت من الخارج ؟

ـ طبعا قابلته اكثر من مرة منذ حضرت .. عدا انه كان فى انتظارى بالمطار يوم وصولى القاهرة .

ـ اذن فأنت تعلم طبعا ما قام به .

ـ ابدا .. لم يقل لى أى شىء .

ـ عجبا .. لا يريد أن يتحدث عن نفسه .. مع ان السويس كلها تحكى عن تحطيمه ثلاث دبابات للأعداء وحده .. ببعض القنابل اليدوية .. وعن مخاطرته بالاقتراب منها حتى تستطيع القنبلة الصغيرة التأثير فى الدبابة دون أن يخشى ما فى ذلك الاقتراب من أخطار .. وغير احمد كثيرون .. قدموا كل ما يملكون من جهد وقدم بعضهم أرواحهم .. بكل سماح .. كما قلت قبلا .. هذه الحرب غيرت كل شىء فينا .. أطاحت بقيم عديدة بالية كنا نؤمن بها .. ومجدت أمام ناظرينا قيما أخرى غيرها .. أهم هذه القيم كان .. العمل .. عمل كل هؤلاء .. وليس التفاخر بالانساب .. او اى شىء آخر ..هو الذى صنع أسطورة الصمود.. لم أستطع لسنى أن أسهم فى قتال الاعداء .. فقررت أن استدرك ذلك فى معركة التعمير .

سعد ممدوح بكلام البرديسى .. لكنه لم يستطع نسيانه.. أخاه .. همس :

ـ ليت مختار كان هنا .

ربت البرديسى كتفه بقوة :

ـ سيعود .. يا ممدوح .. وأؤكد لك .. سيعود .. لقد اذن المؤذن « حى على التعمير » شبان كثيرون من بلاد اخرى تطوعوا للمشاركة .. فهل يعقل الا يلبى السوايسية النداء ؟ .. الم تترك انت جامعتك ؟.. أكاد اجزم انه لن يتقاعس عن المشاركة فرد واحد من اهل السويس .

ـ حتى مختار ؟ ..

قهقه ضاحكا :

ـ العصا السحرية التى غيرت كل فرد وكل شيء .. هل تعجز عن تغيير مختار .. وحده لا .. عموما أنا لا القى القول على عواهنه..
عندما هاجر مختار .. لم يخبرني ـ ولا أي صديق آخر ـ عن وجهته .. بعدها لم يرسل لاحد منا اى خطابات .. حتى فوجئت من أيام بخطاب منه يخبرنى فيه بأنه لم يعد قادرا بعد على البقاء بعيدا عن السويس .. وان هي الا بعض أمور يسويها وسيعود ..
ويومها أؤكد لك .. ستجد مختارا آخر .. لن يكون موقفه منك نفس موقفه السابق .. لن يعود يهزأ أو يخجل من عملك وجدك ونشاطك الدءوب وانما ـ وبدون أى شك ـ سيفخر بك ويسعد. ويزهو .. الموازين السابقة اختلت .. واذن فلن تعود تفصل بينكما تلك الهوة الواسعة من اختلاف المبادىء والقيم .

تحول ممدوح عنه واتجه ناحية النافذة .. السقالات العديدة تموج بالبنائين كأنها خلايا نحل .. فى موقعه .. والمصنع المجاور.. والوحدات الاخرى عن يمين ويسار .. فى كل مكان حول اليه عينيه كان يرى البناء يرتفع .. شعر بكثير من التفاؤل .. تمتم بصوت خافت كأنما لنفسه :

ـ نعم .. معك حق يا بردیسی .. لابد سيعود مختار .. ليسهم بنصيب . انها بلده هو الآخر . ويومها ـ قريب جدا فيما أعتقد ـ سنلتقى .

دخل بعض الموظفين يوزعون الحلوى والمرطبات قال أحدهم :
ـ جاءتنا الآن أخبار بانسحاب آخر جندى اسرائيلى عن الضفة الغربية .

ومن بعيد سمعت بعض الفرق الموسيقية الشعبية تعزف مارشات عسكرية وتجوب المدينة ثم .. ارتفعت دقات أجراس كنيسة قريبة .. وتلفت ممدوح حوله متعجبا .. أسرع أحد مساعديه يفسر الدقات :
ـ الكنيسة أيضا تحتفل بخروجهم .

ليس عن مصدر الدقات كان ممدوح يتساءل .. ولكن عما حدث بداخله .. أو على الاصح ما لم يحدث .. لفته غبطة مدهوشة ..
لقد شفى .. شفى من مرض الاجراس الغريب .. !

نعم .. فمنذ يوم المزاد الرهيب .. بما صاحبه من أحداث..
ذلك اليوم الذى ظل يطلق عليه من وقتها .. ولأعوام طوال ..

« يوم الاجراس » منذ ذلك اليوم .. ورعـدة غريبة تصيبه .. شـاملة جسـده كله كلما .. سمع صوت أجراس عالية جوفاء الرنين .. أى اجراس ، حتى عندما كان بالخارج .. حدث له ذلك أيضا .. وتـكرر .. لدرجة ان نصحه بعض الزملاء بعرض نفسه على طبيب نفسانى .

لـكن ها هو يشفى من ذلك المرض العجيب .. وبدون حاجة لأى طبيب .. فى تلك اللحظة الخالدة .. سمع صوت الاجراس ـ التى بدا رنينها متغيرا ـ ولم يرتعد .. وانما ابتسم بسعادة .. فقد كانت .. أجراس النصر .

من بعد غربة طالت



من بعد غربة طالت

أرجوك ياسيدى .. كفى حديثا فى هـذا الموضوع .. سمعته أكثر من مرة .. حدثنى فيه أكثر من زميـل لك .. حتى ضقت به .. اننى أشكر لـكم دوافعكم النبـيلة ومشـاعركم الرقيقـة تجاهى ، تريدون راحتى ولـكن .. ليتكم تعلمون .. راحتى فيما أفعله .. تعبيراتـكم تـكاد تـكون واحدة .. ما أقوم به فوق طاقتى .. وما أدراكم بحدود طاقتى ؟.. أحد زملائك قال انه فوق طاقة البشر .. وهل البشر كلهم متساوون فى طاقاتهم ؟ هـل هم متساوون فى أى شيء أصلا ؟ الانسـان .. أى انسـان .. مجموعة معقـدة من الآراء والميول والانفعالات والمشـاعر.. ولا أعتقد أن هناك اثنين متماثلين فى كل شيء .. عندما حدثت هزيمة يونيو ١٩٦٧ مثلا .. سميناها أيامها النكسة .. لـكن هـذا التعبـير لم يعجبنى .. لم أستعمله قط .. لفظ الهزيمة قاس لـكنها الحقيقة .. كانت هزيمة وأى هزيمة فلماذا نغلفها باسم آخر مخفف ؟ لمـاذا نغطى وجههـا البشـع بقناع مقبول ؟ أقول عندما وقعت هـذه الهزيمة هل كانت مشاعر الجميع حيـالها متشابهة وردود فعلها فى نفوسهم واحدة ؟ لا أظن .. الجميع طبعا تألم ولكن بنسب متفاوتة .. أنا مثلا .. رد الفعل فى نفسى كان عنيفا .. الجميع صدم لكن صدمتى أنا كانت مروعة .. هل لأننى من بنات الاسماعيلية فكنت أكثر تلمسـا للفـاجعة من اهالى القـاهرة مثلا ؟.. كنا نراهم بعيوننـا على الضـفة المقـابلة .. ونسمعهم أيضا .. بلغت بهم الصلافة والوقاحة حدا فاجرا .. كانوا يستعملون مكبرات الصوت طوال اليوم فى اذاعة بعض الكلمات الحماسية لبعض مسئولينا ثم يعقبونها بأغنية شادية .. مكسوفة .. مكسوفة منك ! ! رغم ذلك لا أعتقد انجميع أهالى الاسماعيلية عانوا قدر ما عانيت ، هل لاننى فنـانة والمعروف دائما ان آلام الفنان أضعاف آلام الانسـان العادى أمام نفس الحدث بسبب

نفسيته البالغة الحساسية وشعوره المرهف ؟.. أم لانني كنت قد عقدت خطبتي قبل شـــهور على أحد ضـــباط الجيش ، وكنت واثقة فيه وفى زملائه ثقة غير محدودة ، وعندما بدأت عصـــابات اسرائيل تهدد صفقت بيدى حمـــاسا « سترون أى درس سنلقنه لـكم » ولذلك كانت صدمتى فى عودته منسحبا .. ترت عليه .. « كيف تتركوهم يأخـــذون أراضينا وتعودون .. كان الاولى ألا يدخلوها .. الا على جثثكم » واحتج « لم أهرب ولـكنها أوامر القيـــادة أن ننسحب .. ولم نقاتلهم ولو فعلنـــا لما انتهينا الى هذه النتيجة .. لـكنها مجموعة من الاخطاء فى التقدير والحظ السيىء وغيرها من الظروف .. ومن الظلم أن تحمليني أنا تبعة كل هذا » لـكننى لم أستطع .. كان فوق طاقتى الحياة مع شخص لا أشعر تجاهه بالاحترام .. بعد أن سقطت من فوق رأســه الهالة التى تصورتها أنا .. بدون مناسبة ، ففسخت الخطبة ..

لا أعرف السبب فيما أصابنى .. هل كان واحدا مما ذكرت أم كلها جميعا متضـــافرة ..؟ المهم ان معاناتى كانت أقصى مما يستطيع أحد أن يتصور .. ولم أستطع البقـــاء فى الاسماعيلية طويلا حيث كنت أشعر أنهم يشاركوننى فى تنفس الهواء الذى أتنفسه .. اصبح هـــذا الهواء خانقا .. ويشاركوننى فى شرب الماء الذى اشربه .. أضحى للماء بعد أن تملـكتنى هـــذه الفكرة طعما مرا.. ويدنسون الارض .. ارضى وارض أجدادى ، وذهبت أقيم عنـــد خالتى فى القاهرة .. لـكن صورتهم وأصواتهم لم تفارقنى..كنت أراهم وأسمعهم بخيالى .. هل يمكن أن تصدق هـــذا ؟ ان رؤية الخيال وسماعه كانت أقسى أضعافا من رؤية الحقيقة وسماعها ؟ لـكن هذا ما حدث .

ازداد تمزقى من الداخل .. حتى انهرت تماما .. كنت أمارس عمليـــة رفض .. أرفض هـــذه الهزيمة .. أرفض أن تحتل شرذمة من المتمردين من كافة أنحاء الدنيا قطعة عزيزة من بلادى .. ونحن نسكت ونستكين وخطرت لى فـكرة .. ربما أراحتنى .. سافرت للخارج مشتركة فى معرض للرسم الحديث .. وانتهى المعرض وقد قررت أن أطيل بقائى فى الخارج .. ارسلت الى والدى اعتـــذر عن البقاء فترة أطول ربما أعاننى ذلك على النسيان .. نسيـــان الواقع المر هناك .. فى بلدى .. لـكن الرضا وراحة البال اللذين كانا قد فارقانى فى مصر لم يعودا الى فى الخارج .. وصمما على

أن يكون فراقهما الى غير عودة . في كل حديث مع واحد من أهل البلد كنت احس بروح الاستهزاء او السخرية .. او الشماتة ، وكلما قررت الا اخوض حديثا عن افصر حرب في التاريخ كما كانوا يسمونها .. كنت أجد من يدفعني اليه ، وعمدت للانزواء عن الناس حانقة على بشرتي السمراء وشعري الاسود وملامحي المصرية .. كأنها علم على .. وأخذت أتنقل من دولة الى دولة دون فائدة .. وامضتني الغربة حتى ظننت انه اذا لم يكن لهذه الرحلة من مزايا سوى اشعاري بالغربة - حتى لقد بت أتلهف على العودة الى وطني - لكفاها مزايا .

وعدت ولكن .. لأصدم صدمة أشد .. الناس متبلدو الاحاسيس وكأنهم استساغوا الاحتلال وتقبلوه وروضوا انفسهم عليه .. البلد كلها تبدو كعجوز هدها الشلل .. لا .. ليست هذه مصر التي اعرفها .. ليست هذه بلدي .. ابدا .. ابدا وعاد الشعور بالغربة يمضني بأكثر مما كان يفعل وانا بالخارج .. كان شعوري بالغربة في بلدي وبين أهلي وعشيرتي اقسى مما كان في أي بلد غريب أقمت به .. بلدي الذي كنت أحبه .. لم اعد أحب أحدا .. حتى نفسي كرهتها .. !

وعادت سياط المرارة تلهبني ففررت مرة اخرى وقد وقر في يقيني انه فرار الابد هذه المرة .. فرار بغير أوبة ، واستقررت في فرنسا ووفقت لعمل ما كنت اتوقع أن أهبط أو ارتفع اليه في يوم من الايام .. ارتفع باعتبار مركز العمل ادبيا ومرتبه الضخم ماليا .. مديرة للاعلانات في مجلة كبرى .. واهبط باعتبار أن الرسوم التي أعملها ليست فنا على الاطلاق لكنها اكل عيش .. وهل يمكن أن يظل الفن داخل نفسية آلية فقدت كل آمال الحياة ؟

هروب ؟.. ربما .. ولكن .. ماذا كان في وسعي أن افعل ولا أجيد سوى امساك الريشة .. ليتني استطيع استبدالها ببندقية ولكن ..

وبدأت دعوات الاسرة تلاحقني بالعودة .. حيث انها - في زعمهم - حتمية .. قالت لي أمي في أحد خطاباتها « ستعودين يوما فلماذا لا يكون ذلك اليوم قبل الغد ؟.. وستتزوجين رجلا من بلدك فلماذا لا تفعلين في السن التي تمنحك فرصة الاختيار ؟ » وضحكت .. بمرارة .. رجلا من بلدي .. انني كفرت بالرجال .

حتى حدثت المعجزة .. جاء يوم ٦ اكتوبر .. لا ادرى بما اصف ذلك اليوم .. بعض كتابنا قال عنه « ٦ اكتوبر الخالد .. والبعض ٦ أكتوبر العظيم .. و ٦ اكتوبر المجيد .. الخ ، الخ ، لكننى ارى انه ولا أى صفة من هـذه النعوت .. ولا كلها مجتمعة .. يمكن أن تحيط بأبعاد ذلك اليوم .. اننى اعجز عن أن اجد كلمة أو كلمات توفى ذلك التاريخ حقه .. وعزائى .. ان مفكرينا عجزوا قبلى .. لكنه فى ناحيـة منه .. كان يوم البعث .. بعث أمة.. كان الظن بها أنها ماتت .

بالنسبة لى .. لم يكن ظنا .. كنت يقينا فى عداد الاموات .. وما قيمة التنفس والأكل والشراب اذا ماتت المشاعر ؟ فى هـذا اليوم بعثت من جديد .. بدات أحس بالدماء تجرى فى شراييني .. بدأت أهتم .. وأجرى .. وأخرج ..وأتكلم .. واستمع ، وأحبس انفاسى .. وأترقب .. وأعيش .

وبدأ الناس يتكلمون عن مصر .. لا .. كانوا يتكلمون عنها قبلا ايضا .. لكن النغمة تغيرت ، فى كل مكان .. فى الشـوارع والمقاهى والاوتوبيسات .. كدت فى كل مرة أقتحم مناقشـاتهم لاصيح فيهم بأعلى صوتى — ليسمع أكبر عدد من الناس — « أنا من ذلك البلد ! » ثم اكتفيت .. ارتوت نفسى الظمأى من أعوام مما سمعت .. وأحسست اننى لابد أن أكون هنا .

وعدت .. ويوم عودتى دهشت .. النـاس غير ما تركتهم .. يتحركون بحيوية ونشاط .. عيونهم لامعة متألقة .. نعم .. هذه هى مصر التى أعرفها .. عادت .. أو عاد اليها شبابها ، وقدمت نفسى للمسئولين . اريد ان أقوم بدورى .. واحضرونى الى هذا المستشفى .. ولم اخف عليهم خيبة أملى .. اريد ان اكون هناك .. مع أبطالنا .. أشترك معهم فى تلقين هؤلاء الذين آذوا عينى وسمعى ومشاعرى .. دروسـا لا ينسوها .. لم أترك منصبـا هاما ومرتبـا يسيل له اللعاب لـكى أقوم بالتمريض .. وهل قلة ممرضـات ؟ الموجودات كثيرات وفيهن الكفاية .. وأبدى المسئولون دهشتهم .. لم تذهب امرأة لخط النـار .. رجالنا والحمد لله موجودون ويـكفون وزيادة ..

واقتنعت .. فورا .. لم أرد أن أكرر خطئى وأصمم على ما لا علم لى به .. ثم اقتنعت أكثر .. عندما قابلتهم .. نعم ..

مكانى هنا .. بجوارهم .. اضمد جراحهم .. أعايشهم .. أخدمهم .. بعينى ، وما أفعله هو أقل ما يمكن أن أقدمه .. ومهما تعبت فلن نوفيهم حقهم .. من أجلنا انطلقوا يضحون بأرواحهم .. اذا ضحينا من أجلهم براحتنا .. فهل نكون متفضلين؟ أكثر من زميل لك يا سيدى قال لى هذا الكلام .. « تتعبين كثيرا .. ترهقين نفسك .. تعملين فوق طاقة البشر ..» وصدقنى ياسيدى .. لم أعد أرغب فى سماع هذا .. هم .. قدموا أكثر .. بكثير ، بالنسبة لى أنا .. لى وضع خاص .. أخطأت فى حقهم عندما فقدت الثقة بهم .. ظننتهم استكانوا واستمرأوا الذل بينما كانوا يتدربون تدريبا شاقا ويخططون تخطيطا علميا دقيقا متقنا ليعدوا أنفسهم لليوم العظيم .. وكان يجب أن ينتظروا كل تلك السنين حتى يخرجوا لنا هبتهم بالدقة والروعة التى رأيناها.

كلمة .. اتذكرها دائما ودائما يمضنى تذكرها .. قلت عنهم يوما .. ليسوا رجالا .. اليوم أيضا أقولها .. نعم .. ليسوا رجالا .. بل أبطال .. قاموا بأكثر مما يمكن أن يقوم به الرجال.

لكنى لا انسى اننى اخطأت فى حقهم خطأ فادحا .. ربما بعملى الدائب لخدمتهم وتقديم كل ما فى استطاعتى .. أكفر عن هذا الخطأ .. وأريح ضميرى المثقل ، فدعنى يا سيدى بالله عليك .. أفعل .

إستيفا ...



استيفا ..

استيفا ..

عندما سمعها من رئيسه لاول مرة ظنه يريد استيكة ، ربما يحبها لسبب ما فيدللها .. كأولاده ! أيضا ليس هناك قانون يمنع أن يكون رئيس القلم « أخنف » بعض الشيء .. !

— لا .. لا .. استيفا .. يعنى استيفاء بعض الاوراق فى هذه الطلبات ..

— آه .. استيفا ..

— كل هذه الدوسيهات التى أمامك طلبات استيفا .. من شتى الجهات ..

كان على المكتب أكوام واكوام .. صبحه الله بالخير سلفه .. لا يهم أين القت به المقادير لكنه بالتأكيد كان كسولا .. حتى ليترك وراءه كل تلك الاوراق بدون بت ، أقبل عليها يتصفحها بعناية ودقة بالفتين ثم بدأ يعمل فيها قلمه .. بهمة خريج جديد أهدته البلد احدى جامعاتها .. منحته مع الاجازة شحنات كبيرة من الاقدام والثقة والتفاؤل والمرح ، كل يوم لا يغادر مكتبه حتى يكاد ينتهى من جميع ما أمامه .. لكنه يعود فى اليوم التالى ليجد المكتب مكدسا كما كان .

كل هذه طلبات استيفا ؟ .. استيفا لماذا ؟ لاجراءات لا يعلم عنها شيئا سوى الله و .. وناسج هذا الروتين العجيب ! رغم ذلك كان يحاول ما وسعه جهده .

ظن أنه بالنظام يستطيع العمل أسرع .. فلينتهى من الدوسيهات كوما كوما .. أخيرا أنتهى من الرزمة التى الى يمينه .. عجبا .. يرفع رأسه على الأوراق فجأة ليرى كوما آخر قد نبت مكان ذلك الذى انجزه .. وكلما ازداد عملا وجهدا ازداد النبت الشيطانى نموا وارتفاعا . كأنه يرويه بعرقه :

لم تمض شهور حتى كان الشاب المتحمس شيئا آخر .. صبغته

الوظيفة الحكومية بصبغة خاصة كفيره من مئات والوف الانماط التى لتبـدو وكأن مصنعا واحدا .. له قالب واحد قد قام بصبها جميعا ..! أين حيـويته وشخصيته المتميزة من هـذا الانسـان الآلى الذى عبأوه بشريط صغير لا يحوى سوى كلمات قليلة يكررها دائما على سمع المترددين عليه .. « طلب رسمى .. خاتم الدولة .. ثلاثة موظفون تزيد مرتباتهم على ثلاثين جنيها .. ورقة تمغة .. ثلاث صور .. شهادة ادارية .. شهادة الميلاد .. »

على ان الانسان الآلي كانت تدب فيه بين الحين والحين الروح فيثور على الاوضاع ويقرر أن يحرر نفسه من ربقة كل هـــذه الدوسيهات .. عبثا .. كلما انهى طلبا ونادى الفراش ليرحله أقبل يحمل اليه طلبين .. اســتيفا ، لم يكن هذا طريقها الوحيد .. أحيانا كانت تنقض عليه من السقف وأحيانا أخرى تدب اليه على الارض كالحشرات السامة .. ولم تكن الاخيرة لتزيد عليها ، سما ..

مع ذلك أقسم ذات يوم .. لن يبارح مكتبه حتى ينهى جميـع ما أمامه .. كانت عملية شاقة .. جدا .. جاء المســاء وأوقد النور .. انتصف الليل وأكل ساندوتشا صغيرا .. بدت تباشير الصبـاح وهو ما زال يعمل .. لـكن النتيجة كانت تستحق كل هـذا العناء .. لم يبق سوى بضعة طلبات متناثرة ، أقبل زملاؤه وبدأوا يدردشون ويأكلون ويضحكون كعادتهم .. لا يوجـد فوق مكاتبهم جميعا نصف ما كان ينوء به مكتبه .. يتفننون فى التخلص مما يأتى اليهم .. أيضا فان ما يأتى اليهم لم يـكن كثيرا .. هو وحده المختص بطلبات الاسـتيفا .. وحتى اذا تـكدست أمامهم الدوسيهات فانهم لم يكونوا يشـــكون .. لا ولا هم يعمـــلون .. من اين يأتون بـكل هـذا الذى يروونه ؟ ما يحدث داخل بيوتهم وعلى المقاهى عصر كل يوم زائد ما كتب فى جميع الجرائد الصباحية لا تستغرق روايته والتعليق عليه نصف ساعات العمل .. لـكنهم مع ذلك يمضون فى الثرثرة .. من الذاكرة ولا ريب .. أو من الخيال .. !

صاح أحدهم فى ذلك الصباح والجريدة بين يديه « يا الهى .. السيول تغرق الطريق الصحراوى » .. فتح الباب فجأة .. عجبا .. لم يـكن مكتبهم واقعا فى الرست هاوس فمن أين أتت هـذه السيول .. لم تـكن سيول ماء ولـكن سـيول .. دوسيهات ..

اندفعت نحوه .. اضطر الى التشبث بمقعده حتى لا تجرفه امامها .. اعتلت السيول المكتب وهدات فوقه.. عادت الاكداس كما كانت قبل قسمه الرهيب .. كادت الدموع تطفر من عينيه.. احس ساعتها فقط بآلام فى جميع أجزاء جسمه .. لعلها آلام الاجهاد وعمل الليل بطوله .. دون نوم ولا اكل .. بيد أن الآلام كانت اقسى من مجرد آلام ليلة مرهقة بالعمل .. تشبه آلام شخص بدأ محاولة لارتقاء جبل .. قبل القمة بأقدام أفلتت قدمه وسقط مرة واحدة الى السفح .. أخذ يدلك جسده المرضوض فى أكثر من موضع .. من أثر السقطة ! عاد الى التحدى ثانية .. مرة أخرى أقسم قسما رهيبا لكنه مختلف فى هذه المرة .. أقسم ألا يمد يدا الى اى طلب طيلة اليوم .. يعمل أو لا يعمل .. مكتبه دائما ممتلىء مكدس .. لا موضع فيه لقلم ..

انفتح الباب ثانية وتدفق سيل آخر . سيل آدمى هذه المرة .. امتدت أصابع الزملاء جميعا تشير الى حامد .. فاتجه السيل الى مكتبه يحاصره .. بالاجساد والاصوات :

ـ أين أوراقنا ؟ ...

ـ رحلتها جميعا ..

ـ وماذا تم بها ؟ ..

ـ لا أعرف عنها شيئا .. بوسعكم الاستفسار عنها من غرف الحفظ .. كل فى منطقته ..

ـ لا شأن لنا بما تنعته بغرف الحفظ هذه .. انت الذى استلم أوراقنا ..

ـ لكنى رحلتها .. رحلتها ..

ـ لا نعرف سواك .. انت الذى أخذ طلباتنا وانت الذى عليك اعادتها الينا ..

الجميع يتكلمون فى صوت واحد .. الاصوات بدات ترتفع .. كاد يصيبه الدوار .. لم يعد يعى ما يقولون .. أصواتهم تطن فى اذنيه .. معالم وجوههم كادت تضيع أمام عينيه .. لم يعد يرى منهم سوى أفواه مفتوحة .. داخلها ألسنة تدور وتدور .. كأنها تريد أن تنفلت من حلوقهم لتجزر رقبته .. أسرع يدس أصابعه وعينيه داخل الدوسيهات المكدسة .. قلبها رأسا على عقب .. عثر على ضالته اخيرا :

ـ ها هى أوراقكم .. عادت الى مرة أخرى صباح اليوم ..

بطلبات استيفا .. تنقصها مستندات عديدة حتى تصبح مستوفاة .. لماذا لم تستكملوا أوراقكم من اول الامر راحه لى ولكم
– ومن اين لنا العلم بما هو مطلوب .. لماذا لم تقل انت لنا

هو ايضا لا يعلم .. بل لا أحد على الاطلاق يعلم بالضبط ما يطلبون ، حيث لكل جهة طلباتها وشروطها التى تختلف كثيرا عن طلبات وشروط الجهة الاخرى .. وكل مدير يفسر – بالقدر الذى يتصور انه يخليه من أى مسئولية – مواد القانون تفسيرا خاصا ، يعود أصحاب الطلبات يدورون بين المصالح الحكومية المختلفة .. ممتثلين أمام موظفين آخرين ليأتوا آخر الامر بأوراق عديدة يقدمونها لحامد .. يضم حامد الاوراق الجديدة الى السابقة التى كانت تحويها الطلبات ليرحلها وهو يتنهد .. ها هو يخلص من مجموعة أخرى من الدوسيهات .. لكنها كانت أوفى كثيرا مما ظن .. عادت اليه نفس الدوسيهات – كما تفعل كل الدوسيهات – وعليها طلبات استيفاء جديدة من جميع الهيئات .. ما يخطر منها على البال وما لايخطر .. مراكز الصحة .. الدوائر المدنية .. الشهر العقارى .. غرف الحفظ .. اقسام البوليس .. مصلحة الضرائب ، يوما تساءل بدهشة :
– ومصلحة الضرائب أيضا .. ؟
يرد رئيس القلم :
– طبعا .. أليس من الجائز أن على الطالب ضرائب يريد التهرب منها بتغيير اسمه ؟ ..
ويسأل :
– ومجزر القاهرة .. أليس له اتصال بعملنا هو الآخر ؟! ..
كلفته هذه السخرية كثيرا .. لفت نظر من رئيسه ، عندما سأل هذا السؤال كان بين يديه أحد الطلبات .. كتب أمام جهة الصادر .. مجزر القاهرة .. ! عليه بعد ذلك أن يكف عن التحدث فى أى شىء أثناء عمله عدا هذه الكلمة « استيفا ! .. » ولا بأس ببعض المشتقات والمترادفات .. استفانوس .. استيفان .. ستيف .. سيف .. استيفانا .. !
كيف حدث أن هذه الكلمات تجسدت حتى أخذت تدور أمام عينيه بشراسة وهى تطن كسرب من النحل .. أخلقها هو لتهاجمه ؟! .. لم يملك أن راح يحرك يديه كلتاهما بشدة ليهشها بعيدا عن وجهه .. لفتت حركته انتباه زملائه فتوقفوا عن الحديث برهة ..

ثم عادوا اليه .. دون سؤال ؟ ..

خسارة .. خسارة كل ما درسه بالكلية .. نواحى النشاط الفنى والرياضى والادبى .. الاساتذة الاجانب الفطاحل الزائرون ..

بعد كل هذا العناء والتحصيل يجلس خلف مكتب صغير ليتلقى طلبات الاستيفا حيث يبلغها الى أصحابها .. كان يعد نفسه ليكون من قادة المستقبل .. يسهم فى تقدم بلده بدور ايجابى محسوس.. قبل الوظيفة بكامل اختياره .. السبب كلمة .. كانت كلمة مخلصة .. ومن أخلص من فؤاد عزمى ؟ ..

بدأ يتقدم زاحفا دون أن يند عنه أدنى صوت .. الظلام دامس حتى أنه لا يستطيع أن يرى زميله وقائد كتيبتهم فؤاد .. فجأة انفجرت قنبلة .. أسفل أذنه تماما فأصابته بالدوار .. نفس ماحدث يومها بالضبط .. برغم أن قنبلة اليوم لم تزد على أوراق ، كتم ثورته .. الفراش معذور .. يعرف جيدا أنه يشكو من روماتيزم مزمن فى ذراعيه .. عدا أن الدوسيهات كانت جد ثقيلة ..وسقوطها منه على الارض حدث — بالتأكيد — رغما عنه ..

ربت فؤاد عزمى على كتفه :

— لست أدرى كيف تأسى لعدم استطاعتك بعد مشاركتنا فى العمليات .. حتى بعملك فى الامداد والتموين هنا فى بورسعيد تسهم فى معركة النصر .. الجيش نفسه ليس مكونا من حاملى السلاح فقط .. الاطباء والمهندسون والبيطريون جنود كذلك .. حتى المطربين بأغانيهم الحماسية لهم دورهم الملموس ايضا ..

أزاح يد الفراش عن كتفه بغضب :

عدد ماشئت ولكن لى استثناء واحدا ... دواوين الحكومة ..

بهذا التعقيد العجيب لا يمكن دفع عجلة التقدم .. العكس هو الصحيح .. يعرقلونها .. وهو .. لا يستطيع نبذ الطرق الملتوية الى أخرى مستقيمة يراها تمام الرؤية .. يقف مكتوف الذراعين أمام اصلاحات فى متناول يده لكنها ليست فى متناول حقوقه .. أو بالاحرى واجباته .. كعبد مأمور ، قال له رئيسه بدهشة « ماشأنك أنت بالبحث عن الافضل أو الايسر على الناس ؟ .. هل تظن نفسك مشرعا ؟ .. مهمتك استلام الطلبات من أصحابها ثم تبليغهم بالرد .. لا تزيد على .. موصل بين الجمهور والادارات المختصة دون أى تعليق من جانبك أو خروج ولو بخطوة واحدة عن حدود اللوائح ..

لا .. بالثلث .. بكل وطنيته وامكانياته وطموحه .. لم يكن هذا هو الدور الذى حلم دواما بالقيام به .. أبدا .. لا يستطيع الاستمرار .. ليته عمل بالمحاماة .. يؤمن ببراعته فى الخطابة والاقناع .. كثير من أساتذته قالوا له ذلك .. الدفاع عن المظلومين .. اعادة الحق الى نصابه ..

الشخصية لها ثقلهـا الكبير فى المرافعة .. لذلك تتفاوت مستويات المحامين بين لامع وعادى وأقل من العادى .. ليس مغرورا لكنه واثق من نفسه .. ومن قدراته .. كان يجب أن يلتحق بعمل يحتاج الى هذه القدرات والشخصية والاقدام .. ويظهرها وينميها .. لا أن يحشرها فى حيز أضيق منهـا بكثير ، أين حماسه وقدراته الآن ؟ .. دفنها فى أول دوسيه انجزه بعد أن كفنها فى طلبات الاستيفا ..

الاستيفا .. بوسع اى موظف كتابى محدود أن يقوم بها .. مكانه فى ساحات القضاء ليصول ويجول .. لابد أن يصحح الوضع .. ويكتب طلبا يضمنه رغبته فى النقل الى قلم قضايا الحكومة ..

اخيرا ها هو يتراجع .. هذا هو ميدانه .. القضايا ينظرون اليه والاعجاب بمنطقه يلمع فى عيونهم .. لم يكن يترك صغيرة ولا كبيرة يمكن أن يفيد منها موكله ، أما الجمهور فاعجابه أكبر .. يستمعون اليه مبهورين ببراعته وتمكنه .. صامتين تمـاما وكأن على رءوسهم الطير .. حتى حاجب الجلسة يسهى عليه أن يرفع سيجارته الى فمه فتكاد تحترق دون أن يأخذ منها نفسا ! .. المتهم فى القفص يكاد يرقص من السعادة .. بعد هـــذا الدفاع البليغ .. البراءة آتية لا ريب فيها ، وينتشى هو بهذا الاعجاب فيزيد ويفيض .. أخيرا ينهى مرافعته فتضج القاعة بالتصفيق الحاد .. يدق القـاضى على المنصة لكى تصمت الجماهير حتى ينطق بالحكم .. فتح فمه .. نطق :

ـ استيفا ..

ويصاب بالذهول :

ـ حتى سيادتك تقول ذلك .. ؟!

ويحك الفراش ذقنه مرتبكا وهو يهمهم :

ـ سيادتى .. ؟!

يرى النظرة الغريبة فى عينى حامد فينقلب ارتباكه الى ذعر

ـ طلب استيفا ياحامد أفندى .. مثل كل يوم ..

يصرخ فيه حامد :
- كل دقيقة يا حامد افندى .. كل دقيقة ..

يزداد فزع الفراش فيلقى بالطلب ويطلق ساقيه للريح وهو يردد :
- كل دقيقة يا حامد أفندى .. كل دقيقة ..

عموما هانت .. قريبا يصبح الحلم حقيقة ملموسة .. طلبه يسير - ولو أن سرعته لا تزيد على سرعة السلحفاة الا انه على أية حال يسير - بين المكاتب ..

« اشتدى أزمة تنفرجى » .. نطقها حين لاحظ ازدياد الدوسيهات فوق مكتبه بصورة ملموسة فى الايام الاخيرة .. كل هؤلاء يريدون تغيير أسمائهم .. أغلبية الطلبات من اناس ضايقتهم حيرتهم بين اسم مكتوب فى شهادة الميلاد واسم اشتهروا به ولكن .. لماذا ؟ .. لماذا يطلق الناس على شخص ما اسما آخر غير اسمه الحقيقى حتى ليشتهر بالاول ؟ .. سأل بعض المترددين عليه .. ربما ليحـــاول فى تنوع الحكايات أن يمسح ملل العمل المتشابه المتكرر ..

دلع أمهات أو جهل أخريات اكتشفوا - بعد أن أصبح الطفل يمشى - أن هناك اسما آخر اجمل من اسم قرة العين .. حــركة استعلاء ورشاقة يقوم بها طفل يخيل معها لأحد أصدقاء اسرته أنها تشبه حركة الهــدهد فيطلق اسمه عليه .. مرة بعد مرة ، وآخر يفك جميع لعبه فيقولونه عنه المهندس .. ويشتهر بهذا الاسم ، جد أو خال كان الطفل مسمى على اسمه ينتقل الى رحمة الله .. تلقائيا يتغير الاسم حتى لا يثير الاشجان .. !

بعض القصص لا تخلو من طرافة .. سيدة حكت له أنها ولدت بمنزل أسرة والدتها بالصعيد .. ولم تفكر الاسرة فى سؤال والد الطفلة بشأن اسمها استصغارا لشأن « البنت » هناك ، عدا أنهم يعتقدون أن من تطلق على ولد وبنت من ذريتها اسمى محمد وفاطمة فانها تدخل الجنة ومن ثم ارتأوا أن يدخلوا بنتهم الجنة .. هكذا بغير حاجة الى الصلوات والطيبات والعمل الصالح ، فوجىء الوالد بعد عودة الام وطفلتها اليه بالاسم فثــار .. هى تعرف انه على غير علاقة طيبة بشقيقته فاطمة بسبب خلافات حول الميراث فكيف يسمى ابنته على اسمها ؟ .. كيف ينطق هذا الاسم فى منزله كل يوم .. عدة مرات ؟ .. من جهة أخرى كان ضباط المركز - عندما علموا بنبأ المولودة السعيدة التى رزق بها المأمور - قد فكروا فى القيام

بحركة مجاملة .. احضروا اربعا وعشرين شمعة ثم أوقدوها بعد أن أطلقوا على كل منها اسما .. ليظلوا ساهرين بجوارها طول الليل .. قرب الفجر بدأت الشموع تنطفىء .. واحدة اثر الاخرى وكانت آخر شمعة ظلت موقدة تلك التى سموها « آمال » ، تقدموا الى رئيسهم يقترحون هذا الاسم للصغيرة الغالية .. فذلك — ولا شك — فأل حسن بالعمر الطويل ، رأى هو من اللياقة أن يرد على مجاملتهم بمثلها .. أن يطلق على الطفلة اسم « آمال » ...

ويسألها حامد :

— ولماذا لم يغير الاسم فى شهادة الميلاد فورا وكان عمرك وقتها اسابيع ؟ ..

— كسل .. !

دائما ازدواج الاسم كان يسبب لها المضايقات والمتاعب حتى ضاقت بها ذرعا فقررت تصحيح الوضع ، ويدهش :

— لكن عمرك ...

وتقاطعه بسرعة : ثلاثون سنة .. !

لم تكن هى الشجاعة الفائقة دفعتها للبوح بعدد سنوات عمرها .. شهادة ميلادها كانت بين يديه ، ويتمتم :

— تحملت المتاعب ثلاثين سنة ولم يضق صدرك بها سوى هذه الايام فقط .. عندما عينت أنا بالسجل المدنى ؟ !

يبدو أن الناس جميعا احسوا بهذا الضيق فى وقت واحد فالدوسيهات يزداد تكدسها بشكل فاق العادة ، الكوم الايمن ارتفع وارتفع حتى حال بينه وبين نسمة الهواء الآتية من النافذة البحرية .. استعاض بورقة يهوى بها .. ! الذى الى اليسار ايضا حجب عنه شعاع الضوء الذى يتسرب من النافذة القبلية .. حسنا .. فليوقد النور فى عز الظهر ، الكوم الذى أمامه حجب زملاءه جميعا .. ربما كانت هذه الميزة الوحيدة لتكدس الدوسيهات .. يكره صخبهم وضحكاتهم بسبب وبلا سبب .. هذه اللامبالاة التى تصبغ جميع تصرفاتهم ..! أشداقهم التى لا تكف عن الحركة .. دائما يلوكون بينها شيئا اكلا .. تسالى .. كلاما ، لا يهتمون به ابدا ولا يعيرونه أو شكواه أى التفات .

« ولا يهمك .. غدا تتعدل الامور » .. يواسى نفسه رغم ان طلبه تعثر كثيرا .. يبدو انه كان لزاما أن يمر هذا الطلب على جميع موظفى الدولة .. وحتى فراشيها ..! أعيد اليه مذيلا بهذه التأشيرة

« لابد من ايجاد بديل » ، بحث ودار حتى أوجد البديل .. وعاد يقدمه .. ليرجع اليه مرة أخرى بعد شهور ، كان قد قدمه على نموذج ٣٦٧ د بينما المفروض أن يكتب على ٣٦٧ ذ ..! نقطة ؟ نقطة ؟ نقطة تعطله شهورا ؟

درس اللوائح جيدا بعد أن ارتدى نظارة عملها خصيصا منعا لأى التباس أو خطأ . ومن جديد بدأ طلبه رحلته الخالدة .: من الصفر، مع العودة لزيارته بين الحين والحين متحليا فى كل مرة بطلب استيفا .. ورقة هامة .. وثانية .. وثالثة .. وعاشرة .. كان لابد أن يشرب من نفس الكأس التى سقاها للناس .. وان لم يكن عنها هو المسئول ..!

بدأ الامل يتسرب من نفسه مع مرور الوقت .. عاد الى ضيقه وتذمره طبلة اليوم .. احس به زملاؤه ورئيس القلم اخيرا .. ضاقوا بشكواه .. قرر الرئيس ان يتدخل .. جرى بنفسه هنا وهناك خلف الطلب .

أخيرا صدر الامر بنقل حامد توفيق الى قلم قضايا الحكومة ، وجاء الرئيس مسرورا بالدوسيه الضخم وعليه التوقيع الاخير الذى يحل حامد من عمله الرتيب .. ويحلهم هم ايضا من مزاملته الكريهة .. لكن الرئيس يتسمر أمام المكتب .. لم يكن حامد موجودا .. أين ذهب ؟ ربما مل الانتظار فترك العمل من تلقاء نفسه .. ربما كان مريضا فعاد الى منزله ليستريح .. ربما مات .. أو .. ربما اختفى تحت هذه الدوسيهات المكدسة .. الفكرة الاخيرة أقرب الى الاحتمال حيث الاكوام الاربعة اصبحت كوما واحدا .. أو جبلا واحدا ..

لكنه لم يعن برفع البضعة دوسيهات العليا ليتأكد ... فأيا كانت صحة أحد هذه الأحتمالات .. النتيجة واحدة .. لن يضايقهم حامد بعد الآن بتذمره وصياحه بين الحين والحين .. استيفا ..

وضـــع مختلف



وضع مختلف

« زوجى الحبيب ..

ليست هـذه رسالتى الاولى اليك بعد سفرك الى الجبهة .. مع ذلك فالقلم يرتعش فى يدى .. انفعالات ومشاعر شتى تتصـارع داخلى .. لست أدرى بالضبط أيها سبب هـذه الرعدة .. ليت القلم يهدأ قليـلا ، فلدى الـكثير أحب أن أسطره لك ..

أود أولا ان أطمئنك على الاولاد وبعدها أحكى لك عن كل صغيرة وقعت لنا منـذ خطابى السابق ، حتى تشعر كما لو أنك لا تزال معنا .. المحاربون ــ أو المتأهبون للحرب ــ يحبون دائما أن يلموا بأخبـار أسرهم .. كل الاخبـار .. ليس ذلك تقديرى ، فلست انت بأول من يسـافر تلبيـة لنـداء وطنـه ويخلفنى وراءه .. كان « محمـد » أخى .. يشـدد دائما على أن تتضمن خطـاباتى له كل ما يحدث لنا مهمـا كانت تفاهته .. ذلك يسعده ويمسح عنه القلق .

كذلك أريد .. أريد .. أن أعتب عليك ، كيف .. كيف تظن بى ذلك ؟ هل عاشرتنى كل تلك السـنين ولا تزال غير متأكد من أحاسيسى حتى لتروح تتخوف منى ومن غيابك عنى ؟ تفكيرك هـذا آلمنى .. لم تكتف بالتفكير .. صرحت بمخـاوفك تلك لزملائك .. كنت فى شـدة الخجل وزوجة زميلك الرائد فتـحى تحدثنى فى النادى صباح اليوم ، فكرت فى ترك الأولاد والذهاب الى احـدى القاعات الخالية لأكتب لك ، بصعوبة استطعت أن أرجىء ذلك حتى عودتنا الى المنزل .. ثم حتى ينام الاولاد .

لا .. لست أنا التى تتخاذل هكذا .. أنفذ جميع توصيـاتك لى « بجانب توعية الاولاد وبث الشجاعة فى نفوسـهم يجب الا تحرميهم من شىء » صحبتهم الى النادى مثل كل يوم جمعة تنفيـذا لرغبتـك .. كنت هادئة مشرقة حتى بدأت الازمة .. جاء « عم بشير » ليلبى طلباتنا .. سأل :

ـ طبعا سيادة الرائدين طوارىء ؟
وقبل أن تنبس كريمة أسرعت أنا أقول وملء صـوتى الفخر والزهو :
ـ أحمد هناك ، على الجبهة .
وهتف عم بشير :
ـ ربنا ينصرهم ويحميهم جميعا ويرجع لنا احمد بك بالفسلامة
وما كاد يبتعد حتى قالت كريمة :
ـ غريبة .. تبدين هادئة مطمئنة ، بل وسعيدة ..
وضحكت :
ـ وما الغريب ؟
ـ زوجك كان يتوقع عكس ذلك ..
وسألت بدهشة :
ـ كيف ؟ !
أدركت صديقتى انها تسرعت فحاولت تغيير دفة الحـديث ، لـكننى تمسكت بمعرفة الموضوع كله .. لم تجد مفرا من الكلام :
ـ تذكرين طبعا اليوم التاسع من يونيو ؟
هززت رأسى ولم أرد .. وهل ينسى ذلك التاريخ ؟ كنت يومهـا معى بالمنزل فى راحة لبضع ساعات ، وسمعنا النبأ المحزن .. لم ندر ساعتها هل نبكى أم نصرخ .. نصمت أم نتكلم ، نتهم أم ندافع

ثم هدأت أعصـابك كثيرا حتى انك لم تنس أن تقبلنى عنـد خروجك . قبلة خاطفة ، كان يبـدو عليك كمن قرر أمرا وان لم استطع أن أخمنه .

وعادت كريمة تتكلم .. قصت على نبأ ذلك الاجتماع الذى عقدته صبيحة تلك الليلة مع بعض زملائك فى القسم لتسـأل باستنكار « لماذا نحن هنا ؟ لماذا لم نسافر حتى الآن ؟ » وأيد الجميـع رغبتك فى السفر فزدت أنت « سأطلب ذلك رسميا » .

لم تـكن الدنيـا بأكملها لتسعنى وأنا أصغى وهى تحكى ماقصه لها زوجهـا عن ذهابك على رأس الوفد الى مدير الـكلية راجين متحمسين ..

وحدثـكم المدير هادئا « فى أى مكان يمكن أن يؤدى الانسـان واجبـه ويقوم بدوره فى المعركة .. الطلبة الذين تدرسـون لهم تحتاجهم البلد ولا نستطيع وقف الدراسـة » وكنت أنت الذى

انبرى للرد .. « يمكن الاكتفاء فى هـذه الظروف بالتعاليم الفنى .. وأنا لا شأن لى به .. أنا عسكرى قبل كل شىء » ، وكان جـدلا ومناقشات انهاها المدير بعدم اسـتطاعته ارسال اى ضابط دون أن تصـدر له اوامر . وسكت انت على مضض حتى كان الشهر قبل الماضى عنـدما علموا انه كان سكوتا فى الظـاهر فقط .. والحقيقة أن أمر سفرك ظل يؤرقك .. طيـلة هـذه الفترة وانت على اتصال بوحدتك الاصليـة حتى علمت مؤخرا ان الاوامر قد صدرت لهـا بأخذ مواقعهـا على خطوطنا الامامية ، وفي الحـال قدمت طلبـا للمسئولين بالغـاء انتدابك للكلية الفنية وعـودتك لوحدتك .. وعندما وافقوا على طلبك جئتهم هاتفا ملوحا بالامر فى يدك « وأخيرا .. عموما احمد الله ان تأخر سفرى حتى الان .. قلبى يحدثنى ان ساعة الحسم قد حانت » ..

وتردف كريمة وانا ازداد سرورا :

ــ قال لى فتحى « مهمـا حاولت فلن أستطيع أن اصف لك فرحته .. وكأنها أمنية عمره .. لكنه رغم ذلك لم يستطع ان يخفى سحابة قلق خفيفة مرت بعينيه ..

سألته « انت تخفى شيئا »

ورد الرائد أحمد :

ــ فعلا .. أخشى على زوجتى النبأ .. نبأ سفرى .

ودهشنا جميعا « من غير المعقول أن تأسى .. الشعور المعنوى مرتفع جدا .. لدى الشعب كله .. وما نظن واحدة من سيداتنا الا مرحبة بسفر زوجها » .

قال « هـذا صحيح ومفروغ منه للجميع .. بالنسبة لزوجتى الوضع يختلف .. كان والدها أحد الضباط الذين اسـتشهدوا فى حملة فلسطين عام ١٩٤٨ ، وفتحت عينيها طفلة على الـكارثة .. تربت باقى حياتها محـرومة من حنـان الأب ورعايته .. هى وأشقاؤها .. حتى جاءت الصدمة الاكثر ايلاما .. ولم يكن مضى على عرسـنا عام .. حين وقعت أحـداث عام ١٩٦٧ المفجعة .. امتلأ قلبهـا ولم يزل فى بداية سعادته بالحـزن .. وأى حزن ؟ وهل هناك من هو أعز من الشقيق ؟ كانا متفاهمين متحابين لدرجة كانت تدفعنى الى المزاح معهما أحيـانا .. رويدكما .. أوشـك أن أشعر بالغيرة ! لا أعتقد أن هنـاك حزنا أقـوى ممـا شـعرت

به زوجتي .. تعلمون انها فنانة . ولقد تأكد لي ان أحزان الانسان الفنان أقسى كثيرا من أحزان الانسان العادي .. يكون اكثر شعورا واعتزازا بالجميل مهما صغر ، أكثر غضبا للاساءة اذا مست كرامته من بعيد .. نفسيتها تشبه ورق التصوير الحساس .. مجرد سفرى سيماؤها بالقلق .. وربما الانهيار .. ذلك بالطبع لا يمنعنى من المبادرة الى واجبى الذى أشعر به .. لكنى لا أنكر اننى لم أكن لأود لها هذا القلق .. ويضايقنى أكثر أن أتسبب أنا فيه » .

لم تبالغ صديقتى أو تختلق شيئا من عندها .. بعض ما قالته لم يكن يعرفه سواى وسواك ، مثلا عندما سألتك يوما « أليس هناك احتمال لسفرك ؟ » .

فأجبتنى بانه احتمال ضئيل .. كانت شفتاى تختلجان .. نعم حدث .. لكنها أبدا لم تكن اختلاجة الخوف – كما رويت لهم – وانما اختلاجة الامل .. فى سفرك .. واللهفة عليه .. أجل والا .. فمن ينتقم لى منهم ؟ رفضوا تطوعى للسفر ورفضت أنا التدريب على التمريض .. أصبحت أنت أملى .. كيف تتصور أننى نسيت ؟ أن النار فى قلبى قد انطفأت .. أو حتى هدأت ؟ .. مستحيل .. قتلوا أبى وما زالوا يعيشون .. على الارض التى رواها بدمه ، وقتلوا أخى واغتصبوا سيناء .. كانت شبه الجزيرة هذه ملك اخى وملكى من بعده .. امتلكها ودفع ثمنا لها .. حياته .

لو سكتنا لصار الحزن مضاعفا .. ذهب دمهما هدرا وضاعت فدائيتهما هباء وهذا ما أرفضه كل الرفض .. لا .. كان دمهما غاليا .. جدا ، ولن أرضى بأقل من تطهير جميع أراضينا ثمنا ، كان التحليل الحقيقى الوحيد لمشاعرى هو أن وضعى يختلف عن باقى زوجات زملائك .. معك الحق .. تماما .. نعم يختلف .. للجميع الآن ثأر واحد .. الارض .. ولى ثلاثة .

الوطن غال لدى الجميع لكنه عندى اغلى وقد ذهب فداء له .. أعزاء من دمى ، هذه البديهية .. قطعا لن تغيب عنك .. النصر يكون أكثر حلاوة اذا حققه الانسان لنفسه ، والثأر يصبح اشفى غليلا اذا اقتصه صاحبه أو أقرب الناس اليه ، ومن لى يازوجى العزيز سواك .. يأخذ بثأرى ويبرد هذه النار التى ظلت ترعى داخلى طويلا ؟ ..

فلتطمئن حيث انت ، ولتمسح عن نفسك كل قلق على .. فلست انا بالقلقة عليك .. ركز كل تفكيرك الآن فى العـــدو الرابض امامك فهو ـ كما عودنا دائما ـ عدو غادر لا يؤمن جانبه حتى يتم لنـــا النصر باسترداد كل شبر من أراضينا الحبيبة الغالية .. المغتصبة وتعود لنا جميعا بالسلامة .

ومهما طال الامر فلن اتخاذل أو انهار لـكنه شعور الامل فى النصر الاكبر المؤيد المؤزر يملؤنى .. شعور اكثر من واثق .. هل تريد دليلا ؟ منـذ أيام زارتنى مجموعة من جـاراتى بالعمـارة السؤال عن أخبـارك والتهنئة ببوادر النصر .. ظللن طويلا يعددن ما قام به أبطالنا وسعادتهن ومشاعرهن وحتى مشاعر أطفـــالهن حتى سادت فترة صمت قصيرة قطعتها مدام عواطف موجهـــة حديثها الى :

ـ من يوم ٦ اكتوبر وعندى سؤال يلح على وأريد أن أوجهـه اليك .. من مدة وأنت متفائلة .. الوحيدة كنتم .. جميعنا كنا نتخبط فى أعمـــاق اليأس .. الدنيا من حولنا قاتمة لا نكاد نرى فيها بصيص ضوء قريب .. الاك .. وكنت دائما تحـاولين بث روحك هـــذه فينا .. تطمئنينا بأن الفجر آت قريب وان سحابات اليأس حان انقشاعهـا .. وتبشرينا بأننا عاجلا سنمحوا كل آيات الذل عن بلدنا .. الآن ظهر أنك كنت محقة فى تفاؤلك ولكن .. لـماذا ؟ رغم كل القتامة المحيطة بنا كنت متفائلة ؟ !

وضحكت ، وانبرت حرم الدكتور محمود ترد نيابة عنى :

ـ وهل هذا سؤال بالله عليك يا عواطف ؟ طبعا كانت متفائلة بل وواثقة لان .. زوجها البطل .. وزملاءه .. هناك ..

كان أجمل يـــوم



كان أجمل يوم

واخيرا .. ها هو فى طريقه الى شـــقة طارق .. رغم كل العقبات ، الفـــكرة خطرت له أول وهلة عنـدما أخبرته مدرسة فصـــله انه لا دراسة للفصـــل كله اليوم حيث الـــكبار يمتحنون امامه ســاعتان يستطيع أن ينفقهما فى اللعب عند طـارق .. ولا بأس أن يقول لوالده بعـد ذلك عن الحقيقة حتى لا يدخل النـار كمـــا أكدت له أمه عن جزاء الكاذبين ، ما الذى يستطيع عمله عندئذ سيضربه ؟ ..

ثمن تافه لمتعة كبرى وسـعادة عظمى .. من بوسـعه أن يرى لعب طارق ولا يقول ذلك ؟

المهم لن يستطيع أن يعيـد عقـارب السـاعة ليمنعه عن الذهاب كما فعل حتى الآن ..

والده يجلس كالاسد ــ كعادته دائما ــ أمام باب العمـارة .. يبدو أنه لن يستطيع فعلهـــا ليته يذهب الى أى مكان ، لـكن الامل كان ضئيلا .. فهو لا يبارح دكتـه أبدا الا اذا كان طلب أحد الســكان مستعجلا وصبياه غائبان .. وكان صبياه جالسين من حوله الى يمين والى يسار .. مستحيل ان يخطر لثلاثة من السكان شراء أشياء فى فترة واحدة .. فجأة تذكر سلم الخدم.. انه حتى لو ولج من المدخـل الرئيسى فلن يستعمل المصــعد .. وما حاجته به ؟ انه يصعد الادوار الاثنى عشر جميعـا فى المناسبات ليرى الالعاب النـارية من فوق السطح فهل ستتعبه اليوم خمسة؟ لم يتردد

هو دائما ينفـذ أوامر والده . أغلبها كان معقولا .. اليـوم لا حق له فى رفضه فاللواء بنفسه هو الذى دعاه .. بل وأكد عليه

حادثة تبـدو غير قابلة للتصديق يحلو له كثيرا أن يستعيدها لنفسه ولاصدقائه فى المدرسة وقبلها كان لابد أن يستعيد الحادثة الاولى .. العناية الالهية وحدها من غير شك هى التى ســاقته

الى المدخل الخلفى للعمارة فى ذلك اليوم بل وتلك اللحظة بالذات فاذا به يسمع صرخات واهنة ضعيفة .. جرى الى مصـــــدرها ليرى ذلك المنظر الرهيب !

بنت اللواء عبد الخالق متدلية حتى راسها فى فتحة المجـــارى ومتعلقة بيديها الضعيفتين فى حافة الفتحة .. انطلق يجرى الى والده وصبيانه الذين لحقوا الطفلة على آخر رمق .

ما كادوا ينتشلونها حتى أغمى عليهـــا ، الله وحده يعلم ماذا كان منظر اللواء عبـد الخالق حين رأى الطفلة اذ كان ذلك منظـــــره بعدها بنصف ساعة ، كالوحش الهـــائج ، رغم انه كان سبب نجاتها الا ان منظره اخافه حتى اضطر الى الانزواء تحت دكة والده وصوت اللواء يهدد ويتوعد يصله حتى هناك .

وجاء بوليس النجد والمطـافىء والاسعاف بناء على استدعائه ..

انحصرت المسئولية أخيرا على الزبالين الذين كانوا يمســحون السلم والفناء واضطروا الى كشف غطاء المجارى لتصريف الميـاه ثم نسوا تغطيته . تشبث اللواء بأول الخيط واصر على معـاقبتهم .. زادت ثورته عنـــدما امسك بعصـــا زعافة الحائط ودلاها فى الفتحة فـكادت تختفى بأكملها .. القى بالخشبة بعيدا وجاس على الارض فى حالة ذهول .

ظل فترة يخبط كفـــا بكف وهو يردد « لا حـــول ولا قوة الا بالله .. لولا لطف الله والولد الصغير لضاعت البنت وما أبشعها ميتة .. ربما لم يعلم بأمرها أحد وظللنا نبحث عنها العمر كله .. هـــذا اهمال جسيم .

ولا يشبع فضول السامعين عن مدى ما نفذه اللواء من تهديدات سريعا ما يقفز الى الصـــــورة الثانية .. التى كانت على عكس الاولى .. جميلة مورقة .. يكاد يقسم انهـــا المرة الاولى التى رأى فيهـــا ــ هو أو غيره ــ اللواء عبد الخالق يضحك ، لمـــاذا هـــو متجهم دائما .. يشبه منظر أبيـــه عنـــدما اختلف معه صـــاحب العمارة السابقة ففصله وظل طويلا يتردد على مقهى النوبيين .. ثم يعود مقطبا .

أيامها سمع أكثر من مرة كلمة « خالى شغل » هل اللواء أيضـــا « خالى شغل » لكنه غنى جدا . لعب ابنـــه وحـــدها فى غرفتـــه الصـــغيرة تـكفى لفتح محل لبيع اللعب .. ملابس أولاده الفخمة

والسيارات الفارهة والسائق تلمع على ذراعه الاشرطة .. لا يملك أبوه عشر هذا ولا يكف طول النهار عن الضحك .. مع ذلك ما شأنه هو وتقطيبة اللواء .. المهم انه فى تلك المرة الوحيدة الخالدة التى ضحك فيها كان يضحك له هو .. أكثر من ذلك داعب شعره بأصابعه .. هل كان فيها كهرباء ؟ كاد جسمه كله يرتعش ، ابنك هذا يا عم عبده ؟ .. يبدو ان الضحك يعدى ..

أبوه أيضا ضحك وهو يرد بالايجاب .

فعاد اللواء يسأل :

ــ هو الذى رأى الحادثة يومها .. اليس كذلك ؟

ــ نعم .. الحمد لله .. جاء ساعتها يجرى بأقصى سرعة .

ــ يبدو انه ولد نبيه .. اسمع .. دعه يأتى عندنا يوما ليعلب مع طارق .

رد والده بغمغمة لا تكاد تبين . فعاد اللواء يؤكد :

ــ ضرورى .. ضرورى من حضوره .. وسأكون ــ وكذلك طارق ــ مسرورين من زيارته .

لماذا يرفض والده اذن . لا يستطيع أن يحضر له لعبة واحدة من عشرات اللعب التى عند طارق ثم يحرمه من فرصة كهذه تهبط عليه من السماء ، لم تكن أول مرة يقف فيها هذا الموقف يوم نادته حرم الدكتور مؤمن وأعطته قرشا ليشترى لها علبة سجائر .. اعترض بشدة وأعاد لها القرش مؤكدا ان صبيه سيعود خلال دقائق .. كانت تلك أوامره دائما « لا تأخذ نقودا من أى ساكن » مع انه هو يأخذ منهم جميعا . هل يفضل مكسب صبيانه على مكسب ابنه ؟ لم يكن يستطيع مناقشة ابيه لذلك حمد الله ان حرم الدكتور عمدت الى مناقشته .. رد عليها بكبرياء :

ــ لن يكون خادما . يكفى أبوه .. أحرم نفسى من أشياء كثيرة كى أعلمه حتى يصل الى مستقبل افضل .

ــ وذلك لا يتعارض مع تلبية طلب أى ساكن .

ــ بل سيشب ونفسيته معتادة المهانة .

ــ أى مهانة ؟ .. انك معقد .

ــ اننى حر فى ابنى واذا كنت متعجلة سأشترى لك انا ولكن ابنى لن يخدم أحدا حتى يستطيع أن يملأ مركزه عندما يصبح من السادة .

لم يفهم شيئا يومهـا وعاد والده يؤكد عليه ما سبق من أوامره
ــ اعتبر نفسك كأحد أطفال السكان .. هل يستطيع ســاكن آخر أن يرسلهم لقضاء احد شئونه لقاء قرش ؟

اذا كان حقا يراه مساويا لأبناء السكان فلماذا يمنعه من تلبية دعوة اللواء ؟ .. قال بدهشة :

ــ هل تعتبرها حقا دعوة ؟ كانت كلمة .. مجرد كلمة .. ربما نسيها ثانى يوم .. ربمـــا اعترضت زوجته .. ربمـا بدوت فى عينها قذرا .. ربما تعالى ابنه عليك ورفض اللعب معك .. لمـاذا تعرض نفسك للسخرية والطرد ؟

لا .. أبوه يبالغ .. طارق لطيف .. أكثر من مرة تحدث معـه بود عما شـاهده فى التليفزيون .. اللواء أيضا ليس طفـلا يقول الكلمة ويرجع فيهـا .. ألم يقـل أبوه ذلك عن نفسه ذات مرة ؟ الشعرات البيضـــاء فى رأس اللواء أكثر منهـا فى رأس أبيه .. زوجة اللواء هى التى يخشى منها حقـا متعجرفة للغاية. جلس على السلم دفعة واحدة .. ما العمـل لو لم يكن اللواء بالشقة ؟ هل يكتفى الخـــدم بطرده أم يضربوه على جرأته ؟ دق قلبـــه الصغير بعنف لكن ساقيه لم تطاوعاه على النزول .. نافذة الجنـة مغلقة كعادتها منذ شهر وهـذا ما ضاعف عذابه .. قبل هذه الموجة الباردة كانت شرفة حجرة طارق المطلة على السلم الخلفى دائمـا مفتوحة كان يسره مجرد مشاهدة اللعب المدهشة من بعيـد .. أروعهـا السيـارة الحمراء .. أكثر من مرة تصور نفسه هو ــ وليس طارق الجالس داخلهـا يتجول بها فى « الفراندة » حـول المرجيحة الـكبيرة ذات الالوان البديعة والـكرسى الذى على هيئة اوزة .. متفاديا بمهارة الحصـان الخشبى الهـــزاز والدراجة الصغيرة .. اعادت مناظر اللعب فى خياله القوة والحماسة الى قلبه فعاد يكمل السلم . آن للخيال اليوم أن يتجسد .. تلك مكافأته الوحيدة .. ماذا اســتفاد من الورقة المالية الكبيرة ؟ .. لم يكن شبح اللواء داخل سيارته قد اختفى عن ناظـــريه . بعد حين مد أبوه يده وأخذها .. أقفل فمه على سؤاله فأطل من عينيه .

أجاب الوالد :

ــ والدتك قاربت الولادة ..

كان والده يعلم من أســابيع ان والدته قد قاربت على الولادة

فهل كان يتوقع أن ما حدث سيحدث ؟ عموما لا بأس .. فالدعوة بالنسبة له أجمل ولن يعاون والدته فى وضع حملها أن تحل محله.

قبل أن يعود شبح اصبع والده للمثول أمام عينيه محذرا كانت أصبعه هو تضغط زر الجرس .. بالكاد استطاع افهـام الخادمة التى شهقت مستنكرة ..

رجاها بلهجة هى مزيج من التوسل والتصميم معا أن تبلغ سيادة اللواء .. عادت اليه وقد تغيرت سحنتها .. سار خلفها واجف القلب .. هز رأسه هزة ذات مغزى « لم تكن مجرد كلمة قالهـا اللواء يا أبى .. فى طريقه الى الباب مع الهانم قابلنى ورحب بى .. بل وأكد على خادمته ان تقدم لى شيكولاتة .. حمـــدا لله

انهم خارجون .. سيستطيع أن يأخذ حريته فى اللعب .. ولن يخشى أن ترتفع انغام الكمان أو تعلو فرقعة البندقية او يحدث القطار الكهربائى ضجة أثنـاء مسيره .. طارق أيضا قابله بحفاوة .. دهش للحقيبة فى يده .. اضطر للرد على سؤاله :

ــ اذهب للمدرسة بعد الظهر ..

ــ اذن أرنى خطك فى العربى .. ان والدى يقول ان خطى ردىء ..

لم ينتظر الرد وبادر بفتح الحقيبة وانطلقت فرقعـــة .. لا .. لم تكن بداخل الحقيبة قنبلة زمنية .. أسرع بفتح علبة الكبريت الصغيرة ليهدىء من روع طارق .. الخجل يعوق حركته .. لماذا لقيه اليوم ؟ وما الذى دفعه لأخذه ؟ لعب به فى حياته كلهـا مرات معدودة .. لدقائق .. وبعدها كان يتركه حيث وجده .. أول مرة يضعه فى حقيبته ماذا سيقول عنه طارق الآن ؟

صدق والده .. لم يكن من الصواب أن يصعد للعب من ابن اللواء عبد الخالق .. هل تحوى حقيبة طارق المدرسية حشرات ؟ كما توقع صرخ طارق منزعجا :

ــ صرصار .. صرصار ..

لا فرقع لوز .. أهون .. الصرصار اكثر قذارة .. كأنما هو يقدم اعتذارا .

ــ بل هو فرقع لوز ..

ــ صحيح ..شكله ليس كشكل الصرصار .. لكنى لم أره من قبل قط .

ـ هو نادر .. يمر أحيانا عام واكثر دون أن نرى واحدا منه.
ـ ولـكن لماذا تحتفظ به ؟

هز كتفيه ..
سأل نفسه هذا السؤال من ثوان ..
لم يجد ما يرد به سوى أن يقول
« انظر » وضع سبابته على ظهر الحشرة الصغيرة فانطلقت تقفز قفزة عالية وهى تطرقع بذلك الصوت الغريب ..

أفاق طارق من ذهوله ليضحك عاليا .. سأل باهتمام:
ـ هل يفعل ذلك اذا لمسته انا ، أسرع يجرب ، وتكررت الحركة وتـكررت ، وفى كل مرة يزداد انبهاره .. بدأ الهدوء يتسلل الى نفس بكر .. بل السرور .. والزهو ، لـكنه ما لبث أن بدأ يضيق زادها طارق بعض الشيء ، لا يا طارق .. ليس فرقع لوز باللعبة الممتعة الى هذا الحد .. أنا نفسى .. رغم حرمانى من اللعب . لم اكن اغتبط به هكذا ، ترمومتر السرور بدأ ينخفض بنفس نسبة ارتفاعه عند طارق .. هتف الاخير :
ـ ماذا لو أركبناه طائرة ؟

أسرع الى بعض أوراق القص واللصق .. عمل دائرة وبللهـا ثم وضع فوقها فرقع لوز .. لصقت الورقة ببطنه .. لمسه .. قفز بالورقة ، وقفز طارق أيضا وقد استخفه المرح :
ـ الطائرة ينقصها ذيل ..
بدأ يعمل فى تأن وعناية . عمل الذيل ليس سهلا .. أوراق عديدة تقص وتربط بخيوط وتلصق . أسند بكر رأسه الى كفـه .. لكن الضيق يمنحه بعض الجراة ..
ـ الا تلاعبنى ببعض لعبك يا طارق ؟

هتف بدهشة :
ـ طبعا .. طبعا .. دقائق ..
قفز فرفع لوز بالذيل .. لا شك ان شكله كان مبهجا جدا والا لما هلل طارق كل هذا التهليل أما هو فرآه سخيفا غاية السخف:
ـ ما هـذا الصندوق الذى حط فرقع لوز بجواره ؟ ..
ـ هذا انسان آلى ..
ـ ماذا يفعل ؟ ..
ـ انه رائع .. يسير بقدميه وعلى شاشة التليفزيون فى صدره

تتوالى مناظر الفضاء البديعــــة .. أنظر .. وانطلقت الفرقعة ..
صاح بدهشة :
ـ لم ألمسه ..
رد بجفاء :
ـ أحيانا يقفز وحده ..
ـ لـكنه اختفى .. ترى أين ذهب ؟
ـ ماذا قلت عن هذا الانسان الآلى ؟
أشاح بيده :
ـ أدره أنت يا أخى وتفرج عليه ..
ـ لـكن كيف ؟
ـ ضع السلك فى رأسه ..

لـكنه لم يعرف .. خشى أن يفسده .
يستطيع أن يدير القطار :
ـ أين هو يا طارق ؟ ..
تلفت طارق حائرا :
ـ لا أدرى والله .. آه ها هو ..

قفز أسفل الدولاب ليخرج ممسكا بفرقع لوز ..
ـ هل عطل .. ؟ ألمسه فلا يقفز ..

أحس بالشماتة بل لم يستطع أن يخفى سخريته :
ـ ربما ليس له مزاج ..
أثار ذلك اهتمـــام طارق وتشبث باللعبة أكثر .. أول مرة يلعب بلعبة لها ارادتها الخاصة فلا تستجيب لرغبته المطلقة وتدور عندما يريد .. أشاح بكر براسه فاذا به يلمح ـ من خـلال النــــافذة الشمس وقد أوشكت على المغيب .. لم يبق الا القليل على موعد عودته من المدرســـة ويجب ألا يتجاوزه حتى لا يزيد قلق والدته عليه من عقاب والده .. غمغم بأسى :
ـ كادت الدنيا تظلم .
تنبه طارق .. هــذا صحيح .. ترك فرقع لوز ومضى .. لا.. دولاب اللعب من هنا يا طارق ..

لـكن الاخير ضغط زر النور ثم عاد الى لعبتــه الجديدة مكررا محاولته للتغلب على عنادها المفاجىء . فيم بقاؤه ؟
ـ سأنزل يا طارق ..

ـ لم نلعب بعد .. اسمع .. هل تستطيع ان تتركه لى ؟
ـ بالتأكيد .. اننى لا أريده قط .
ـ أذن سأدعه الآن .. أين علبته ؟

فتح دولابه ولم يستطع غلقه .. كانت بين ذراعيه الصغيرتين كومة كبيرة من اللعب وضعها أمام بكر وأخذ منه علبة الكبريت .. لكنه لم يودعها كنزه الثمين .. رفع اصبعه وكأنه أمام مدرسته :
ـ آخر مرة والله العظيم ..

وقفز فرقع لوز .. كانت قفزته الأخيرة فعلا .. كاد يصطدم بوجه الخادمة وهى داخلة تحمل كوبا من اللبن .. شهقت .. أسرعت تخلع شبشبها وفى ثانية واحدة انتهى كل شىء .

صرخ طارق :
ـ ما هذا .. ؟
ـ فرقع لوز ..
ـ ما هذا الذى فعلته ؟
ـ قتلته ..
ـ لكننى كنت ألعب به .. لقد أهدانيه بكر .
ـ أهداك ؟ ونعم الهدايا .. وماذا كان عسى أن يهدينا ابن الست أم بكر سوى البلاوى .. كنت مندهشة لوجوده .. كان يجب أن أخمن .. لكن الغلطة ليست غلطته بقدر ما هى غلطتنا نحن .

رفع طارق الشبشب .. يا للكارثة .. ما هذه الفتافيت المتناثرة ؟.. ذهب فرقع لوز الى الابد .. لا يستطيع أحد اصلاحه كأى لعبة تتحطم .. أيضا لا توجد محلات تخصصت فى بيعه وتذكر كلمات بكر « يمر أحيانا عام وأكثر ولا نرى واحدا منه » كانت حسرته شديدة .. لم تمكنه من النطق حتى وهو يتناول من يدها كوب اللبن .. لماذا ركز نظره على وجهها كل هذا الوقت .. هل كان يبحث عن كلمة تعبر عن سخطه وغيظه وبغضه الشديد لها ؟ يبدو أن جميع الكلمات لم تكن بكافية .. فجأة .. قذف بكوب اللبن على السجادة بأقصى قوته .. خبطت الخادمة على صدرها مروعة :
ـ اقسم بالله العظيم لن أمسحه حتى تأتى الهانم وترى .. وانت

ياوش البلاوى .. اعجبك هـذا ؟ هيا انزل .. اتفضل .. بسرعة

صاح طارق :

ـ اتركيه ربع ساعة .. لم يلعب بعد .

ـ ولا دقيقة .. حان موعد حمامك .

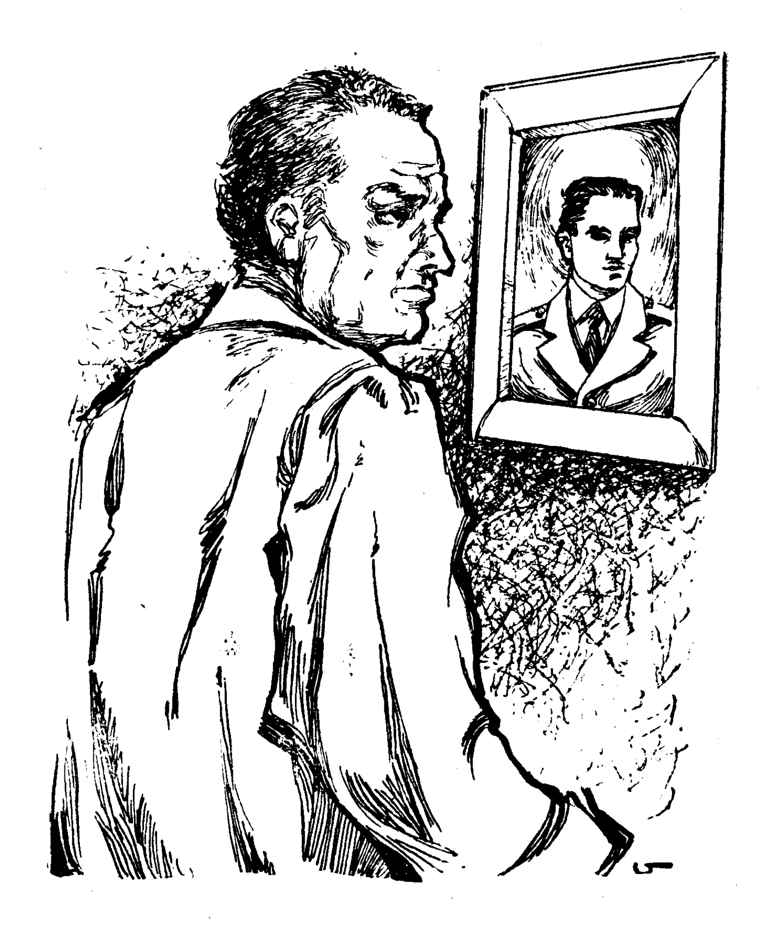
ـ حسنا يا بكر .. اصعد مرة أخرى .. لا تهتم بكلامهـا كان اليوم أجمل يوم عندى .

صاحت . وصورة مكبرة لتعب مضن ينتظرها فى تنظيف السجادة تكربها .. بعد أن ظننت أن شقاء اليوم قارب الانتهاء :

ـ بودى أن يفعل .. حتى أكسر رجله .

أسرع يقفز السلالم وفى نفسه يقين راسخ ان فرقع لوز لم يمت .. فقط كانت أول مرة يعرف فيها انه يحس أحيـانا ببعض المشاعر .. السعيدة عندما يلمس ظهره شخص فيقفز الى أعلى .. والمريرة عندما يدفعه شخص آخر فينطلق قافزا الى أسفل .

عدت .. ولم أعد ..



عدت .. ولم أعد

لا يدرى بالضبط كيف استطاع لسانه ان يتفوه بهذه الـكلمات .. هو نفسه بـكى بشدة يوم بدأ الرجال ينضمون لمراكز المقاومة الشعبية والدفاع المدنى وغير ذلك من منظمات .. تطلع الى صورة ابنه وغمغم يناجيه فى حسرة :

ـ البركة فى زملائك .. ابنـاء بلدى .. ينتقمون لك .. كلهم ابوك .. كلهم اخوك .. كلهم أنت » ..

فكيف اذن وقف من فكرى هذا الموقف ؟ .. كيف طاوعه قلبه أن يصدمه ؟ كان الفرح يملأ صوته :

ـ لقد تطوعت مع رجال المقاومة الشعبية ..

ولم يستطع ان يرد عليه فى الحال .. لفرط غضبـه ، اخيرا نطق أو صاح :

ـ كيف تتطوع ؟ وباذن من ؟ هل تظن نفسك طالبا باحـــدى المدارس ؟

وبهدوء شديد جاءه صوت فـكرى :

ـ لم اظن هـــذا أمرا يتحتم على الحصول فيه على اذن .. تصرف طبيعى .. تلقائى .. كالتنفس ..لا أستأذن فيه احدا ..

وزاد غضب الاستاذ منير :

ـ كيف ؟ تعمل فى منزلى وتتقاضى اجرا مقـــابل وقتك .. فهو ملـكى ..

ـ اعمـــل فقط .. اى لم ابع نفسى نهائيا ، وعمـلى كخـــادم لايمنعنى من أن اتخذ الطريق الذى أومن به ..

ـ بل يمنعك ..

ـ اذا كان يمنعنى فسأستغنى عنه ..

ـ هكذا ؟ بعد كل ما صنعته من أجلك ؟ لم أعاملك يوما كخادم .. بل كابن ..

ـ وانا مقـدر كل هذا واعتز به .. ولا افتأ اردده للجميع .. « يعاملوننى كفرد من اسرتهم فى المأكل والملبس وحسن المعامله » ، ولا اود ان اتركك ابدا ..
ـ اذن لا داعى للتطوع .. ليس فرضا على جميع المواطنين.. هل تطوعت أنا ؟
ـ وهل يعقل ان ينتظر منك احد .. فى ظروفك الصحية هذه أن تتطوع ؟
ـ قلتها بنفسك .. من تمنعه ظروفه فهو معفى .
ـ لا أبحث عن مبررات الاعفاء .. ولم يجبرنى احد حتى احاول أن افعل ، ولو لم يتطوع هنـا فى بور سعيد كلهـا سوى عشر شبان فقط .. وليس عشرات الالوف لـكان حتما ان اكون أولهم ..

لم يستطع أن يخفى تهكمه .. لماذا ؟

ولاول مرة ينسى فـكرى تأدبه وهو يحادث مخـدومه فصرخ فى وجهه :
ـ ألا تعلم لماذا ؟ ألا تعـرف لـماذا أشتغل خادما وكنت أيام دراستى أحلم أن أكون مهندسا ؟ .. هم السبب الا تعرف لـماذا يعيش اخوتى ووالدتى على الكفاف حتى أنهـا لا ترتدى جـديدا الا عندما تستغنى احدى بناتك عن شىء من ملابسها ؟ هم السبب .. هم السبب فى يتمنا وكل نكبتنا وانت تعرف ذلك ..

قدر الاستاذ منير ظروفه فلم يثر لصراخه .. على العكس حاول تهدئته بالتلطف معه :
ـ اعرف كل ظروفك يا فـكرى ولـكن .. ماذا عسى سيزيد بتطوعك ؟ البلد مملوءة بالمتطوعين ورجال المقاومة الشعبية وحتما سينتقمون لأبيك الشهيد ..
ـ ولـماذا لا أفعل أنا ؟ .
ـ لا امنعك لمجـرد التعنت ولكنك تعرف أننى مريض وأعيش وحيـدا منذ زواج ابنتى واحتاج لوجـودك معى ، رجال الجيش فيهم البركة .. عدا الجيش الاحتياطى الذى سارع يلبى النـداء .. هؤلاء مدربون والفرد منهم له اهميته ، وهم ينوبون عنـا جميعا فى تأدية ضريبة الكفاح ..
ـ عنك أنت .. جائز ، اما انا فبصحتى وعافيتى فلماذا ينوب عنى أحد ... ما الذى يمنعنى أن أؤدى نصيبى بنفسى ؟ ..

كان صبر الاستاذ عندها قد نفد فصاح ثائرا :
— عملك ..
— لكن تطوعى لن يعوقنى عن مباشرة عملى .. فلن اذهب سوى ساعتين فى الصباح بعد انتهائى من طهو الطعام .. وثلاث ساعات بعد الظهر .. من السادسة حتى التاسعة ..
وزادت ثورة الاستاذ منير :
— ماشاء الله .. وبعد الظهر ايضا ؟ .. مرتان فى اليوم .. لا يكفى ؟ .. اذهب واقض النهار كله هناك .. اسمع .. لقد تناقشنا طويلا .. كل تلك المجادلة لم يكن لها من داع ، باختصار انا لا اقبل هذا الوضع .. لا اقبل أن يتركنى من يعمل فى منزلى كل ذلك الوقت .. ولك الخيار ..
— تأكد يا استاذ اننى اذ اتركك .. افعل وانا فى اشد حالات الألم والاسف . لك فى نفسى قداسة الأب ولكن .. لو كان والدى نفسه هو الذى يخيرنى لتركته ..
حتى بعد خروج فكرى كان الاستاذ لا يزال متمسكا برايه معتقدا انه كان على حق فى كل ما قاله ، خبط كفا بكف وهو يتساءل فى نفسه :
— عجيب والله .. ما الذى جرى لهذا البلد .. ؟
الشباب والبنات والرجال يتسابقون الى الحرس الوطنى والمقاومة الشعبية والتمريض والدفاع المدنى .. كان هذا الحماس يثلج قلبه فهى بلده وقد شهد بعينيه كم قاسى اهلها — تماما مثلما قاسى هو نفسه — منذ حوالى عشر سنوات .. وقد حانت ساعة الثأر ولكن كل شيء يكون جميلا ومقبولا بالعقل .. فكرى لم يحمل سلاحا عمره .. ما قيمة تطوعه وهو فرد وهناك غيره مئات الالوف ..
أرجأ اتصاله بمكتب المخدم الى ما بعد الظهر .. ربما غير رايه، كان يشعر بالأسف لخروجه .. ليس فقط لأزمة الخدم المستحكمة وانه قد يتعب فى العثور على طاه جديد ولكن لانه يحب فكرى كثيرا ، كان قد فقد ابنه بيد الغادرين حين هب مع باقى شباب بلده لملاقاتهم ايام العدوان الاثيم ، وعندما جاءوا له بفكرى وعرف قصة استشهاد والده الاليمة فى نفس العدوان ادهشته مفارقات القدر .. احس بشعور غريب .. كل منهما يعوض للآخر من فقده .. ومع مرور الوقت على الصبى فى منزله كان يزداد قربا

من قلبه ومن نفسه ، كذلك من نفوس زوجته وابنتيه سوسن وهناء ، امين خفيف الظل .. هادىء الصوت ، لم يكن الاستاذ يعامله فقط كما لو كان ابنه ولكن هذا كاد يكون شعوره نحوه فعلا .. وكان هذا الشعور هو الصدى الطبيعي لعواطفه هو الآخر تجاه الاسرة .. يشعر ويتصرف كما لو ان المنزل منزله وكل مافيه ملكه شخصيا .. يهتم به وقلبه عليه .. وضع الفتاتين في عينيه ويخشى عليهما من الهواء اذا ما قام .

ماتت زوجة الاستاذ منير وتزوجت بنتاه ولم يعد له ومعه سوى فكرى .. لكنه كان مضطرا .. لم يكن متعنتا معه .. تماما كما قال له .. لا يستطيع أن يستغنى عنه ساعة أو بعض ساعة ، وهنت ذراعاه فكان هو ذراعيه .. اغتال الشلل ساقيه فكان له هو الساقين .. ماذا يفعل اذا احتاج الى فنجان من الشاى .. أو حتى كوب ماء ..؟ اذا زمت الجو فمن يفتح له النافذة .. ثم من يغلقها اذا رطب الهواء ؟ .. كيف الوصول الى كتاب يضيع به وقته حتى لا يقضيه كله مع تلك الذكرى التى يتقطع لها قلبه .. ذكرى ابنه الحبيب الوحيد ؟ .. من يفتح الباب وقد يكون الطارق صديقا جاء يسليه ؟ من يؤنس وحشته عندما تطفأ الانوار ليلا – كما يحدث كل ليلة – ويخرس كل الاصدقاء .. الكتب والتليفزيون وأوراق اللعب التى لم يكن يهوى من جميع العابها سوى لعبة الصبر .. حيث يستطيع أن يلعبها فرد واحد

كان عنده ما يبرر به لنفسه قسوته على فكرى ذلك الصباح .. لم يطلب منه يوما اجازة ليذهب الى السينما مثلا كغيره من الشباب ، حتى بعد زواجه لم يكن يتركه ليلتين أو ثلاث فى الاسبوع – الا بعد أن يتأهب للنوم ، لو أنه طلب التغيب قبل وفاة المرحومة .. أو حتى قبل زواج هناء لما عارض . لكنه يأتى الآن – وقد اشتدت حاجته اليه – ليتطوع .. ثم يصر عليه .. بل يفضله على البقاء كلية فى خدمته ..

لم يتوقع أبدا أن يأتى يوم يتركه فيه هكذا .. ببساطة ، بل هو يترك العمل نهائيا .. فمن الصعب أو المستحيل أن يوفق لعمل آخر فى مثل هذه الظروف خاصة ومع اشتراط التغيب شطرا كبيرا من اليوم .. وهذا آخر ما كان يتصوره الاستاذ منير أو أى شخص آخر يعرف ظروف فكرى وأسرته .. بدأت

حياتهم فى رخاء .. عمل والده كان يدر عليه الكثير ، حتى وقع العدوان الذى لم يميز بين الاهداف العسكرية والمدنية . انتهى العدوان بانتصارنا وخروجهم .. كان الثمن عددا من الشهداء الابرار .. وكان والده ضمنهم ، أصبح وهو فى التاسعة عائل الاسرة اضطر لترك الدراسة ليعمل فى بعض الحرف الصغيرة وبعض المنازل حتى التحق بخدمة الاستاذ منير منذ أعوام طويلة ، بعد أن كبر وزاد أجره رفض أن يعمل أحد اخوته فى بعض المحال .. أخذ على عاتقه أن يتكفل بهم حتى ينتهوا من دراستهم الفنية المتوسطة وقد قررتها الدولة لهم بالمجان ، أمه كانت تعاونه بالغسيل مرة أو مرتين فى الاسبوع حسب ظروف صحتها .. كان المرض الذى أصيبت به قليلا بازاء ما شهدته ، لذلك كان اعتمادها الاكبر على مرتب فكرى تقسمه بحرص .. جنيه ايجار للغرفة الصغيرة التى يقطنونها وآخر للجمعية الدائمة التى تقبضها كل ستة اشهر لكسوة الأولاد أو لمواجهة أى طارىء آخر وثالث لتموين السكر والشاى والزيت وخلافه ، والجنيهان الباقيان تشترى بهما دقيقا أول الشهر فاذا ساعدتها صحتها وقامت بالغسيل فى أحد المنازل أتت بشىء من اللحم أو الخضار أو السمك والا فالمهم وجود الخبز ، كانت تعتذر له فى كل مرة « سامحني لا أستطيع أن أترك لك ولو جنيها واحدا تشترى به حذاء أو كوفية مما يفرح به الشباب .. اخوتك يريدون » ويصيح فيها

ــ ومن قال لك اننى ينقصنى شىء .. البركة فى الاستاذ .

فعلا لم يكن الاستاذ ليبخل عليه بأى شىء ، رفع مرتبه جنيهين عندما بدأيقوم بالطهى بعد وفاة زوجته .. رغم ان فكرى لم يطلب أو حتى يفكر فى ذلك قط ..

فرح يومها جدا وقال لسيده « هذا رزق العروسة » أهداه غرفة نوم هناء ــ قبل زواجها ــ بأكملها عندما علم أن أهل عروسته يطلبون أن يقوم هو بشراء الجهاز ، زادت مساعداته له بعد زواجه كان يشفق ان العبء قد زاد على كاهله .. لكنهرغم كل ذلك الحمل الثقيل يترك العمل ، ماذا يفعل اخوته ؟

هل يربطون بطونهم ؟ الامر اكبر من ذلك .. ايجار الغرفتين .. سيلقيهم المالك الى الشارع ، كيف يرضى أن يهيم اخوته على وجوههم .. وزوجته التى لم يمض على وضعها مولودها الاول

أسابيع .. هل يرسلها الى اسرتها حتى يجد عملا ؟ هل يطلب من أمه أن تعود الى الفسيل .. هل يخرج شقيقه الاصغر من مدرسته ويلحقه بأى عمل ؟.. قد يلجأ الى كل هـــذه الاجراءات .. أو بعضها .. ولـكن .. لم كل هذا العناء .. ؟

وعاد الاستاذ يخبط كفا بكف :

ــ هانت عليه العشرة .. ؟ لم تهن على أنا قط .. تكاد نفسى تتمزق حسرة ..

لكنه كان يغالط .. يغالط نفسه ، يستطيع الانسان أن يغالط العالم كله لـكنه لا يستطيع أن يغالط نفسه .. لم يكن ما يقبض قلبه ويصدع نفسه هو فقط الاسى لذهاب فكرى ــ هل هو الاسف لموقفه ؟ .. الاسف كلمة مخففة .. الاصح .. الخجل .. أحس ان هذا الشاب صفعه .. بشدة ، وحاول ان يدافع عن نفسه « ليتنى أستطيع التطوع .. قطعا لما تأخرت »

خيل اليه انه يسمع صوتا غريبا « عدت تغالط .. اللوم ليس لهذا .. لتصرفك معه » ظن انه ربما عندما يلجأ الى الســـخرية يكسب القضية « كأنه بتطوعه سيصنع المعجزات ــ سيهزم وحده الاعداء ويأتى لنا بالنصر .. لم أمنع قائدا محنكا ، يأخذ الامر على انه موضة .. أو جدعنة »

وعاد الصوت الغريب ينساب من داخل نفسه « لو كان تطوع الشباب حركات تهريج لما اهتمت به الهيئات الرسمية ونظمته ، الحرب ليست فقط قادة وجنودا منظمين .. المقـــاومة الشعبية لها أيضا اهميتها القصوى » ..

وضع عكازيه تحت ابطيه وراح يسير فى الشقة جيئة وذهابا .. بغير هدى كمثل حيوان فى قفص .. والضيق بداخله يزداد ، لم يكن يلجـــأ للعكازين الا للضرورة القصوى فالقفز بواسطتهما ينهك قلبه الضعيف .. لم يبال وعاد يروح ويجىء ويقوم ويقعد ، تعب أخيرا فارتمى فوق فراشه .. لم يعد يأخذ ويعطى مع نفســـه .. سكت الصوت الغريب ولـكن قبله فرغت حججه .. بدأ يحدث نفسه بصوت عال ... كالمجانين :

ــ كيف وقفت هذا الموقف ؟.. كيف سمح لسانى لهذه الكلمات أن تجرى عليه ؟ كيف تصرفت هكذا أنا ابن مصر المخلص الوطنى الذى لا يتردد فى أن يفدى بلده بحياته .. بل قدمت له ما هـــو

اغلى من حياتى .. ابنى ، هل ابخل عليه اليوم بـ .. بماذا ؟ .. براحتى التى يوفرها وجود فكرى بجوارى ، منعته على زعم انه واحد .. مجرد فرد فما قيمته وهناك غيره مئات الالوف ..كيف فاتنى أن نفس هـذه الالوف مكونة من أفراد ؟.. الهرم الاكبر بكل ضخامته مكون من عدد من الاحجار الصغيرة .. تلال الرمال عبارة عن مجموعة من الذرات الضئيلة ، فماذا تكون النتيجة لو تقاعس كل شخص بحجة أنه فرد .. لما كان هناك جيش ولا مقـاومة شعبية على الاطلاق .

أخذ يضغط كفيه حينا ويفرك جبينه حينا آخر .. ضحك .. بمرارة ، بسط كفيه بدهشة « كان المفروض أن اطلب أنا منه ذلك .. فاذا تلكأ حاولت اقناعه وان رفض أجبرته ، بأى وسيلة ، لكنه هو يرجونى فأرفض .. كيف ؟ .. هل يجن الناس أحيانا .. لساعات .. ؟

هدأ اخيرا وهو يجد الجواب لأسئلته .. أخطأ .. ليس العيب أن يخطىء الانسان فكلهم غير معصوم .. لـكن العيب أن يسطع أمامه نور الصـواب ومع ذلك يظل يكابر .. كان الخبر الذى حمله اليه فكرى مفاجئا فلم يستطع أن يعيه ساعتها الا بعقلية الفـرد الذى لايرى غير احتياجاته الشخصية فقط .. حتى تنبـه فيه المواطن .. العضو الصغير فى الخلية الضخمة .. اتسعت نظرته وتعدت احتياجات منزله الى احتيـاجات البلد كله ، ليس فردا من أهـل البلد وحسب .. انه صاحب حق .. صـاحب دم .. صـاحب ثأر .. وكم تمنى لو أخذه بيـده .. لا يستطيع التطوع

.. وحتى التبرع بجزء من دمه رفضـوه لكبر سنه .. ربمـا بسماحه لفكرى كان يسهم بنصيب .. تذكر انه قـرأ يوما من حكايات العزب القـديمة أن الاغنياء من المرضى كانوا يستأجرون من يحارب بدلا عنهم .

بدأ يرتب فى ذهنه .. يمكن أن يضع فكرى بجواره .. قبـل ذهابه ترموس المـاء وبعض الـكتب .. يستطيع الذهاب بالعكازين ليفتح الباب للطارق « .. سيتعبنى ذلك حقا وسأحرم من بعض ما أشتهى ولـكن .. من قال ان الناس أثناء الحروب يعيشون حياتهم العادية .. يضحون بالـكثير ويتجشمون الـكثير ربما كان أقله ما سوف أقاسى ، ماذا عما ينتظر فكرى وأسرته من معاناة ؟ » لن

يكون أضعف من الشاب .. بدأ حنقه عليه يتحول الى اعجـــــاب ولم ينس نفسه .. « تربيتى » ..

فجأة أحس بالبـاب يغلق .. عاد فـكرى .. خالط سروره بعودته شعور غريب بخيبة الامل .. استكبر التضحية فعاد ؟.. أقنعته زوجته ؟ سأل :

ــ عدت يا فـكرى .. ؟

ــ عدت .. ولم أعد .

ــ أهى فزورة ؟.. كبرت ــ حتى على ــ وأصبحت فيلسوفا..

ــ لن أكبر عليك أبدا .. عدت لاننى لم أستطع أبدا تركك وحدك .. لست قليل الاصل الذى لا تثمر فيه التربية ، كنت دواما الأب الحنون .. لا المخدوم الآمر ، وجمائلك تطوق عنقى ، فـلا يمكن أن اتخلى عن خدمتك فى مرضك لآخر يوم فى عمرى .. لا تستغرق تدريباتى فى مركز المقاومة يومى وليلى كله .. سأقضى هنـا جميــع أوقات فراغى من التدريب والدوريات .. أستطيع حتى بعـــد منتصف الليل أو فى الفجر أن أطهو الطعـام وأنظف الشقـة .. لـكنى لم أعد .. لم أعد كخادم .. حيث اننى لن آخـذ مليما واحدا مقابل اداء واجباتى تلك .. كأى ابن يخـدم أباه .. لقـد استعفيت نهائيا من الخدمة .. عندك أو عند أى انسان .

ــ لماذا ؟ هل هى عيب ؟ هى عمـل .. من يعمـل فى منزل كمن يعمـل فى مصنع أو فى حقـل سواء بسواء .. لـكننا نخطىء أحيانا فى التطبيق .. أنا أخطأت .. اعترف واعتذر .. انت ايضـا أخطأت بتعجلك لكنى قبلت عـــذرك .. ولو انك لم تعتذر .. وسأعيـدك لعملك على شرط

نظر اليه فـكرى بذهول :

ــ شرط . ؟

ــ نعم .. الا تتغيب ثانية واحدة عن مواعيد مركز المقاومة ..

لم يرض الاستاذ منير عن نفسه الا بعد أن اندفع اليه فكرى.. يعانقه .

لـيـلة عليها النـور



ليلة عليها النور

الصوت عال ، غاضب .. لم اجد عناء فى تمييزه .. صوت زوجى أسرعت أستعلم عن المصيبة الجديدة .. أما كفتنا مصيبة الفجر ؟ .. لم يرنى .. كان ينظر فى فضاء الحجرة بأسف وأسى شديدين وحوله أشقاؤه وشقيقاته فى حال ليست خيرا منه بكثير .. سقط قلبى بين قدمى .. :

– ما الخبر ؟

وخبط كفا بكف :

– الشيخ عبد ربه !

– من يكون ؟

– أكبر فقيه فى البلد .

– ماله ؟

– سيقرأ فى مأتم الحاج كروان .

– وماذا فى ذلك ؟ اليس فى البلد كلهافقيه سواه ؟

– كثيرون ، ولكن ماذا يقول الناس ؟

– أى ناس ؟.. وماذا عساهم يقولون و ..

وسحبتنى احدى شقيقات زوجى من يدى الى حجرة اخرى :

– زوجك متعب وحزين ومتضايق .. لا داعى لكل هذه الاسئلة فانك لا تفهمين التقاليد هنا فى البلد ..

– فى امكانك ان تخبرينى ..

وفى حوار وأسئلة وأخذ وعطاء استطعت أن أفهم ان وضع الشيخ عبد ربه بين باقى المقرئين فى البلد مثلما كانت أم كلثوم بين باقى المطربات ... يمكن الترتيب والمقارنة والمنافسة بين الجميع ، بعده .. أما هو فقمة وحده .. وأهل البلد سيلوكونهم بألسنتهم كثيرا اذا استدعوا أى مقرىء سواه لاحياء مأتمهم ، سيظنون انهم استرخصوا أجر مقرىء آخر ، والا .. فهل سيطلقون مناديا ليشرح للناس قصتهم مع الشيخ من أولها ؟ وما فائدة حتى ذلك .. سيتحول الجميع – وكلهم بالشيخ عبد ربه معجب مفتون – الى

سرادق الحاج كروان ويتركون سرادقهم هم ... وهم من هم فى البلد .. أصحاب الجاه والحسب والنسب .. أين منهم الحاج كروان الذى كان الى وقت قريب معلمــا لعربات الكارو حتى أنه سافر للحج خصيصا كى يتخلص من لقب « المعلم » الذى رفض ، أو رفض النــاس أن يخلعوه عنه حتى بعد أن أصبح يملك الالوف .. سيقول الناس : المال هو كل شىء .. ويبدو أن المال يشترى كل شىء .. حتى الذمم .

ترك زوجى أحزانه وباقى مهام الجنازة والمأتم والنشرة و . و .. واسرع اليه .. اتفق معه .. وهو خارج لمح أولاد الحاج كروان هناك ، حمد الله لاسراعه وأثنى على بعد نظره ..

بعد عودته جاءه صبى الشيخ بكلام عجيب جعله يسرع اليه ثانية

ــ كيف تقــول ان أولاد كروان اتفقوا معك قبلى وأن ذلك كان قد غاب عن بالك حين اتفقت معى ؟.. ليس ذلك صحيحا ، بل هم ضاعفوا لك الاجر ..

ــ كيف لا أقول ذلك ، وهو الحقيقة .. عموما الامر ليس بالغ الصعوبة .. سأدفع لك أكثر منهم ..

ــ هكذا كانوا أذكى منى اذ جعلوك تقسم على المصحف وان كان لا يجدر بى أن الوم نفسى اذ رأيى انه وان كانت البهائم تربط من اقدامها أو رءوسها .. فالرجل يربط من لسانه .. أنت تظن الحرام فقط الحنث بالقسم ، أما الرجوع فى وعد قطعته على نفسك فــلا ترى فيه من خسة .

ــ بل العيب هو مافعلته انت .. يا صاحب الفضيلة ..

ساد صمت ثقيل بعد انتهــاء زوجى من رواية موقعته مع الشيخ قطعه شقيقه فى عنجهيته العسكرية :

ــ حيث الامر كذلك لا أجد داعيا لاقامة كل ذلك السرادق الذى تنويه .. ما أشد سخرية البلد غدا من سرادق خاو على عروشه.. خاصة والذين يهمهم من الامر كله مجاملتنا قليلون لطول اقامتنــا بعيدا عن البلد ، أكرم لنا أن تكون قلة عدد الوافدين بيدنا نحن .

صاح زوجى :

ــ أبدا .. سيكون ذلك بجوار المقرىء الصــغير مدعاة لتقول الناس علينا بالشح وانتقاصهم لشأننا وتندرهم بعدم اكرامنا لأمنا .

حقا ما أقسى كلام الناس .. سيتهكمون فى كلتا الحالتين فأيهما اخف ؟ انضمت الشقيقات لزوجى :

– ليعمل لها مقامها وليكن بعد ذلك ما يكون .

بدات الاستعدادات لخروج الجثمان .. ليرحمهـــا الله .. كانت آية فى الطيبة والصفاء .. حمـــاتى .. مع ذلك لم تقـدم لى اية اساءة طوال حيـــاتى الزوجيـــة .. لا مباشرة ولا عن طريق الايحاء لابنها .. بل كانت تحبنى جدا وجميع أحاديثها عنى له أو للجيران والخدم كانت مدحا رقيقا .. برهبة تقدمت أودعها الوداع الاخير .. رفعت طرف الطرحة عن وجهها .. ودهشت .. كنت خائفة وجلة .. خيل الى ان منظرها سيفزعنى .. ابدا .. بل هى جميلة كما كانت دائما .. أين هى صفرة الموت من وجهها المتورد ؟ لا فك معووج ولا اية تقلصات بل قسمات هادئة .. مغمضة عينيها كأنهـا نائمة .. فقط عندما قبلتها احسست ببرودة وجهها .

عن ذلك تحدثت مع بعض المعزيات واذا بناتها يزدن الـكثير .. احداهن قالت انها ابتسمت لها حين رفعت عنها الغطاء ، والاخرى أكدت انها حركت راسها لتعطيها الخد الايسر بعد أن قبلت الايمن .. من يدرى .. ربما سقط راسها حقا لحركة الابنـة نفسها .. الجارات أيضا اشتركن فى المباراة .. « كانت كريمة صالحة » .. قليل من أهل البلدمن كان ينعتها بالحاجة زينب .. اغلبهم كانوا ينادونها بالسيدة زينب رغم حجتها .. تشبيها لها بصاحبة الاسم الـكريم حفيدة النبى .

– كم بيتا كانت تساعده من أرامل أو يتامى .. بيتها كان مفتوحا دائما لـكل ذى مقصد .. القطرة – رغم أن عينيها لم تؤلمانها يوما لم تنقطع من المنزل ابدا .. كذا المكروكروم والاســـبيرين معونة للجيران الفقراء الذين كانوا يؤمونها بالعشرات .. ميتة كالاولياء .. حتى الساعة الواحدة كانت تمزح معهم ثم توضأت وصلت العشاء و .. ماتت بوضوئها .. فلا قىء ولا خلافه .. لا ولا الم من اى نوع وقت صعود الروح .. والا لسمعتها خادمتها التى كانت تلازمها فى حجرتها والتى كان من أهم مميزاتها النوم الخفيف .. وفى الصباح .. صباح يوم مولد النبى صلى الله عليه وسلم .. كانت قـد ذهبت

قطع الحديث هرج ومرج ومياه تدخل ومعدات تتوالى وناس يهرولون ، وارتفع نحيب بناتها وان لم تنس كبراهن أن تؤكد على احدى الخادمات – وسط نحيبها – أن تراقب المغسلات جيدا حتى لا يخبطن الدكة فى الباب وهن خارجات فان هذه الحركة تعيدهن الى المنزل مرة أخرى والعياذ بالله .. على ما يقال ..

فى أشد لحظات رهبة الموت لا ينسى الاحياء الحياة ..
جاءتنى من تقول :
ـ تعالى ..
الى أين ؟ ..
ـ تعالى والسلام ..
وذهبت معها خارج الشقة الى الشقة المقـــابلة .. شـــقة جارة حماتى وصديقتها الحميمة حيث مدت مائدة كبيرة لابناء المرحومة وزوجاتهم وبناتها وأزواجهن القادمين من القاهرة والاسكندرية .. حيث العيب كل العيب أن يقدم طعام فى منزل المأتم ! وجدت الجميع يأكلون عدا زوجى .. وعلمت انه عاد من تشييع الجنازة منهــارا وطمأنتنى شقيقته .. ولـكنى حملت اليه طعامه فى حجرته .. انتهيت من طعامى وذهبت اليه .. لم يذق شيئا .. ظللت به حتى بدأ يأكل ، لم يكن قد أصاب لقيمات معدودة حين دخــل شــقيقه دفعة واحدة كما لو كان قد أطلقه مدفع :
ـ تصور .. حتى الشيخ مصطفى حسن ؟ !

بهت زوجى ولم يرد وبالـكاد استطعت أنا اقفال شفتى على ما كان سينطلق من بينهما .
أفلتت الجملةالاولى فقط :
ـ ماله هو الآخر .. هل انضم أيضا الى معسكر الحاج كروان ؟

ـ أرسل الآن من يقول انه كان يحس بوعكة خفيفة فى الصباح فاتفق معنا على أمل أنه سيكون أحسن فى المساء .. لـكنه بعــد الغداء نام قليلا ليستيقظ بحلق ملتهب جدا حتى انه شرح الامر لابنه بالاشارة ، وسوف يرسل الينا ـ اذا وافقنــا ـ ابن شقيقته الطالب الأزهرى الذى تصـــادف أنه حضر بمناسبة ذكرى المولد النبوى الشريف ، والذى يجيد قراءة القرآن .. كهواية .

وصاح زوجى :
ـ وهل وافقت ؟ !
ـ وماذا كان بوسعى أن أفعل والمغرب قد اقترب وبدأ النـــاس يتوافدون عدا أن الليلة مولد النبى وأسر كثيرة تسهر فى منازلها بهذه المناسبة ولا أعتقــد أن هناك مقرئا خاليا حتى الآن سوى مقرئى الجبانات فهل تنزل أنت لتتصيــد لنا منهم اثنين أو ثلاثة

لو كنت أقيم حفلة أو سهرة لالغيتها أو أجلتها لـكنه مأتم ..

مأتم أمى ، لم اكن راضيا بالشيخ مصطفى حسن وكان به بعض الرمق بعـــد الشيخ عبد ربه .. لان لا مقرىء درجـة ولا ثانية ولا ثالثة حتى .. بل شخص هاوى قراءة .. !

وقلت أنا: ربما كان صوته جميلا ..

ــ ومن يهتم بجمال الصوت .. اغلب الاشخاص لا يهتمون الا بالاسماء وغدا تسمعين النـاس كلهم يسخرون .. فمن أحضرنا ؟ شخصا مجهولا لم يسمع باسمه أحد قط ...

ولم أستطع قول شيء فقد كان هـذا صحيحا تماما وان لم تكن لى تجارب مع سميعة القرآن الا ان ذلك ما يحدث فى كل ميدان .. الفن .. الادب ، وضع زوجى رأســه بين كفيه فى حالة يأس بالغ .. غمغم « هكذا دائما .. من يرفض الخـوخ يقبل شرابه »

واذا كان ذلك تصرف الرجلين الحاصلين على أعلى الشهادات فلم يـكن غريبـا أن يزداد نحيب بناتها خاصة أكبرهن سنا وهى فى نفس الوقت أقلهن ثقافة « ... أكان لابد أن تكون وفاتها يوم مولد النبى وفى نفس يوم وفاة الزفت كروان ، حسرتى عليك يا أمى » .

شق عليهـا أكثر من وفاة أمها اسم مقرىء المأتم النـــاشىء وقدرهم بين أهل البـلد ، قال لى زوجى معاتبا :

ــ ما دمنا نعيش بين الناس فــلا عجب أن نهتم بمعاييرهم ، كان لابد من محاولات جديدة حتى يرضى بالعودة للأكل .. يبدو ان تلك المحاولات اســـتفرقت وقتا والا فمتى حضر كل أولئك النسوة .. عشرات من السيدات يجلسن فى صفين طويلين أسودين كأنهما ضفيرتا شعر حالك السواد وسرت فى « الفرق » بينهما ، كانت حجرة المعزيات من الاقارب فى الناحية الاخرى ومالت واحدة من الجالسات تهمس بصوت استطعت سماعه «حرم سى صلاح»

وارتفعت الرءوس كلها ترمقنى فى فضول . كانت أصعب عشر خطوات سرتها فى حيـاتى .. وكأننى أسير على الصراط المستقيم ، كانت حماتى قد قالت لى فى زيارة سابقة « كل مرة تحضران ليلة واحدة .. أصحابنا وحبايبنا فى البلد كلهم يريدون رؤيتك . رؤية ستالحسن والجمال التى استطاعت أخيرا أن تحوز اعجاب الشاطر حسن » وضحكت من قلبى :

ــ انا متأكدة يا ماما اننى لا ازيد شيئا على اى فتاة عرضتموها

عليه طيلة السنوات السبع التى استغرقتها تلك المحاولات .. لكن يبدو أنه وقتها لم يكن يبغى الزواج وهو طبعا لم يغير رايه عندما رآنى بل ربما كنت أول فتاة صادفها بعد أن فعل ذلك من تلقاء نفسه .

وتضحك حماتي عاليا :

ـ ما هذا التواضع .

احسست بضيق شديد ، الاعين كانت تتوقع بلا شك شيئا مبهرا وجمالا فوق العادة وانا ـ حتى مع كل فنونى فى التأنق والتزين ـ لست كذلك فكيف بى اليوم ووجهى خال من أى ماكياج .. بل عليه ماكياج عكسى من عفار السفر الطويل وارهاقه فى الطريق الملىء بالمطبات ونقص النوم ومناظر الحزن وتعب زوجى والدموع الساخنة .. دموع كثيرة ذرفتها .. بعضها على حماتى وبعضها كان على اخى الحبيب الذى ذهب ولن يعود ..

« واحد .. اثنين .. ثلاثة .. اربعة » ويتوقف الصوت المصم للآذان ويهرع اليه معلمه ينوى توبيخه .. هل نسى الحساب لكنه ما يكاد يقترب منه حتى يرى شفتيه تتحركان .. ويقترب اكثر فيسمع .. « تسعة .. عشرة » :

ـ الميكروفون مقفول ؟

ـ طبعا لا .. لقد فتحته ..

ـ ربما كان عطلانا .. لماذا لا تراه ؟

ـ ابدا .. هل يكون التيار ؟

اسرع الى مفتاح النور يديره ولكن اللمبة لم تسطع .. أف .. لا بد من الانتظار حتى يعود التيار » لكن الدقائق تكمل الساعة والظلام يزداد .. اضطرت الاسرة للاتصال بوابور النور ، فرد المهندس بأنه يأسف اشد الاسف فالعطب هذه المرة كبير ومع كافة ما يستطيع الجهد البشرى أن يقوم به فلن يعود التيار قبل ظهر اليوم التالى .

امسك زوجى براسه كمن يتحسس خبطة تلقاها .. أما شقيقه فمضى فى تكملة الترتيبات .. من كثرة الصدمات تبلد احساسى .. لم أعد أشعر بشىء .. ليكن ما يكون .. الاضاءة مقدور عليها .. « فالكلوبات » تنير مثل الكهرباء واكثر لكن الميكروفونات .. لم يكن اجدادنا يستعملونها لكنها الآن أصبحت من ضروريات المآتم ..

قلت لشقيقة زوجى « الكهرباء مقطوعة بالبلد كلهـا وهكذا لن يظن احد أنكم قصرتم !

الميدان كله مظلم وكذلك الشوارع المتفرعة منه عـدا السرادقين اللذين يقبع أحدهما عن يمين الميدان والثانى عن يساره .. مقـابلين لبعضهما البعض تماما .. بدا الناس يتوافدون عليهما .. أفراد قلائل كأنهم بشائر فاكهة جديدة .. انتهت صـلاة المغرب وزاد نزول الفاكهة .. وبدأت تلاوة القرآن .. بدون ميكروفونات وهنا انكشف الشيخ عبد ربه وبدا قزما ضئيلا بالغ الضآلة .. كان الميكروفون بالنسبة له كمرآة مكبرة ظل يختفى وراءها زمنا فلم يره النـاس على حقيقتـه وانما رأوا صـورته فيهـا ، واليوم رآه الناس أو بالاحرى سمعوا صـوته بدون تكبير أو تفخيم .. صـوت رخيم نعم ولـكنه ضعيف جدا .. خافت جدا .. لا يكاد يتعدى الافراد القلائل المحيطين به حتى ينقطع ويتبخر ويتلاشى . ويبدو أن صوته كان من الاصـل ضعيفا ثم ازداد ضعفه مع تقـدمه فى السـن وادمانه المكيفات .

وعلى العكس فى سرادق الحاجة زينب حدثت المعجزة .. انطلق الشيخ أبو المكارم بصـوت قوى عفى جهورى .. صوت طويل عريض ضـاقت به جنبات السرادق الكبير فتعـداها خارجا الى الفضـاء الخالى .. النـاس يحضرون من مدخل الميـدان.. أحد السرادقين صامت كصمت صـاحبه فى ليلتـه الاولى داخل القبر والثانى تتصـاعد منه التـلاوة بصـوت رخيم .. الاقدام تتجه تلقائيـا اليه وآهات الاستحسان تتوالى والشيخ بها ينتشى فيزيد ابداعه وتجويده ويزداد صـوته قوة وحلاوة .. صـوت عجيب لم يسمع أحد مثله أو حتى سمع بمثله من قبل .. !

الصـوت وصـل حتى الشقة ونال اعجاب المعزيات ايضا .. تركن الحديث والثرثرة المعهـودة وانصتن بشغف ، وحتى اذا تـكلمت احداهن فلم يـكن ذلك الا همسـا وكان الهمس كله عن أفضـال الحاجة وليلتهـا الحلوة المنورة بنور من عند الله .. الذى تقبلهـا قبولا حسـنا .. أحاديث المعزين ايضا فى خروجهم بعد انتهاء الليلة كانت عن الشيخ أبى المكارم وان تنوعت تلك الأحاديث .. بعضهم يرون أن أولاد الحاجة مهما دفعوا للشيخ فلن يوفوه أن أحيـا لهم ليلتهم خير احيـاء .. البعض الآخر كان يرى أن طيبـات الحاجة هى التى فعلت المعجزة وعطلت النور .. فلهـا

بالتالى على الشيخ فضل عليه الا ينساه طوال حياته فقد نال فى تلك الليلة من الشهرة وعلو الصيت ما لم يكن ليبلغه فى كل سنوات عمره .. البعض الثالث وانا منهم كان يرى فيما حدث وفى نزول الشيخ عبد ربه فى عيون الناس من العلو الشاهق الى زاوية الرثاء بين يوم وليلة عقابا الهيا له جزاء اخلافه الوعد من أجل بضعة جنيهات.. البعض الباقى لم يحاول أن ينسب افضالا أو سيئات لأحد واكتفى بأن ردد أكثر من مرة .. كانت ليلة عظيمة .. ليلة عليها النور ..



تمت